دانييل لوكا
ترجمة: فايز القنطار

سورية الجنرال أسد

مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER
FOR CONTEMPORARY STUDIES

سورية الجنرال أسد

دانييل لوكا

ترجمة: فايز القنطار

سورية الجنرال أسد

دانييل لوكا

ترجمة: فايز القنطار

مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER
FOR CONTEMPORARY STUDIES

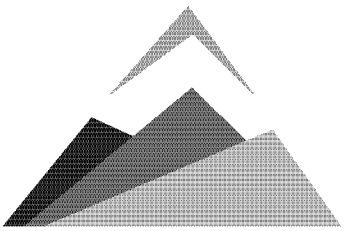

الفهرسة أثناء النشر – إعداد مركز حرمون للدراسات المعاصرة
دانييل لوكا
ترجمة: فايز القنطار
سورية الجنرال أسد
260 ص، 24 سم.
يشتمل على فهرس عام.

ISBN 978-605-67950-8-4

العنوان بالإنكليزية
La Syrie du général Assad
Daniel Le Gac
Translate: Kontar Fayez

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز حرمون للدراسات المعاصرة

الناشر

مركز حرمون للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER FOR CONTEMPORARY STUDIES

هاتف
الدوحة، قطر: 996 885 44 974+
غازي عنتاب، تركيا: 5112 326 342 90+

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
27000 غازي عنتاب، تركيا

البريد الإلكتروني: info@harmoon.org
الموقع الإلكتروني: www.harmoon.org

الطباعة والتوزيع

ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع
Maysaloon for printing publishing and distribution

هاتف
الدوحة، قطر: 996 885 44 974+
غازي عنتاب، تركيا: 5885 326 342 90+

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
27000 غازي عنتاب، تركيا

البريد الإلكتروني: info@darmaysaloon.com
الموقع الإلكتروني: www.darmaysaloon.com

© جميع الحقوق محفوظة لمركز حرمون للدراسات المعاصرة ودار ميسلون للنشر والطباعة والتوزيع

الطبعة الأولى
غازي عنتاب، حزيران/ يونيو 2017

إلى منى

إلى هيثم لنصائحه الثمينة

إلى رياض الترك لشجاعته التي لا تقهر

«للحكومة ذراع طويلة وذراع قصيرة، الطويلة تأخذ وتصل إلى كل مكان، والقصيرة تعطي ولكنها تصل للمقربين جدًا فقط».

أغناطيوس سيلون

المحتويات

مقدمة المترجم 9

مدخل 13

أولًا: بعض الملامح المهمة 29

ثانيًا: أقلية ونضال وعسكر 55

ثالثًا: الشخصية المشروع والانحراف 99

رابعًا: خمسة عشر عامًا في لبنان 135

خامسًا: المحيط العربي الإسلامي 167

سادسًا: دمشق وموسكو وواشنطن وباريس 189

سابعًا: النظام السوري، ومنظمة التحرير الفلسطينية، و«الكيان الصهيوني» .. 213

ثامنًا: خاتمة 229

ملحق 245

المصادر والمراجع 255

مقدمة المترجم

يأخذ هذا الكتاب أهمية خاصة في هذه المرحلة السوداء من تاريخ سورية التي تشهد تدميرًا ممنهجًا من قبل آل الأسد؛ إذ يلقي الضوء على عقدين من حكم الأسد الأب، أي مرحلة التأسيس، ومرحلة مصادرة الدولة السورية والاستحواذ على المجتمع السوري وبناء الآلة القمعية لإخضاع المجتمع مرة واحدة إلى «الأبد».

أسهمت هذه الدراسة -ربما- في فهم آلية عمل النظام وأساليبه، للإمساك بمفاصل الحياة جميعها، والتلاعب بها، وتسخيرها لخدمة حفنة من النخب الحاكمة التي باعت ضميرها وأخلاقها، وبرعت بالكذب والفساد والتملق والمدح والتمجيد وخلق آلهة ممسوخة تعبدها، وتفرض على الشعب السوري أن يعبدها أيضًا.

على الرغم من مضي سنوات طويلة على تأليف هذا الكتاب، إلا أنه يبدو حديثًا أكثر من أي وقت مضى، إذ يساعد في فهم ما يجري في الوطن السوري من قتل وتهجير وتدمير وجرائم ضد الإنسانية. فالعصابة (المافيوية) الممسكة بمقدرات سورية، تنفلت من كل وازع أخلاقي، ولا تتردد في قتل مئات الآلاف من السوريين، وتشريد الملايين، وتدمير بيوتهم ومصادر عيشهم، في ظل صمت دولي مريب، وإرادة دولية مشلولة بفعل الهيمنة الصهيونية، هيمنة تحقق حلمها بالتدمير الأسدي لسورية، ودفع المنطقة إلى صراعات دينية ومذهبية بين كيانات ضعيفة وممزقة بحيث تنسى الصراع العربي-الاسرائيلي سنوات طويلة قادمة.

أسس حافظ الأسد دكتاتورية غير مسبوقة، بعنفها ووحشيتها وانفلاتها من قيم العالم المعاصر كلها، ومارس النهب والسطو المنظم على مقدرات السوريين وثرواتهم، وعمل على إفقارهم، لتتضخم حسابات عائلته وأزلامه في المصارف الدولية على حساب المقومات الأساسية للحياة؛ من صحة وتعليم وخدمات تليق بالبشر، فعائدات النفط السوري لم تدخل يومًا في حسابات الدولة السورية طوال حكم الأب.

لا بد من الإشارة إلى أن أفعال سابقيه كلهم -على الرغم من معتقداتهم ومن قسوتهم ومن تخبطهم- ركزت في الحد من نظام القبيلة والتبعية، ليتحول كل فرد إلى مواطن حديث في دولة مواطنة. وليثبّت الأسد سلطته جيدًا، لم يجد أفضل من إحياء

ماض لا يريده السوريون معظمهم، لأنهم عانوا تبعاته أشد المعاناة؛ فأعادهم إلى الوراء؛ إلى ما قبل مفهوم المواطنة والوطنية. كانت الغالبية العظمى من السوريين قبل أربعين سنة تطالب باعتزاز بعروبتها؛ لكن في عهد الأسد، تمترس كل منهم خلف طائفته الأصلية، ولم يكن ثمة حديث إلا عن المسيحيين والدروز والشيعة والسنة والعلويين واليهود. نظرت إسرائيل صاحبة المصالح الجلية في انبثاق دويلات طائفية عدة في المنطقة؛ بارتياح إلى مصادرة الدولة السورية لمصلحة آل الأسد، واستعمال الطائفة العلوية في هذا المشروع، وإضعاف الدولة اللبنانية وإذلالها، والتلاعب بتعميق الانقسامات بين الطوائف وداخل كل منها، ولعل هذا ما أوصل النظام السوري إلى النتيجة المحزنة التي تنتظرها إسرائيل نفسها، وشكّل برميل البارود الذي أدى إلى انفجار الثورة السورية منذ خمس سنين ونيف.

لم يتمكن النظام من إدراك الحال الكارثية التي تحيط اليوم بالمجتمع المدني السور، الذي أفرغه من مقومات الحياة كلها، وحوّله إلى مجتمع بوليسي بامتياز. ولم يكن في جعبته إلا العصا الغليظة في مواجهة المطالب الشعبية؛ المطالب بالانفتاح، وإلغاء قانون الطوارئ، واحترام الحريات العامة في التعبير والتفكير والتجمع والتظاهر، وفي الحق بالإضراب.

تلازم الاستبداد بانتشار الفساد الذي أصاب مؤسسات الدولة في الصميم، وأدى إلى تآكل القيم الأخلاقية، واضطراب العلاقات الاجتماعية، ونشوء علاقات مرضية تقوم على الوصولية والزبائنية والانتهازية. بعد توريث السلطة، توسعت الهوة بين الفقراء والأغنياء الجدد، من النخب الحاكمة التي تتحكم بجميع مفاصل الحياة الاقتصادية والسياسية والأمنية، واستفحل الفساد، وشعر الإنسان بغربة حقيقية، في بلده نتيجة التهميش والاقصاء، وازدياد عدد العاطلين عن العمل، وغياب الحريات وانسداد الأفق أمام الجميع، خصوصًا الشباب.

يثبت نظام الأسرة الأسدية اليوم أن ما يهمه هو البقاء في السلطة، ولا يقيم أي اعتبار لمستقبل سورية وشعبها ووحدتها وسلامة أراضيها، بعد أن وضعها في مهب الريح، واستقدم المرتزقة والموتورين الطائفيين من جهات الأرض الأربع، لقمع من يُفترض أنه شعبه، فدفع بالعنف البربري إلى حدود لم يعرفها التاريخ بالتدمير المنهجي

للمدن والبلدات التي احتضنت التظاهرات السلمية المطالبة بالحرية والكرامة والتغيير السلمي. وأعطى لنفسه حق إبادة السوريين بالصواريخ والبراميل والأسلحة الكيميائية وأسلحة الحصار والتجويع، لأنهم خرجوا من حظيرة الطاعة بتأثير ثورات الربيع العربي، ورفعوا الصوت عاليًا مطالبين بحقوقهم الأساسية كبشر.

وعندما فشل في إخضاع السوريين -على الرغم من استخدامه كل ما لديه من قوة- وضع البلاد تحت الوصاية الاستعمارية الأجنبية، واستقدم الروس والإيرانيين وأذرعهم الطائفية، لاستكمال التدمير المنهجي لسورية، ودفع أهلها إلى الهجرة بتهديد من القصف المدمر لمعالم الحياة كلها، وحصار المدن والأحياء المكتظة بالسكان، وحرمانها من أسباب الحياة كلها. ولم يخجل من شعاراته التي أعلنها منذ البداية: الأسد أو نحرق البلد، الأسد أو لا أحد.

أكد لنا مؤلف هذا الكتاب «Ignace DALL» بتواصلنا معه أنه اضطر إلى نشره باسم مستعار خشية ملاحقة آلة القتل الأسدية التي تطول كل من يحاول توثيق جرائمها. نتوجه بعميق الشكر والتقدير لهذا القلم الحر الذي انحاز إلى الشعب السوري، وفضح أساليب النظام، ووثق كثيرًا من جرائمه، لن ينسى الشعب السوري السيدة إيناس دال وميشيل سورا وفلاديمير جلاسمان وأمثالهم من الأحرار الذين رفعوا الصوت عاليًا ضد الطغيان، وانتصروا لقضايا العدل والحرية.

جهدنا في الحصول على موافقة الناشر على هذه الترجمة ومن ثم نشرها، إلا أن دار النشر المعنية مقفولة منذ أمد بعيد، وهذا ما أكده المؤلف الذي زوّدنا –مشكورًا- بوثيقة تتضمن موافقته وترحيبه بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ونشره.

أهدي هذا العمل المتواضع:

- إلى ضحايا الطغيان الأسدي، خصوصا السوريين واللبنانيين والفلسطينيين.
- إلى الشعب السوري العظيم الذي يدفع غاليا ثمن الحرية

فايز القنطار

مدخل

تحمل سورية والعراق -من بين الدول العربية جميعها- صورة مؤسفة إلى العالم الغربي، يتقدم العراق قليلًا بوحشيته على سورية، فهذه الأخيرة تحولت منذ نهاية سبعينيات القرن العشرين إلى دكتاتورية غير مسبوقة أو إلى «عش إرهابي». وعلى الرغم من ذلك يستفيد رئيسها الجنرال حافظ الأسد من فكرة مسبقة إيجابية، إذ يندر ألا يقوم المسؤولون الأوروبيون والأميركيون أو رجال الدولة والدبلوماسيون بإظهار تقديرهم له –ولو بطريقة باردة- منذ عقدين مع التأكيد على الخصائص الاستثنائية لنظامه.

أظهر كبار سياسيي هذا العالم جميعهم، بدءًا بريتشارد نيكسون وجورج بوش وهنري كيسينجر وفاليري جيسكار ديستان، مرورًا بفرانسوا ميتيران وجيمس بيكر -في وقت ما- إعجابهم بـ «عقلانيته»، و«ذكائه» أو «واقعيته» في معرض الحديث عن الرجل الذي يقود منذ عام 1970 مصير هذا البلد، بعدد سكانه البالغ 12 مليون نسمة، ومساحته التي تقارب مساحة بريطانيا العظمى.

كان هنري كيسينجر الأكثر تأثرًا بالأسد، ولا سيما في مستوى المفاوضات القاسية والمضنية التي انتهت إلى الاتفاق في عام 1974 على تحرير عشرات الأسرى الإسرائيليين، مقابل الفصل بين القوات المتحاربة في مرتفعات الجولان التي تحتلها الدولة اليهودية. تم الكشف فيما بعد -بخلاف ما تمّت إشاعته بقوة- أن جنود الجيش الإسرائيلي الأسرى لم يتم تعذيبهم بل عوملوا معاملة حسنة نسبيًا. بالمقابل، فاجأت إسرائيل العالم عندما قامت جرافاتها بتدمير مدينة القنيطرة (عاصمة الجولان) تدميرًا تامًا قبل إعادتها إلى السوريين.

في عام 1976 أجمع العالم الغربي على مباركة التدخل السوري في لبنان، من دون إظهار أي اهتمام بهذه المناورات التي أدت إلى تمركز الجيش الأسدي في الأراضي اللبنانية معظمها، باستثناء الجنوب خضوعًا للخط الأحمر الإسرائيلي. شعر الأوروبيون والأميركيون بالغبطة مع قدر من الاستخفاف والسذاجة من هذا الوجود الذي مكّن

لبنان من «استعادة سيادته» ومن رؤية «عودة النظام والأمن» إلى أجزاء كبيرة من الأراضي اللبنانية.

عاد الجنود السوريون فيما بعد، أي في شباط/ فبراير 1987 إلى بيروت، بعد طردهم منها في أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، لإنهاء المواجهات المستمرة بين الميليشيات اللبنانية أو بين المنظمات الفلسطينية. ولم يحرك الغرب ساكنًا، ولم يجرؤ أحد على التذكير بأنه منذ أشهر طويلة، تصب الأجهزة السرية السورية الزيت على النار، وتسليح حلفاءها الشيعة اللبنانيين من حركة أمل، بهدف تصفية أنصار ياسر عرفات.

إضافة إلى ذلك، دخل مقتل بشير الجميل على يد أحد أنصار السوريين في أيلول 1982؛ في عالم النسيان. وغض الطرف عن الدور السوري في وصول كتائب مهمة من الحرس الثوري وغيرهم من المتطرفين الإيرانيين إلى لبنان.

ويضاف إلى تلك الأمثلة السابقة، رفض الغرب التدخل في أحداث مأسوية عدة أثرت في الحياة السياسية الداخلية في سورية. خصوصًا أن السفارات الغربية الكبرى جميعها تطلع مباشرة وبسرعة على تلك الأحداث. ولم تقدّم أي منها أي احتجاج مهما كان بسيطًا، علمًا بأن الأحداث المأسوية كانت متتابعة؛ ماذا نقول عن 150 إلى 200 قتيل في 9 و10 آذار 1980 في مجازر جسر الشغور، وبين 1000 و2000 قتيل خلال عام 1980 عندما أخضعت مدينة حلب، وحوالى 600 قتيل في 27 حزيران 1980 في سجن تدمر، إضافة إلى 400 قتيل في حماة بين 23 و26 من نيسان 1981. واختتمت هذه السلسلة من المجازر المروعة في شهر شباط 1982 بمجزرة مرعبة راح ضحيتها بين 20 و30 ألف قتيل في مدينة حماة.

لا يجد الصمت والتواطؤ للقوى الغربية الذي يتوجب تفسيره أي مبرر في الاقتصاد السوري؛ فسورية ليست العراق، ولا المملكة العربية السعودية، فإنتاجها لم يتجاوز 10 مليون طن من النفط متواضع الجودة، إذ يتوجب خلطه بنوعيات مستوردة أخف منه بكثير. واكتشف حديثًا النفط الخفيف الذي يقترب بخصيصاته من النفط العربي الخفيف بالقرب من دير الزور، فهذه الكمية التي لم تتجاوز 200 ألف برميل يوميًا في عام 1990 لن تؤثر في قلب موازين السوق العالمية.

تمتلك سورية إمكانات زراعية هائلة أيضًا، تمكّنها من أن تصبح في يوم من الأيام مخزن القمح في الشرق الأوسط، إلا إن الأحوال الجوية وسوء الإدارة، يضطران الدولة إلى تغطية الحاجات المحلية من الخارج.

كما إن سورية لا تمتلك المهارات التي يمتلكها لبنان، فنظامها الموجه والبيرقراطية الخانقة يعرقلان أي محاولة لأخذ دور «الأشقاء اللبنانيين، فالبلد متوسط الأبعاد لم يحالفه الحظ في الثروة النفطية، وفقد كثيرًا من نخبه التجارية والمصرفية بعد عقود من البيرقراطية المتخلفة. وبدت سورية محدودة القوة في نهاية الستينيات من القرن العشرين غير قادرة على القيام بأي دور إقليمي في الشرق الأوسط، واقتربت البلاد من السقوط بعد الهزيمة السريعة في شهر حزيران عام 1967.

بعد 23 سنة، حيث تجاوز رئيسها حدود العقدين في قمة السلطة، تعتبر سورية بحق أو بغير حق، طرفًا أساسيًا لأي تسوية سلمية شاملة في الشرق الأوسط. حيث انتقل جيشها ليشكل تهديدًا خطرًا على أمن الدولة العبرية.

بالتأكيد يجب أن نتساءل عن حقيقة هذه القوة العسكرية، خصوصًا عن تلك الظروف التي مكنت حافظ الأسد –وما زالت تمكنه- من رفض وبقوة، ليس فقط فكرة السلام، كما يعتقد البعض، وإنما أيضًا رفض المشاريع العديدة للسلام المعدة من قبل البيت الأبيض.

إن تاريخ هذا الرفض المتتالي وعدم القبول، يضرب جذوره في التقاليد السياسية السورية، يبقى الأسد ممثلًا لهذه التقاليد، على الرغم من أنه ساهم في تشويهها.

تعد سورية أقل انسجامًا وأقل تماسكًا من مصر، يتجذر الماضي العربي في سورية بعمق، كالكثير من البلدان العربية، لا يمكنها بالتأكيد إنتاج السادات. ولن تتمكن من ذلك فيما بعد. فإذا توجب على الأسد أن يقبل بالسلام مع إسرائيل، بالطبع لن يكون ذلك ممكنًا، إلا في إطار تسوية شاملة مقبولة من القادة العرب معظمهم.

كل سوري يدرك بعمق إسهام دمشق في صعود الحضارة العربية؛ فقد شكلت المدينة خلال 90 عامًا قلب الإمبراطورية الإسلامية الصاعدة، التي أصبحت أكبر من الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية امتدت من جبال البيرينيه إلى جبال الهيمالايا.

وحلت اللغة العربية في الوقت نفسه محل اللغة الآرامية تدريجيًا، لتصبح اللغة الرسمية لسورية. تعد هذه المرحلة المجيدة عند السوريين أهم أسباب الاعتزاز والفخر، علمًا بأن هذه الأسباب عدة، لأن 12 مليون سوري اليوم هم ورثة تاريخ استثنائي: ماري وأوغاريت وإيبلا، وظهور أول أبجدية في العالم عمليًا، وإبداع الكتابة منذ ما يقارب 5 آلاف سنة.

إذا أردنا الرجوع إلى قائمة بوابة الكرنك، فإن دمشق نفسها أُخضعت من قبل الفرعون تحتمس الثالث منذ 39 قرنًا، ويفتخر سكانها أحيانًا بالانتماء إلى أقدم مدينة في العالم.

على مسافة كيلومترات عدة إلى الشمال الشرقي من العاصمة السورية، وفي مخرج بلدة برزة، يوجد معبد سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان مقدسًا من قبل الطائفة اليهودية السورية الصغيرة، إذ تقول الأسطورة إن إبراهيم ولد في برزة.

ولعبت دمشق دورًا بارزًا في انتشار المسيحية أيضًا، فهنا تحول بولس تلميذ المسيح، ومن هنا بدأ رسالته، فكان لها أصداء كبيرة في العالم.

ينتمي السوريون في غالبيتهم إلى الإسلام، وهم بطبيعتهم يميلون إلى شخصية معاوية، مؤسس الملكية الأولى العربية الإسلامية، خلافة بني أمية، حيث كانوا مؤسسي هذه الإمبراطورية. وبفضل شخصيته الاستثنائية، نجح هذا الخليفة في أن تحل دمشق، محل المدينة المنورة، كعاصمة للعالم الإسلامي. وذلك لغاية قيام الخلفاء العباسيين في بغداد، الغاضبون من العيش تحت الوصاية السورية، بانتزاع الخلافة في عام 750، بعد سحق الجيش الأموي في الصحراء العراقية. وبعد ذلك بقرون طويلة (12 قرن ونصف) ما تزال العلاقات السورية العراقية متوترة!

إضافة إلى ذلك، توجب على الحملات الصليبية جميعها المرور من الأرض السورية. وفي دمشق عام 1193 مات صلاح الدين الذي اشتهر بمواجهته لملوك الإفرنج. هذه البلاد حيث تحدها تركيا من الشمال والبحر الأبيض المتوسط وسلسلة الجبال اللبنانية من الغرب، ومن الجنوب الصحراء الأردنية، والصحراء العراقية من الشرق، كل ذلك ربما يساعدنا على فهم أهمية هذه المنطقة ويبرز ثقل التاريخ الذي يميزها.

لم يتحمل السوريون حضور الكفار القادمين من أوروبا، كذلك لم يقبلوا العيش أحد عشر قرنًا في ظل استعباد ممالك إسلامية عديدة: العباسيون، القرامطة، الحمدانيون، الفاطميون - لم نذكر إلا الأكثر أهمية – وحكم الأتراك السلاجقة والأتراك العثمانيون.

لم تتبلور فكرة القومية العربية إلا في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الأرض السورية حيث بدأت سورية بالنهوض. وساهم الاحتلال الفرنسي في عام 1920 في تصاعد الشعور الوطني. إلا أنه توجب على السوريين الانتظار حتى 27 أيار 1941 لكي يحصلوا على استقلالهم المحدود بوجود بعض القوات الفرنسية الذي استمر بعد ذلك بضع سنوات.

هذه السنوات العشرين من الاحتلال الفرنسي كانت في غاية الأهمية في تاريخ سورية. في الذاكرة الجمعية للسوريين، ستبقى تلك السنوات للأبد، مرتبطة بقوة، بأكاذيب الفرنسيين والبريطانيين المتتابعة. فبعد وعودهم بالاستقلال للعرب الذين قاتلوا إلى جانبهم لطرد العثمانيين، قام الحلفاء بالحلول محل العثمانيين بكل بساطة. في 3 تشرين الأول 1918 دخل الملك فيصل ابن الشريف حسين إلى دمشق، بدعم من لورنس العرب الغني عن التعريف. في الأشهر التالية، هاجمت الكتائب الفرنسية المحدودة، التي كانت ترافق بشكل رمزي البريطانيين المتوجهين إلى بيروت، وقد بدأت تتعزز لتصبح «القوات الفرنسية في المشرق»، وبعد وضع لبنان بكامله تحت سيطرتها، هاجمت هذه القوات العلويين في جبال النصيرية، والأتراك في كيليكيا.

في آذار 1920 أعلن المؤتمر السوري الوطني المعقود في دمشق استقلال «سوريا الكبرى» تحت تاج الشريف حسين. تضم «سوريا الكبرى» أكبر جزء من سورية الحالية حتى أقصى جنوب تركيا وفلسطين «إسرائيل» ولبنان، ولكن فرحة العرب لم تدم طويلًا؛ فقد أكد مؤتمر سان ريمو في نيسان 1920 اتفاقات سايكس بيكو ومراجعتها وتصحيحها، حيث أعطى هذا الاتفاق فرنسا حق الانتداب على سورية ولبنان، وأعطى بريطانيا ما تبقى من «سوريا الكبرى» إضافة إلى العراق. بعد ثلاثة أشهر أعلنت فرنسا الحرب، وطُرد الأمير فيصل من سورية، وذهب إلى بغداد ونُصّب ملكًا على العراق في 21 آب 1921. وقسمت فرنسا سورية أربع دويلات لدعم

سيطرتها، وهي: دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة جبل الدروز، والدولة العلوية المستقلة. لكن لبنان الكبير غير مرتبط بتلك الدويلات، وقد نال استقلاله منذ 1 أيلول 1920.

أفرزت تلك المكائد التي يجب إضافتها إلى مؤامرات بريطانيا العظمى المحوكة ضد فرنسا والعرب في آن معًا، ولا سيما في فلسطين؛ جوًا بغيضًا في المنطقة، ومن ثم أدت إلى تعزيز موقع القوميين العرب. وبالعودة نصف قرن إلى الوراء، فإن تلك الأسباب المذكورة كلها تمكننا من إدراك الارتباط الوثيق بين بلدان مثل سورية والعراق والأردن ولبنان، فهي تشكل وحدة بشرية وجغرافية وتاريخية، وتمثل المسألة الفلسطينية شوكة مؤلمة لشعوبهم. أليست فلسطين وحدها في الواقع مستبعدة من السيادة العربية من بين البلدان الخاضعة للسيادة العثمانية كلها؟

على الرغم من ذلك، بعد أن تعرضت للهزيمة، اقتطعت فرنسا من دون أي مبرر سنجق إسكندرون، حيث تعيش أغلبية عربية، وأعطي إلى تركيا في عام 1939. وأفاد الوطنيون السوريون من الوضع الجديد الناجم عن الحرب العالمية الثانية التي انتهت إلى كسب قضيتهم؛ ففي نيسان 1946 رحل آخر جندي أجنبي عن الأرض السورية، إلا أن فرنسا التي أغدقت الامتيازات على الأقليات، ودعمت السوريين ليقف بعضهم ضد بعضهم الآخر، أسهمت في إيجاد مناخ من عدم الاستقرار عاشته البلاد خمسة وعشرين عامًا حتى وصول حافظ الأسد إلى السلطة.

سيكون من غير المجدي تعداد القائمة التي لا تنتهي من أولئك الذين تعاقبوا في السلطة في دمشق بعد الاستقلال. بعد 3 سنوات من الحياة البرلمانية العادية تقريبًا، عاشت البلاد في ظل ثلاثة أنظمة عسكرية مختلفة، ثم استعادت في أيلول 1954 النظام البرلماني. ظهر النواب البعثيون الأوائل في أثناء هذه الانتخابات التشريعية بعد عشر سنوات من التأسيس الرسمي لحزبهم، وفي الوقت نفسه، أدرك كثير من المسؤولين السوريين عزلة بلادهم في مواجهة المحور العراقي الأردني، حيث تسيطر الأسرة الهاشمية على السلطة من جهة، وفي مواجهة إسرائيل من جهة ثانية. وتسارعت الظروف لكي تقترب دمشق في النهاية من القاهرةن خصوصًا بعد تأميم قناة السويس

في تموز 1956 حيث لمع نجم جمال عبد الناصر، وأخذ بعدًا استثنائيًا. وفي 22 شباط 1958 ولدت الجمهورية العربية المتحدة.

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلًا؛ فالبيرقراطية المصرية، والخصيصات المختلفة للسوريين عن المصريين، وازدراء عبد الناصر الذي يصعب إخفاؤه لطبقة السياسيين السوريين، إضافة إلى سنوات من الجفاف ذات الوقع السيئ، انتهى كله إلى فسخ الزواج بين سورية ومصر في 28 أيلول 1961، وأنجز الطلاق في ظل لا مبالاة شبه تامة.

قامت بعض الكتائب السورية بعد ثمانية عشر شهرًا بإسقاط الحكومة الضعيفة التي كانت على ترأس السلطة في دمشق، ليحل محلها مجلس قيادة الثورة المؤلف من ناصريين ومستقلين وضباط قوميين وبعثيين، وسيصبح هذا المجلس بسرعة تحت سيطرة العسكريين القوميين والبعثيين الذين كانوا منظمين تنظيمًا جيدًا، إذ نجحوا باستبعاد مناوئيهم واحدًا تلو الآخر. ومنذ ذلك الحين، انحسرت الحياة السياسية، واقتصرت على حزب البعث، ولم تغير الهزيمة المخجلة في عام 1967 من الأمر شيئًا، لا بل سرعت من وصول حافظ الأسد إلى السلطة، وهو من كان منذ السادسة عشرة من عمره عضوًا في الحزب، وشهد في سني مراهقته وفي بداية حياته العسكرية عددًا من الانقلابات السياسية الدموية، لكنه صار وريثًا لواحدة من أقدم الحضارات في العالم، وفي هذا الموقع المتقدم في الدولة، لم يملك إلا الشعور بحمله مهمة خاصة.

يحب حافظ الأسد، شأنه شأن كثيرين من العرب التاريخ وأساطيره، وبعض اللوحات في قاعة الاستقبال بالقصر الرئاسي لا تدع مجالًا للشك في ذوقه. فالرجل يخترقه بالطبع هذا الماضي المجيد الذي يعد مسألة جوهرية مشتركة بين أبناء بلاده جميعهم. وليس من الممكن فهم الرئيس السوري وسياسته من دون العودة بدقة إلى بيئته العلوية التي ترعرع فيها، ومن دون التعرف على المراحل الأساسية التي عرفتها سورية تحت الانتداب الفرنسي، وصولًا إلى سيطرة حافظ الأسد على السلطة. إنه تاريخ حزب البعث الذي ارتبطت به حياة الرئيس السوري بقوة، فهذا الأخير، اعتقد وقتًا طويلًا -ومن الممكن أنه ما زال يعتقد أيضًا- بالمبادئ الأساسية التي ترتكز عليها الأيديولوجية البعثية -وحدة عربية وحرية واشتراكية- ومن المحتمل أن هذا التصور

للسلطة السياسية يمكن أن يكون موضوعًا للتفسيرات كلها، فنجد فيها أولًا ما نريد إيجاده. فإذا كنا لا نرغب أن نضع موضع الشك؛ إخلاص المراهق الذي انتسب في نهاية دراسته الثانوية إلى مجموعة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، فمن الواضح بعد 20 سنة أن البالغ أصبح وزيرًا للدفاع وقائدًا لسلاح الجو، وفهم بدقة الجوانب التي تفيده من البعث. في بداياته في الأربعينيات، هذا الحزب نال بصورة خاصة، رضا الأقليات بسبب علمانيته المعلنة، فكثير من العلويين أصبحوا أعضاء في حزب البعث. وتوجب على الأسد أن يستخدم هذا العنصر بصلف وحذر شديدين، لا لأنه يريد تفضيل الطائفة العلوية -كما يُظن غالبًا- ولكن لأنه يعلم ببساطة أنها تخدمه خدمة تفوق بقية السوريين. في نهاية المطاف من يعرفونه جيدًا وتابعوا سياساته المطبقة، يعرفون أن مصلحة الوطن العربي أو مصلحة سوريةتتقدم دومًا في نظره على مصلحة العلويين.

دفعت الطائفة العلوية -بخلاف ما شاع بهذا الشأن- مثل ما دفعت غيرها من طوائف البلاد، لا بل أكثر من غيرها أحيانًا، فكان ما قدمته لهذا النظام باهظًا، لأن الأسد لا يثق بأصدقائه. لا يشكل العلويون طائفة متماسكة، فهم ينقسمون إلى قبائل وعشائر، لم يخف بعضهم عداءه العميق لسياسة حافظ الأسد، فهم يشكلون نسبة كبيرة في مجموعات اليسار المتطرف السرية.

يقودنا استعمال البعث لأغراض شخصية إلى حديث طويل عن آلية العمل في نظام لا يتمكن من البقاء في السلطة إلا بواسطة القمع والفساد والرشوة؛ القمع والفساد هما الكلمتان الأكثر تداولًا على ألسنة السوريين عندما يتحدثون عن بلدهم.

يجب إضافة كلمة ثالثة إلى هاتين الكلمتين، الاستخفاف أو الوقاحة (le cynisme) فهي الصيغة المنحطة أو النهائية للواقعية. وثمة مثالان من بين مئات الأمثلة؛

في تموز عام 1990، ذهب الرئيس السوري إلى مصر للمرة الأولى منذ حرب 1973. فهل انضم فجأة إلى كامب دافيد؟ بالتأكيد لا. هل نجح الرئيس المصري حسني مبارك في مصالحة الأخوة الأعداء العراقيين والسوريين؟ لا، ليس كذلك. أدرك الأسد -في الواقع- منذ انتهاء الحرب العراقية الإيرانية وانحدار الإمبراطورية السوفياتية

مباشرة، بخلاف صدام حسين؛ أهمية ذلك، واستخلص النتائج التي تفرض نفسها. فهو يخشى قوة بغداد، ومغازلته مصر التي بدأت منذ أشهر، لا تهدف سوى إلى محاولته الخروج من العزلة.

وفي مصادفة غريبة لهذا التوقيت أي بعد بضع أسابيع؛ لم تمكنه حرب الخليج من تعزيز علاقاته مع القاهرة فحسب، وإنما من المصالحة مع بلدان غربية عدة أيضًا.

وفي المدة نفسها تقريبًا، ولدت ثمرة تقارب بدأ بين حركة أمل الشيعية حليفة دمشق، وحركة فتح قبل ثمانية عشر شهرًا، تقارب تمخض عن عقد حركة أمل اتفاقًا مع هذه الحركة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. فماذا حدث؟ هل غفر الأسد لعدوه القديم؟ هل توجه السوريون والفلسطينيون إلى العمل معًا يدًا بيد؟ لا، فذلك ليس ممكنًا. قلق الرئيس السوري حقيقة من هزائم أمل جنوبي لبنان أمام حزب الله القريب من إيران. وبما أن جنوده لا يمكنهم تجاوز «الخط الأحمر» جنوبي صيدا من دون التعرض للعقاب أو الهجوم الإسرائيلي، فهو يشجع فتح، المنظمة الفلسطينية الأكثر وجودًا في جنوب لبنان، للمحافظة على النظام في هذه المنطقة، وتأمين بقاء أمل على قيد الحياة بانتظار تحسن فاعليتها.

ولهذا التقارب حدود، فالمخابرات السورية لا تدخر جهدًا لتسهيل دخول أكبر عدد ممكن من أنصار أبو نضال العدو اللدود لياسر عرفات إلى المخيمات الفلسطينية [1].

وهكذا، يرغب الرئيس السوري دائمًا في وضع سيفين مختلفين في النار في آن معًا؛ بأن يؤدي التنازع الفلسطيني إلى وقوع مئات الضحايا، وأن تدمر القرى اللبنانية، أمران لا يحركان ساكنًا عند الرئيس السوري. كما لم يضطرب للمجازر التي ارتكبها أنصاره في حماة وحلب وتدمر أو في أماكن أخرى، «فالأسد هو الميكافيللي الوحيد في تاريخ

[1] تعد منظمة، فتح-المجلس الثوري، مسؤولة عن مقتل (أبو إياد وأبو الهول) في كانون الثاني 1991. يبقى أن نعرف لصالح من يعمل أبو نضال. للنظام السوري مصلحة مؤكدة في إرباك منظمة التحرير الفلسطينية، مثله مثل إسرائيل، عشية بداية حرب الحلفاء ضد العراق، لكن العراق لا يحب (أبو إياد) الذي أظهر امتعاضه من احتلال الكويت.

سورية»، هذا ما يؤكده أحد المعارضين، ويعترف بأن «معنى الدولة لديه يقترب من الجنون».

يدين أعداء الأسد طقوس عبادة الشخص السائدة في سورية، غير أنه ليس مكترثًا بهذا الجانب، أو إنه يبدو كذلك. وهذه حقيقة، ولكن يجب محاولة تقديم تفسير لهذا السلوك الذي يتعارض مع الإطار العام المعروف عن الشخص: ذوق شخصي بسيط، ودعابة باردة، وبصورة عامة؛ معنى حاد للسخرية، مما مكّنه من تجنب كثير من الهفوات، التي يقع بها الدكتاتوريون غالبًا.

المزحة تقتل في سورية حيث يضع غراهام غرين (Graham Greene) ذلك بين قوسين «المصائب مثل البر والتقوى أصبحت متعودة» اعتدنا بسهولة مفرطة بؤس شعوب الشرق الأوسط، خصوصًا الفلسطينيين واللبنانيين، وننسى غالبًا حجم معاناة السوريين تحت القبضة الحديدية لرئيسهم.

سوف نتأكد طوال هذا البحث حتى نهاية هذا الكتاب من ندرة الأشخاص الذين تحدثنا معهم، ووافقوا على الخروج إلى العلن. هذا الخوف الغامض – المبرر أو غير المبرر – من الوقوع في يوم ما في قبضة الآلة القمعية السورية، يؤشر بوضوح على إخفاق النظام، وله دلالة معبرة أكثر من الخطب والمقالات كلها.

وبصراحة لا يمكن لحكوماتنا ومسؤولينا الدخول في اعتبارات إنسانية، لأن العلاقات الدولية تختزل إلى حدودها الدنيا. إلا أن ذلك لا يمنع النظر إلى الطريقة التي يقود بها حافظ الأسد بلاده، ويمكن أن نرسم في ضوء مساره وشخصه سياساته مجملها. الأسد صلف مع مواطنيه، لا يوجد أي سبب ليظهر ليونة أكثر مع الآخرين. في الواقع، يجب أن نعترف له بهذه العدالة، لقد عامل الفئات اللبنانية أو الفلسطينية بالقدر نفسه من القسوة التي عامل بها الفئات السورية.

وبوضوح، لا يؤمن هذا الرجل إلا بموازين القوى، ولكن بحسب ما يقول توماس فريدمان مراسل نيويورك تايمز خلال 10 سنوات في بيروت والقدس: الأسد بخلاف أرييل شارون، عرف دومًا متى يتوقف [2]. أظهر ذلك في عدد من المناسبات في

[2] Friedman (Thomas), From Beirut to Jerusalem, Douglas (U.K), Fontana-Collins, 1990, p. 144.

مستوى الفعل أو في مستوى المفاوضات. في أثناء ربيع 1974، في مفاوضات فك الارتباط في الجولان، حصل على الحد الأقصى من هنري كيسينجر. في نهاية 1978 في أثناء توقيع اتفاق كامب دايفيد الذي أضعفه بقوة بسبب قطع صلاته بمصر، بعد أسابيع عدة فقط، انسحب من بيروت الشرقية وعرف هزيمة مخجلة، حيث لم تتوقف القوات اللبنانية والميليشيات المسيحية عن مهاجمة قواته. وفي عام 1982 رفض المعركة مع إسرائيل لأنه ليس لديه أملا بقدرة جيشه على الصمود.

ومنذ أن بدأت إسرائيل في المقابل التوغل في الوحل اللبناني، سيعرف الأسد كيف يجد الوسائل لدعم أعداء الدولة اليهودية كلهم في هذا البلد. إذ أرغم في سنة واحدة أمين الجميل الرئيس اللبناني على رفض اتفاق السلام الذي وقعه لبنان بتهور مع الإسرائيليين في 17 أيار 1983. وتمكن الأسد في 22 أيار 1991، بعد 15 سنة من المناورات في النهاية من فرض «معاهدة صداقة» على لبنان.

إذا كان الأسد قادرًا على تصفية أولئك الذين يظن أنهم يشكلون تهديدًا لسلطته –كمال جنبلاط في عام 1977، وصلاح الدين البيطار في عام 1980، وبشير الجميل في عام 1982– فهو أقل وحشية من منافسه العراقي صدام حسين. أعداء الأسد السياسيين معظمهم قابعون في السجون منذ أمد بعيد، إما لأنه يخشى من أن يثير تحريرهم الاضطرابات –هذه حال صلاح جديد من أصول علوية، المسجون منذ ما يزيد على 20 سنة– وإما لأنه يرجح غالبًا أن هذا المعارض أو ذاك يمكنه أن يصبح قوة سياسية يمكن توظيفها لمصلحته، حيث التحق بعض الإخوان المسلمين القدامى بنظامه.

ولعل ما يقلقه اليوم قبل أي شيء إمكان بقائه في السلطة، فحافظ الأسد الذي أظهر دومًا ميلًا قويًا للسياسة الخارجية التي تدغدغ «الأنا» عنده، توجب عليه كذلك أن يظهر اهتمامه بالسياسة الداخلية للدفاع عن نفسه. فالحقيقة أن عدد أصحاب الملايين بالليرة السورية [3] بين 1965 و1980 تضاعف 60 مرة (من 60 إلى 3500) وهذا مؤشر مهم لاتجاهات الأوضاع العامة. لم يتوقف التوتر عن التصاعد في سورية

[3] طوال السبعينيات، كانت الليرة السورية تعادل فرنكًا فرنسيًا تقريبًا. بعد انهيار الليرة اللبنانية عام 1982، بدأت الليرة السورية بالتدهور. ففي عام 1991، يجب دفع من 8 إلى 10 ليرات سورية مقابل فرنك فرنسي واحد في السوق السوداء.

طوال عقد السبعينيات وبداية الثمانينيات، بسبب عدم المساواة الصارخة، والرشوة الجامحة حول الرئيس. وبعد مرحلة من شبه الانفراج، نتيجة لحرب تشرين 1973؛ حصل الجنرال أسد على اعتراف أقرانه في الغرب وفي المعسكر الاشتراكي، كرجل دولة حقيقي، عندما قُرع -بصورة مفاجئة- جرس كامب دافيد.

بعد تدخل الجيش السوري في لبنان، أصبح الرئيس الأسد -فجأة- عقبة أمام مشروع السلام الأميركي المدعوم من قبل إسرائيل ومصر. غزا الإسرائيليون لبنان بعد تحررهم من الضغط العسكري على الحدود الجنوبية في آذار 1978، فور مغادرة السادات القاهرة بعد زيارة القدس، لا بل قبل أن يتم توقيع اتفاقية كامب دافيد أيضًا. كان الذل كبيراً بالنسبة إلى السوريين العاجزين عن صد هجوم الجيش الإسرائيلي، في حين إن الأشقاء العرب معظمهم التزموا الصمت -أولهم السادات– لكن العراق دان تهاون الجنود السوريين. وعاش الأسد المأخوذ بين فكي كماشة بين هذين العدوين اللدودين؛ إسرائيل في الجنوب والعراق في الشرق ساعاتٍ عصيبة.

أخفقت جهوده في التقرب من بغداد، لذلك نفهم سبل تنفسه الصعداء واستعادته قواه عندما احتدمت المواجهة بين صدام حسين والخميني في نهاية 1980. وصل النفور والخوف الذي يثيره الديكتاتور العراقي في الأسد إلى أخذ هذا الأخير بصورة معلنة موقفًا متحزبًا إلى جانب إيران، مما أثار غضب كثير من العرب. في الواقع، حسابات أخرى تبيّنت صحتها على المدى البعيد، ألقت بثقلها في الميزان. فإذا كانت الكراهية التي يحملها لبعض الرجال يمكن أن تدفع به بصورة استثنائية إلى ارتكاب أخطاء؛ يبقى الأسد حيوانًا ذا دم بارد، إذ تخلص وقتًا طويلًا من الخطر العراقي، لكن ظل الرجل السوري الأول مهووسًا بالتوازن الاستراتيجي مع إسرائيل. فعلى الرغم من تشكيل العراق حيزًا خاصًا في اهتماماته؛ ستبقى إسرائيل المنافس الأبدي، فهي لم تتوقف عن كونها دخيلة في عيون الأسد، كما هو الحال بالنسبة إلى العرب معظمهم، وستظل دخيلة يجب طردها في يوم ما بطريقة أو بأخرى. على الرغم من ذلك، بات واضحًا في نهاية الثمانينيات تراجع سورية عن التوازن الاستراتيجي مع تل أبيب، ولم يسهم السوفيات في تسريع التقارب بين دمشق والبلدان الغربية فحسب، ولكن أسهموا أيضًا في الدفع بالقيادة السورية إلى إعادة تعريف مضمون هذا التوازن،

توازن لا ينبغي أن يكون عسكريًا فقط. ستكون هذه المعركة معركة على المدى البعيد، وهو وضع سيقود الرئيس السوري إلى عقد اتفاق بعدم المجابهة، لكنه لن يلغي أبدًا الصيغة العميقة التي لا يمكن التراجع عنها التي يضمرها نحو «الكيان الصهيوني».

لم يعرف الأسد أي شكل من أشكال الاتصال السري أو المعلن مع الإسرائيليين، بخلاف عدد من أقرانه العرب، من مثل حسين الملك الأردني أو الملك الحسن الثاني، لم يعرف الأسد أي شكل من الاتصال المعلن أو السري مع الإسرائيليين، حتى لو كانوا من اليسار المتطرف ذي القبول الإيجابي في العالم العربي.

يجب أن يخفف ذلك كله من تفاؤل الذين يؤمنون بإمكان تحقيق السلام في الشرق الأوسط. في الوقت الذي خلقت فيه حرب الخليج ظروفًا جديدة، أكدت الولايات المتحدة في بداية عام 1991 إرادتها في اقتناص «الفرصة التاريخية» السانحة للتقدم في عملية السلام، في حين يعلن موشيه أرينز وزير الدفاع الإسرائيلي -من دون مواربة- أن الكنيست صوت في عام 1981 على قانون ضم الجولان، وأن إسرائيل «ترغب في احترام هذا القانون بدقة».

إذًا الأسد الذي لم «يهضم» فقده مرتفعات الجولان، لن يساوم أبدًا في هذه المسألة. يعرف أولئك الذين تقربوا منه كلهم، وإن لم يتحدث كثيرًا عن ذلك، كم هي مهمة استعادة هذه الأراضي في نظره. بالتوازي مع ذلك، من الممكن أن حلمه بترك سورية من بعده وقد استعادت ترابها المغتصب كاملًا، جعله يتجنب أي مفاوضات مباشرة مع الدولة اليهودية. إذ يعرف الأسد جيدًا أن استخدام القوة في حياته، لن يقوده إلى هذه النتيجة.

ونرجح بالإصغاء إليه أو سماع المقربين منه، أن القضية الفلسطينية شكلت أولوية الأولويات عنده. في الواقع، ورث الأسد المشكلات، وفي رؤيته، فُقِد الجولان لأن سابقيه تصرفوا كالهواة المغامرين في الدعم الذي أرادوا تقديمه للقضية الفلسطينية. بالطبع، يعرف الرئيس السوري أن منزلة بلده في الشرق الأوسط ومنزلته هو في التاريخ يرتبطان بقوة بنوع التسوية التي ستتحقق. وعلى الرغم من ذلك، تقوده سياساته العملية كلها منذ وصوله إلى السلطة؛ إلى لتحكم عن قرب بالمقاومة الفلسطينية، حيث

حاول في مناسبات عدة، أخذ قيادتها بواسطة رجال مسخّرين يفرضهم، ويمكنهم عند الفشل في ذلك التأثير في خطها.

يفسر سوء تصرف الأسد أو قسوته الفجة، وعدم تفهمه الحركة الفلسطينية؛ إخفاقه في التحكم بها، فهو لم يتمكن من الوصول إلى ذلك أبدًا، ولكنه بلا شك الرجل السياسي العربي الأكثر كراهية من قبل الشعب الفلسطيني. ويبدو اليوم أن الصيغة التي ستأخذها الهوية الفلسطينية المستقبلية أو يمكن أن تأخذها، لا تهمه إلا قليلًا، بما أنها لا تتعارض مع مخططاته وطموحاته.

المحصلة التي يمكن الوصول إليها في نهاية المطاف يمكن أن تحمل على الابتسام، لو لم يترك حافظ الأسد خلفه هذا الكم من الجثث. نجح رجل التوافق بالقوة العارية خلال عشرين سنة بصنع الخواء من حوله. فهو مكروه من شعبه، ومنبوذ من قبل الغالبية العظمى من اللبنانيين، ويحتقره العرب لدعمه دون تأخير لقوات التحالف الغربي ضد العراق، لم يبق سوى قادة وملوك النفط يدعمونه، وكذلك القادة الغربيون لاعتباره أهون الشرور.

وتعود نجاحاته النادرة -الاستقرار الاستثنائي لنظامه، والسلام المسلح في لبنان- إلى الرعب الذي فرضه عسكره وعملاؤه منذ عام 1970. ومن المؤكد أن ذكاءه الحاد وحسه في انتهاز الفرص، ساعداه كثيرًا على البقاء في السلطة، وتحطيم الرقم القياسي في ذلك من بين كثير من الرؤساء الذين عرفتهم سورية منذ العهد الإسلامي. في عام 1990 كانت مدة حكمه أطول من مدة حكم معاوية بن أبي سفيان (661-680 م) وأطول من مدة حكم الخلفاء الأمويين: الخليفة عبد الملك بن مروان (685-705 م) والخليفة هشام بن عبد الملك (724-744م). ويستحق هذا الواقع التسجيل في الجمهورية السورية التي عرفت أكثر من عشرة رؤساء من عام 1946 إلى عام 1970.

تبقى مسألة خلافته؛ هل يفكر في ذلك؟ يؤكد أنه لا يفكر في الأمر، ويوجد دستور لهذا الشأن. إلا أن المشكلة طرحت بحدة في شتاء 1984/1983 بعد أن كانت حياته مهددة لأسباب صحية جدية. تعد مرحلة اختبار حقيقي أظهر مفاجأة في موازين

القوى داخل النظام، وجوانب الضعف لدى الرئيس. استبعد أخاه رفعت من السباق على الخلافة، لطموحه الجامح، ولتصرفاته الرعناء التي لا حدود لها.

اتجه حافظ الأسد نحو ابنه البكر باسل الذي تلقى تربية أمير وولي للعهد. منذ سنوات عدة، تدرب الشاب تدريبًا منهجيًّا على شؤون الدولة، فهل تسمح المدونات لهذا السيناريو غير المنسجم مع البعث، بالنجاح؟ لا شيء مؤكد.

في الأحوال جميعها، يلوح في الأفق الخلاف ضمن العائلة العلوية في غياب أي بديل معقول، لا شيء يطمئن الشعب السوري. يعيش هذا الشعب بعد عقدين من الديكتاتورية خطر التعرض للمعاناة سنوات عدة قبل أن يجد طريقه إلى الازدهار والتنور انسجامًا مع ماضيه الاستثنائي بأمجاده ورقيه وازدهاره.

أولًا: بعض الملامح المهمة

لا يعنى هذا الكتاب -كما رأينا- بتقديم سورية إلى سياح محتملين، ونكتفي جغرافيًّا بالتقاط ما كتبه جان هيرو مؤلف دليل ممتاز للبلاد بطريقة غير بريئة: «المناظر والطبيعة بوجه عام، من دون أن تكون معدومة الخصائص، لا يمكن، عدا بعض الاستثناءات، وصفها بالمهيبة أو العظيمة....» [1].

على الرغم من ذلك، فإنه من الضروري والمفيد تثبيت بعض نقاط الارتكاز، للقيام برحلة داخل النظام السياسي السوري.

ما زالت صورة سورية اليوم حقيقة -وإن فاقت ما هي عليه قبل عشرين عامًا- مؤسفة في العالم الغربي، ولا يمكن لبلد من دون بترول، تبلغ مساحته 185000 كم مربع؛ أن يزعم في نهاية الستينيات تصدير بعض أمراء الصحراء، ممن ينفقون المليارات- سابقًا، وتمتلئ أعمدة صحف الإثارة بأخبارهم.

قبل حرب الأيام الستة المهينة عام 1967، لم يغفل بضع مئات من الأوروبيين ممن يأتون إلى بيروت والقدس -أردنية آنذاك- عن الذهاب إلى تدمر أو إلى قلعة الحصن، ولكن إذا أحسوا بغموض فائدة هذا البلد وأهميته، فهم غير متحمسين للتعرف على ماضيه العظيم، ولن يعملوا على الترويج له، وتبقى سورية كما كانت، غير معروفة، وهي سعيدة بذلك.

لم يتغير هذا الوضع بعد عشرين سنة من ذلك أي في نهاية الثمانينيات أبدًا، إذ زار أقل من 30000 ألماني غربي، وأكثر قليلًا من 25000 فرنسيًّا البلاد في عام 1988. بالمقابل، زارها حوالى 120000 إيراني، على الرغم من أنهم غير محبوبين، بقصد الحج في دمشق وضواحيها [2].

---

[1] Hureau (Jean), La Syrie aujourd`hui, (Paris : Editions Jeune Afrique, 1984), P. 35.

[2] المكتب المركزي السوري للإحصاء، 1989.

الحياة اليومية لسكان المدن

«يتفق القادمون إلى البلاد جميعهم على القول بأن السوريين شعب ذكي بالنسبة إلى الشعوب المجاورة. على الرغم من معاناة قرون طويلة من الخضوع والعبودية، لديهم مبادرة خلاقة، وسهولة كبيرة في الفهم بالوقت نفسه. تتجه قابلياتهم بصورة طبيعية نحو التجارة، وقد استقر سابقًا بعض كبار التجار في مرسيليا أو في ليفربول، أو في مانشستر، ووجدوا في أميركا وفي إسكندنافيا» [3].

كتبت هذه السطور في عام 1884 لإليزيه ركلوس، وهي لم تفقد شيئًا من الحداثة والواقعية. ويجب ألا تنسينا مبالغة الحكام أو جرائمهم، وجرائم النظام الحالي؛ خصيصات الشعب السوري النبيلة: صارم وودود، سرعان ما نلحظ حرارته الإنسانية، حاذق، يعمل بصمت، مصمم وشجاع.

على الرغم من تعلقهم العميق بماضيهم، فالسوريون ليسوا أقل اندماجًا بالحاضر والتطلع نحو المستقبل. فدمشق، حيث تضاعف عدد السكان خمس مرات خلال ثلاثين سنة الأخيرة حتى وصل إلى 3 مليون نسمة، أكثر شبهًا بكبريات مدن أوروبا الجنوبية، منها بعاصمة شرقية خامدة (ناعسة) وقذرة؛ هنا لا يوجد أحياء صفيح، كما هو الحال في القاهرة أو في بيروت، وللفقراء الحق في حصتهم من الإسمنت، ولا يترددون في الاستجرار من شبكة الكهرباء بطريقة غير قانونية، في الحالات جميعها، يتم تحميل الفاتورة لمن هم أفضل حالًا في إطار إعادة توزيع الثروة المنفذ بطريقة رسمية في وزارة الكهرباء.

في الواقع، واحد من كل ثلاثة دمشقيين –ومن الممكن سحب ذلك على المدن السورية الكبرى بمثل حلب وحمص- يستفيد من البنية التحتية للعاصمة، أي من الماء والكهرباء والمدارس والثانويات والجامعات والمستوصفات، والمستشفيات... إلخ. أما الآخرون، فهم -بصورة عامة- من الفلاحين الذين وصلوا حديثًا من أريافهم، ليستقروا حول المراكز الحديثة، في شبكة ملونة أو مختلطة. في الجنوب نجد الحوارنة ليسوا بعيدين عن مخيم اليرموك الفلسطيني الشعبي، وفي الشمال حيث عش الورور

[3] Reclus (Elysee), L`Asie anterieure in Geographie Universelle T.9, (Paris: 1885), P.786.

نجد القادمين من اللاذقية وطرطوس وحمص، وعلويو القوات الخاصة، وحراس طغاة النظام أيضًا. في الشرق يوجد 70000 لاجئ من الجولان، تم زرعهم بقوة في القنيطرة الجديدة (القنيطرة الجديدة أخذت اسم القنيطرة عاصمة الجولان التي مسحها الإسرائيليون من الوجود بعد حزيران 1967). وفي الجنوب الشرقي، ثمة نصف مليون تقريبًا من الدروز والحوارنة والفقراء من أصول مختلفة، تجمعوا في حي الطبالة.

يرى المختصون -بطريقة غير معهودة- أن نصف هذين المليونين من هؤلاء «المهمشين» تقريبًا يملكون مساكنهم، أما النصف الثاني منهم، يستأجرون غرفة تتراوح أجرتها بين 500 و700 ليرة سورية (90-60 فرنك فرنسي) [4]، ويعيش وسطيًّا أربعة أشخاص في الغرفة الواحدة، يتضمن غذاؤهم بصورة أساسية الفول والحمص والبرغل والفاصولياء والعدس والقليل من الطيور، وغالبًا ما يبعث ذلك كله من قبل أقربائهم الباقين في القرية.

تنتشر البطالة انتشارًا كبيرًا، فأولئك الذين يعملون هم إما موظفون صغار أو حرس أملاك الأغنياء وحماتهم أو خدمهم. يتكرر حدوث المشكلات والمواجهات بسبب هذا الاختلاط، فمن غير النادر أن يتوجب على 40 شخصًا أن يتشاركوا مرحاضًا واحدًا أو حمامًا.

هذا هو موطن المعارضة، ولا سيما الإخوان المسلمين الذين يحاولون منذ سنوات عدة، استعادة نشاطهم بسرية تامة. تشكل هذه الضواحي الكئيبة وأحياؤها المكتظة حوض سمك للسلطة أيضًا، تأخذ منها عملاء أجهزة الاستخبارات الذين يأملون بالخروج من هذا البؤس. يمكن بسهولة أن نتخيل أجواء الشبهة وعدم الثقة التي تخيم على هذه المناطق.

ارتفعت خلال خمس وعشرين سنة الأخيرة تكاليف المعيشة كثيرًا حتى بالليرة السورية الثابتة. تقاضى الموظف المتوسط في عام 1965 شهريًا 300 ليرة سورية، يمكنه أن يشتري بها 65 كغ من لحم الخروف. في عام 1990 احتل الموظف نفسه مركزًا مطابقًا، له القدم نفسه، ويتقاضى 2500 ل س (300 FF)، ويمكنه -إذا وجد-

[4] بلغ الحد الأدنى للأجور 640 ليرة سورية في عام 1990، (ما يعادل 80 فرنكًا فرنسيًّا في السوق السوداء، أو 160 فرنكًا بحسب سعر الصرف الرسمي).

أن يشتري بهذا المرتب الشهري 20 كغ من لحم الخروف. في بداية الستينيات كان سعر كيلو الخبز 35 قرشًا، وفي بداية التسعينيات يجب أن ندفع 12 مرة أكثر، إذ بلغ السعر 4 ليرات سورية. انخفضت القدرة الشرائية هنا أيضًا، من دون حساب الوقت الضائع – من نصف ساعة إلى ساعة – وقوفًا في الصفوف. كان «الطقم الرجالي» من نوعية جيدة يساوي 300 ليرة سورية منذ 15 سنة، وفي عام 1990 صار يساوي 1500 ل س.

نظريًا، يتمتع العمال والموظفون بالضمان الاجتماعي، إلا أنه يتوجب عليهم الانتظار طويلًا للحصول على موعد، وغالبًا ما تكون «المعاينة» اعتباطية، مما يدفع بكثيرين إلى اللجوء للقطاع الخاص، حيث ارتفعت «المعاينة» عند طبيب جيد من 10 إلى 200 ليرة سورية خلال عشر سنوات أخيرة. هذا الإيقاع يجعل كثيرين في خشية من عدم وجود فحص طبي بعد سنوات قليلة. وفي الواقع، بلغت أزمة السكن حدًا بات فيه فتح عيادة طبيب باهظًا جدًا، فالشاب المتخصص يحتاج في فتح العيادة إلى مبلغ 2 مليون ليرة سورية، مما يفسر وجود أطباء سوريين خارج سورية (بضعة آلاف في ألمانيا الغربية، وبضع مئات في فرنسا بصورة خاصة) أكثر من الموجودين في بلدهم في الداخل: بلغ عدد الأطباء داخل سورية 8146 طبيبًا عام 1986، و10000 آلاف طبيب تقريبًا في نهاية 1989 [5].

يصعب تحمل هذه الأوضاع من قبل الناس العاديين، وهي تقريبًا لا تحتمل من قبل النخبة المثقفة. ومثال ذلك حال نزار -29 عامًا- أنجز دكتوراه الدولة في فرنسا. يتقاضى 1555 ليرة سورية في الشهر، في حين تكون أجرة غرفة بسيطة في دمشق بين 1000 و1200 ليرة سورية.

مثال آخر يتعلق بسمير الذي عاد إلى البلاد في بداية الثمانينيات بعد 10 سنوات من الدراسة في فرنسا حاملاً شهادة دكتوراه الدولة في الهندسة المدنية. قرر العمل من أجل الوطن من دون قبول نظام الرشوة. والنتيجة أنه بعد 5 سنوات من ذلك، ما يزال في الخواء، يعيش مع أهله لأنه لا يستطيع أن يستأجر غرفة، ولم يفكر بالزواج. أتاه ضابط كبير في كلية العلوم حيث يدرّس، وطلب منه منح ابنه درجة النجاح في

[5] المكتب المركزي السوري للإحصاء (توقعات لعام 1990.)

الامتحان، وأكد أنه سيدفع كل ما ينبغي. ورفض سمير في بداية الأمر، إلا أنه اقترح أمام إلحاح العسكري أن يعطي الابن دروسًا مجانية. وبعد أسابيع قليلة، عرف العسكري أن سمير وأسرته لا يملكون هاتفًا في البيت، علمًا بأنهم تقدموا بطلبه منذ زمن طويل. أبلغ العسكري ابنه بأن الهاتف سيكون في بيت سمير خلال 48 ساعة. حينئذ، شعر سمير بأنه (وقع في الشبكة)، وهذا ما حمله على الكتابة إلى أصدقائه في فرنسا بأنه يفكر في اللحاق بهم [6].

اخترع السوريون لهذا الأنموذج من السلوك مصطلح «أخوث» أو مجنون. وهو ما يطلق عليه الكوميدي السوري دريد لحام اسم «أجدب» للتعبير عن المعنى نفسه، وبتعبير آخر، يؤخذ الرجل الشريف اليوم بوصف الغبي الأبله أو «الأجدب».

نزار وسمير –وآلاف غيرهما- لديهم في الواقع ثلاثة خيارات: أ. ممارسة عمل ثان؛ ب. الهجرة؛ ج. السرقة. ومحصلة هذا الوضع مغادرة مليونين من السوريين بلادهم في عشر سنوات الأخيرة، وظن الرئيس الأسد نفسه أن بإمكانه الإعلان في عام 1989 عن وجود «ثلاثة ملايين سوري زائدين عن المعدل السابق» في سبيل إظهار قدرة النظام على تحمل مسؤولياته [7].

وليس (النقل العام) أوفر حظًا، فلم تكن إلا 150حافلة قادرة على العمل مطلع عام 1990، من بين 1000 حافلة تملكها العاصمة في بداية سنوات الثمانينيات، وذلك لعدم توفر القطع الأجنبي اللازم لشراء قطع الغيار. خلال هذه المرحلة، ارتفعت مدة انتظار الركاب بالمتوسط من خمس دقائق إلى خمس وأربعين دقيقة مع ملاحظة عشرات الآلاف من المشاة في المدينة.

لا يمكن للعامة الحصول على السيارة الخاصة، فسيارة (مازدا 929)، سيارة يابانية صغيرة مشهورة هنا، تساوي في نهاية سنوات الثمانينيات مئة ألف ليرة سورية، أي ما يعادل 15 سنة من مرتب الحد الأدنى للأجور (640 ليرة سورية في بداية 1990).

---

[6] يدرّس سمير اليوم الفيزياء في ضواحي باريس. مقابلة شخصية مع المؤلف.

[7] خطاب أمام مجلس الشعب، مارس آذار 1989.

وللمقارنة فإن سيارة صغيرة في أوروبا الغربية تساوي سنة واحدة من مرتب الحد الأدنى للأجور.

ومن الغريب، أنه رغم صعوبات الحياة اليومية كلها، وهذا الظلم الصارخ، تبقى السرقات الخاصة والجنح ظواهر هامشية جدًا ومحدودة، ولا يوجد سوى القليل من (الزعران). في 1988، تعرضت حوالى 30 صيدلية للسرقة في الوقت نفسه في دمشق، مما أثار امتعاضًا واسعًا. اعتقد كثيرون في الحال بأن المخدرات تفسر ذلك، ولكن يبدو أن الفاعلين مهتمون أكثر بما يوجد في درج النقود. ويظهر الإحصاء الرسمي في ما يخص الجرائم العامة أرقامًا أكثر من عقلانية: 574 حادثة قتل ومحاولة قتل في عام 1985 (آخر رقم معروف) مقابل 553 في عام 1981، 2226 حادث سرقة (مقابل 1809) و76 مزورًا معتقلًا (مقابل 35). لا تأخذ هذه الأرقام -بوضوح- في الحسبان ما تكشفه المدونات السورية من الجرائم السياسية التي لا يوجد أي توضيح رسمي حولها.

ولا تتردد الصحافة السورية أمام جرائم الحق العام أحيانًا في عرض بعض الحوادث، استنادًا إلى السياسة الإعلامية التي لا تخضع لأي معيار عقلاني. ففي الثامن من شباط 1988 نشرت صحيفة الثورة اليومية الرسمية خبراً عن هجوم مسلح قامت به شابتان على محل بيع مجوهرات في قلب دمشق، «هددت الشابتان، إحداهما تحمل مسدسًا، البائع الذي طلب النجدة مما أدى إلى هربهما. في الشارع فتحتا النار على سائق سيارة الأجرة الذي رفض التوقف، ثم أخذتا سائقًا آخر حيث أطلقتا النار على شاب -جرح بكتفه- لمحاولته اللحاق بهما. تمكنت الساطيتان من الهرب حتى اللحظة».

نحن لسنا في شيكاغو بالتأكيد، بل على ضفاف بردى، ولكن هذه الواقعة، واقعة استثنائية في المجتمع السوري وفي المجتمعات العربية معظمها، وربما تنبئ بما سيكون عليه الحال بعد بضع سنوات في المدن العربية، حيث تطور كثير منها بطريقة عشوائية تمامًا.

أهمية القطاع الريفي

إذا لم يكن لدى سكان المدن أي سبب من أسباب السعادة في حياتهم، وليس ثمة ما يحسد عليه الفلاحون الذين يمثلون 50% من مجموع السكان. على الرغم من أن حافظ الأسد أعطاهم اهتمامًا خاصًا لوقت طويل، وربما يعود ذلك إلى تذكره أنه نفسه ابن أسرة ريفية.

«لقد وضعت ثورة آذار المسألة الزراعية في مقدمة اهتماماتها. تهدف الثورة الزراعية إلى تمكين بلدنا من الاكتفاء الذاتي. [....] أرادت الثورة تحرير المزارعين من مئات السنين من الاستغلال، بإعطائهم مسؤولية إدارة مصالحهم. [....] كان الفلاحون في الوطن العربي دائمًا الصخرة التي يتحطم عليها كل عدوان» [8].

ولكن هذه العبارات الوردية للرئيس السوري تجد تفسيرها في الأهمية العددية للفلاحين السوريين الذين يمثلون نصف السكان تقريبًا حتى السنوات الأخيرة، فمن البدهي صعوبة إهمال هذا الجسم الاجتماعي.

ولكن، إضافة إلى الوزن الذي يمثله الفلاحون في المجتمع السوري، فإن اهتمام الأسد بهم يبين بوجه خاص أنه بعثي ملتزم. فالحزب في الواقع منذ بداياته تقليدي استند إلى الريف. وبفضل فعل عدد من المناضلين وعدد من الكوادر المميزين، نجح في التجذر بقوة في الريف، مما سمح بتيسير الصعود الاجتماعي لعدد كبير من شباب الريف [9].

---

[8] الأسد (حافظ)، هكذا قال الأسد: مقاطع من خطب ومقابلات مع الأسد منتقاة بعناية من قبل رفيقه القديم مصطفى طلاس وزير الدفاع منذ عام 1970 وناشر في أوقات الفراغ. نموذج للغة الخشبية ولكن لا يمكن تجنبها لمن يرغب الدخول إلى صميم العالم الأسدي

[9] نلاحظ عبر هذا الطريق أن هؤلاء المناضلين الصادقين المخلصين كلهم غابوا عن الساحة السياسية. عندما لم يغيبهم الموت مثل وهيب الغانم (الذي أدخل الأسد إلى حزب البعث)، ستجدهم في المنافي (أكرم حوراني، بالقرب من باريس)، أو في السجون (عشاوي) أو سبق وأن أمضوا سنوات طويلة في السجون (يوسف عودات). هذا يمكن إن يفسر لماذا منذ سنوات بدأ الفلاحون بالتراجع عن دعم النظام بعد أن كانوا في طليعة الداعمين له. إن الأسد ورئيس وزرائه محمود الزعبي، مهندس زراعي وسني من أصول ريفية، أرادا مضاعفة الجهود لمصلحة الريف والزراعة.

منذ وصوله إلى السلطة، استفاد الأسد من مسألتين:

- من الإصلاح الزراعي -الذي كان على وشك الإنجاز- واستفاد أيضًا من أخطاء سابقيه.

منذ 1971، إذا استثنينا حال السد الكبير الذي أقيم على الفرات، في الواقع تم الانتهاء من إنجاز الاصلاح الزراعي في سورية. انطلق في بداية الخمسينيات، تتابع في زمن الجمهورية العربية المتحدة، ثم انقطع بعد الانفصال، وأخيرًا استؤنف من قبل البعثيين، من 1963 حتى 1970 أدى الإصلاح الزراعي إلى تحجيم كبار المالكين، وأفاد بصورة أساسية الفلاحين متوسطي الحال، كما أفاد قليلًا صغار المزارعين، وأولئك الذين لا يملكون شيئًا.

في عام 1960 كان واحد بالمئة من السكان يملك 50 بالمئة من الأرض القابلة للزراعة. في الوقت الذي يوجد 70 بالمئة من المزارعين الذين ليست لديهم أي ملكية [10]. في نهاية الثمانينيات، ثلث الفلاحين تقريبًا لا يملكون شيئًا، في الوقت الذي يمتلك 14 في المئة من السكان 60 بالمئة من الأرض. أشار جون ديفلاين الخبير الأميركي بحق إلى أن إثراء هذه الطبقة الوسطى -14 بالمئة- ارتبط بصعود عدد كبير من الذين ينتمون إلى هذه الطبقة على المسرح السياسي [11] .

على الرغم من أن ثلثي الأراضي المزروعة مخصص حاليًا لزراعة القمح والشعير، فإن سورية التي تشهد نسبة نمو ديموغرافي عالية جدًا، تجد صعوبة أكثر فأكثر في تثبيت مستوى إنتاجها، ويتوجب عليها في كل سنة –إلا في حالات المواسم الاستثنائية– استيراد كميات كبيرة من الخارج خصوصًا من الاتحاد الأوروبي.

---

[10] Devlin (John), Domistic factor of positive support for the Assad regime, Swathmore Pennsylvania, Communication présentée en 1985 a Boston lors d`un colloque tenu a l`initiative de la MESA (Middle East Studies Association), pp,9 et sqq.

[11] Ibidem.

تجدر الإشارة إلى واقع ذي مغزى، في الوقت الذي يتضاعف فيه عدد السكان بين عام 1963 وعام 1978، تتقلص مساحة الأراضي المزروعة من 3.8 إلى 3.2 مليون هيكتار. فزيادة الإنتاج لم تكن في أولويات النظام، حيث تحولت سورية في تلك المرحلة نفسها من مصدر صادرات مهمة إلى مستوردة للمواد الغذائية الأساسية.

لم ينتظر أكثر الفلاحين فقرًا طويلًا قبل استخلاص الدروس من «الثورة الزراعية». بدأت الهجرة منذ بداية السبعينيات على نطاق واسع نحو المدن، في حين ذهب عشرات ألوف آخرون بحثًا عن عمل في شبه الجزيرة العربية زمن الطفرة النفطية.

أكثر العلويين فقرًا، هم طائفة مؤلفة من مليون ونصف مليون شخص، خرج منها الرئيس الأسد، هؤلاء اتجهوا بدورهم إلى الجيش، فأدى ذلك -ويا للمفارقة- إلى تدعيم الآلة القمعية.

كانت خزائن الدولة منذ سنوات عدة عمليًا خاوية، وأصبحت البلاد غير قادرة على شراء الأسمدة التي تحتاجها أو قطع الغيار الضرورية لصيانة الآلات الزراعية. وليس من النادر في هذا الوقت أن يقوم المزارعون السوريون المقيمون قرب الحدود الأردنية بطلب مساعدة أبناء عمومتهم من المواطنين الهاشميين، لإدخال آلات زراعية سرًّا، بمثل الحصدات والدرّاسات والجرّارات في أثناء موسم الحصاد. كما أفاد الأسد من بعض الجوانب الإيجابية لحرب الخليج التي ستؤدي أيضًا إلى بعض التحسن في سورية.

استفاد حافظ الأسد أيضًا من الأخطاء النفسية التي ارتكبها فريق السلطة السابق، فريق صلاح جديد؛ تأثر فريق جديد بجوزيف ستالين وأحبه كثيرًا[12]، وأكد هذا الفريق الأنظمة الزراعية الجماعية، إذ يمتلك من خلالها الفلاحون حصة في التعاونية، ولكن لم تكن على قدر الآمال بامتلاك قطعة من الأرض حقًّا. ولعل إحدى النتائج المباشرة لهذه السياسة هي انخفاض الإنتاج الزراعي، فهذه النظرة السلطوية، وتلك القطيعة المفاجئة مع التقاليد الفلاحية في سورية جاءتا بنتائج كارثية.

[12] أعضاؤها يحبون القول: «نحن السوفخوزيون».

وتبدو الفرصة ذهبية بالنسبة إلى الأسد، لتطبيق فكرته بقطاع عام ينسجم مع القطاع الخاص، ويتكامل معه. سيستفيد كبار المالكين في القطاع الخاص المستقل من الشروط نفسها التي يفيد منها أعضاء التعاونية من دون تحمل التزاماتهم. «هذا ما يمكن أن يعد عامل إضعاف المحبة نحو التعاونيات» بحسب ما دونته عام 1980 فرانسواز مترال [13].

وعلى الرغم أن التعاونيات لا تضم سوى ربع الفلاحين السوريين، بمعدل 300000 من 1200000 فلاح، فهي تمكنت بكوادرها من ممارسة السيطرة الفعالة والمستمرة على الريفيين، ويكون الموظفون الحكوميون، ومدير التعاونية وأعضاؤها غالبًا أعضاء في الحزب الحاكم. أما الفلاحون الآخرون فهم يخضعون لمراقبة دقيقة.

لم يجدد حافظ الأسد شيئًا في هذا المجال، بل اقتصر دوره على إتمام نظام وضع منذ عام 1964 من قبل البعث. أعطى هذا الأخير الشرعية لمنظمة نقابية قوية، هي الاتحاد العام للفلاحين (UNP)، مخلصًا لاهتماماته بمراقبة الناس جميعهم، وكان على الحزب أن ينتظر 5 سنوات قبل أن يضع حدًا لآخر العناصر المتطرفة، ولبعض الديمقراطيين الحقيقيين الذين رفضوا أن يقتصر دورهم على أن يكونوا الناطقين باسم السلطة. ومنذ عام 1970 حتى اليوم يحضر ممثلو اتحاد الفلاحين في الأمكنة كلها من أجهزة الدولة، ويخدمونها بخضوع وانقياد.

يدفع الفلاح السوري سعرًا مرتفعًا للميزات التي أرادت الدولة منحها له، وهي التي تحدد أيضًا مستوى الإنتاج وأسعار البيع. وليس لديه أي مرجعية ضد رجال الحزب الموجودين في المراكز الاستراتيجية الحساسة، ويستمدون جميعهم السلطة من دورهم وسطاء «بين المجتمع القروي والمجتمع الواسع» [14].

---

[13] Metral (Francoise), La Syrie aujourd`hui, ouvrage collectif publiee par le CNRS en 1980, p. 304.

[14] Ibidem.

إن وجود عدد من الموظفين المخلصين، وفي طليعتهم المهندسون الزراعيون والفنيون الزراعيون لا يغير شيئًا في جوهر المسألة، لأنه محال ضمن هذه الظروف تجنب إقامة العلاقات السريعة التي يقال عنها «علاقات زبائن». ومع استفحال الأزمة الاقتصادية في نهاية السبعينيات، نمت بسرعة الرشوة التي كانت محدودة سابقًا، هذه الآفة وكل ما ينتج عنها من تبذير، وسوء في إدارة الموارد وهدرها، أخذت بعدًا خطرًا، فأصبح هدف الاكتفاء الذاتي بعيدًا أكثر فأكثر. «سُحق الفلاحون من شدة البؤس في زمن الإقطاعيين الكبار في الماضي، ومع ذلك فقد كان الشعب يجد ما يأكله، أما اليوم يغتني الفلاحون في حين إن الشعب جائع» هذا ما يقوله بعصبية أحد أحفاد العائلات الكبيرة التي دمرت بسبب الإصلاح الزراعي، وقد وجد كثير منهم الملجأ في فرنسا.

غموض السياسة الزراعية في سورية

مشكلة المياه في سورية، مشكلة أساسية، ولا سيما المشروع الهيدروليكي الكبير الذي يزودنا بمثال رائع على غموض السياسة الزراعية للنظام. يدور ذلك كله في الواقع حول الفرات، وبناء سد الطبقة التي تبعد أقل من 200كم شرقي حلب. أنجز هذا المشروع العملاق في عام 1976، بمساعدة مالية وتقنية من الاتحاد السوفياتي، وهو يهدف إلى تحقيق ثلاثة أهداف: تنظيم مجرى النهر، وإنتاج الكهرباء على نطاق واسع، وري ما يقارب من 650000 هكتار. يرتبط نصف البلاد و40 في المئة من سكانها بهذا المشروع، وهو ما يزال مجهولًا في الغرب على الرغم من أنه يمكن مقارنته بسد أسوان بالنسبة إلى مصر.

ينتظر من هذا المشروع أن يثير كثيرًا من ردود الفعل العاطفية القوية في سورية، ويلخصه جان هانوير بـ «موقفين متطرفين»: «بالنسبة إلى المسؤولين في السلطة هو مشروع مجتمع، مشروع اشتراكية قيد التطبيق، ومشروع استقلال غذائي ووطني. وتشكل هذه العناصر أهداف الأشغال القائمة في المشروع. في المقابل، توجد بعض المواقف المتطرفة، ولكن يبدو أنها مقبولة على نطاق واسع في المجتمع، وحتى في

الإدارة، تريد اختزال هذا المشروع إلى تأثير دعائي، والهروب إلى الأمام أو النهب المنظم لموارد البلاد من قبل الدولة» [15].

مهما كان الأمر، فإن بناء السد أدى إلى حدوث انقلاب (تحوّل) كامل في سورية، فمنطقة الفرات التي بقيت مهمشة زمنًا طويلًا في حياة سورية، وشكلت معبرًا بين حلب والمتوسط من جهة، وبلاد الرافدين والعراق من جهة أخرى، تتجه الآن إلى تشكيل محور جديد غرب-شرق، وسينافس أكثر فأكثر محور شمال–جنوب، حلب-دمشق، حيث صنعت التجارة التقليدية والمنتجات الحرفية شهرة هذين المركزين، ويتشكل الآن رويدًا رويدًا مركز ثالث للزراعة والطاقة، حيث يتوقف على ذلك مستقبل البلاد إلى حد بعيد. ونجد هنا -بصورة ما- تجسيدًا للأيديولوجيا المناهضة للمدينة لدى كثير من البعثيين.

إلا أن تطور هذا المشروع تعرض بقوة للتباطؤ وللعرقلة من قبل أمراض النظام كلها، أمراض تزامنت مع تخطيط غير كاف لتحيل العملية برمتها إلى الفشل. وفي ضوء التعبير عن علاقات الزبائن البدائية والمصالح القبلية، سرعان ما تجاوزت النقابات الفلاحية وحزب البعث -بحسب ما يشير هانوير- نجحت كثرى القبائل سطوة، القادرة على فرض الحماية المحلية حيث لا تتمكن الدولة من ذلك؛ في انتزاع ما تريد[16]. وسهلت النخبة السورية غير القادرة على الترويج لأفكار الحزب، والساخرة منها علنًا؛ خلق شبكة من الزبائن والعملاء، وكل ما يفترضه ذلك من رشوة وانتهازية. انتصرت العشائر القوية التي تسلمت مراكز حساسة في الدولة، ووظفت ما تم تحقيقه في مصلحتها. أما صغار الفلاحين الذين وُعِدوا بمستقبل مزدهر سابقًا، فقد باتوا يشكلون اليوم مصدرًا للتجند في الجيش. ويبدو ذلك قمة التناقض، فالمشروع العملاق الذي هدف إلى تثبيت الفلاحين في أرضهم، وضعهم بخلاف ذلك أمام فرصة التنازل مرة واحدة عن العمل الشاق في الريف، وإلى الأبد.

---

[15] Hannoyer. Jaen, les grands projets hydrauliques en Syrie ou la tentation orientale, (Paris: été, in Maghreb-Machreq, 1985), p. 24.

[16] Ibidem.

ارتفعت خلال عشر سنوات -من عام 1972 إلى 1982- كلفة استصلاح الهكتار الواحد من الأرض من 12000 ليرة سورية إلى 100000 ليرة سورية، وتدور السلطات السورية في مواجهة هذا العبء المالي والتبذير في حلقة مفرغة، وفي الوقت الذي يستخدم الموظفون علاقاتهم الشخصية لتجنب المساءلة؛ يندب الإعلام الرسمي المليارات الضائعة. في بداية عام 1990 لم تكن الكهرباء متوفرة للغالبية العظمى من سكان الطبقة البالغين 120000 نسمة، وهي الواقعة قرب السد الذي يحمل اسمها والمعروفة اليوم باسم الثورة. استصلح 90000 هكتار حتى عام 1990 فقط، من مجموع 640000 هكتار كان يجب استصلاحها حتى عام 2000، ومع إنجاز حالي لا يتجاوز 5000 هكتار في السنة، سنكون بعيدين عن الحسابات التي كانت متوقعة. وإذا أضفنا إلى ذلك، مشكلة ارتفاع نسبة ملوحة الأرض والمشكلات التي يطرحها سد أتاتورك في الجنوب الشرقي من تركيا [17]؛ يمكن أن تواجه سورية معوقات كثيرة.

تجدر الإشارة إلى تأكيد وزير الكهرباء السوري كامل البابا في شهر آذار 1988، مستندًا إلى تقديرات الاحتياطي من الغاز الطبيعي المقدرة بـ 400 مليار متر مكعب؛ أن البلاد ستنتج في بضع سنوات ثلاثة أرباع حاجتها من الكهرباء من محطات تعمل بالغاز، في حين إن 54 بالمئة من الطاقة الكهربائية في عام 1988 إنتاج (هيدروليكي)، ويأتي نصفها تقريبًا من سد الثورة. يجب ألا يساورنا الشك في أن سورية عند انتهاء بناء سد تشرين في أسفل سد الثورة، وسد البعث في أعلاه، يجب أن تصبح مصدرة مهمة للكهرباء، وستكون قادرة على ري مساحات واسعة جدًا، باستثناء فصول الشتاء الدافئة في تركيا حيث منبع نهر الفرات.

[17] مصطفى كمال أتاتورك هو مؤسس تركيا الحديثة، أثار بناء سد أتاتورك ردود فعل عنيفة، وأزمة قوية في بداية عام 1990، عندما قامت السلطات التركية باحتجاز مياه الفرات أسابيع عدة، مما أثار قلقًا عميقًا لدى السوريين والعراقيين.

تغرق الدولة غارقة حاليًّا في إدارة كارثية ومشلولة نتيجة فساد موظفيها، ولم تحظ إلا بجانب واحد، وهو تجنب النجاح في ظهور طبقة كان بإمكانها تهديد احتكار الدولة سياسة التنمية. هل ينتج هذا أيضًا بطريق المصادفة إذا صدقنا جان هانوير: «المشروع الهيدروليكي يبدو وسيلة في قبضة الدولة، لإبقاء سيطرتها على سياسة التنمية مع زيادة الانتاج. إلا أن ذلك أظهر ضعفها في الميدانين كليهما» [18].

منجزات لا يمكن تجاهلها

«معركتنا في الجمهورية العربية السورية من أجل تحرير الأرض تترافق مع جهودنا في تطوير النمو الاقتصادي. يزيد التقدم في القطاع الصناعي والزراعي قدراتنا على مواجهة التحديات، ودفع العدوان، وتحرير أرضنا، واستعادة حقوقنا. نجحنا بفضل شعبنا وجهوده والتخطيط الجيد بظروف صعبة جدًا في متابعة التنمية الاقتصادية وتحقيق المنجزات الكبرى في هذا المضمار. كان التغيرات داخل البلاد كبيرة، والمنجزات الضخمة تشمل مناحي الحياة جميعها: الصناعة والزراعة والتجارة والتعليم والدفاع» [19].

هذا جزء من الخطبة التي ألقاها حافظ الأسد في عقب آخر انتخابات «مظفرة» على رأس الدولة في 10 شباط 1985، تبين هذه السطور -وهذا أقل ما يمكن قوله- تفاؤلًا مفرطًا. تغير الوضع الاقتصادي السوري -كما لاحظنا- بالنسبة للزراعة، تغيرًا جوهريًا، لكن ليس تغيرًا نحو الأفضل دائمًا، وتوسعت المدن الكبرى، ونمت الفنادق ذات المستوى الدولي مثل نمو الفطر، واستطاع السجناء السياسيون منذ السبعينيات أن يلتقوا بعد 10سنوات أو 15 سنة أمضوها خلف القضبان. فقدت حلب ودمشق بالتأكي كثيرًا من سحرهما المميز، قبل الدخول، بأي ثمن، في التحديث الغربي.

---

[18] Hannoyer, op. cit, p. 41.

[19] حافظ الأسد، مرجع سابق، ص 365.

ولعل النجاح غير القابل للجدل من بين منجزات النظام كلها؛ كان في شبكة الطرق، حيث زاد امتدادها أربعة أضعاف خلال حكم الأسد، ووصلت إلى 22 ألف كيلومتر في عام 1990.

وتجدر الإشارة في مضمار البنى التحتية إلى الربط الكهربائي الذي طال القرى التي يزيد عدد سكانها عن مئة نسمة معظمها، في الوقت الذي لم تكن الكهرباء معروفة في الريف قبل الستينيات. وإن قدم خالد العظم «المليادير الأحمر» هذا الدافع في وقت سابق مطلع الستينيات. بعد ذلك، كان الإعلام الرسمي في ثماني سنوات من سلطة الأسد أي في عام 1978، يردد إلى درجة الإشباع أن الكهرباء تمتد بمعدل قرية في اليوم. ولكن بعد أقل من 10 سنوات من ذلك التاريخ وحتى 1990 تمت العودة إلى تقنين التيار الكهربائي، لعدم توفر المال اللازم للتزود بالوقود، إلا أن المكتشفات الحديثة للذهب الأسود في الصحراء السورية –خصوصًا من قبل الشركات الفرنسية– مكنت من تحسين الأوضاع والعودة إلى ما كانت عليه سابقًا.

ثمة تقدم لافت للانتباه، ولا يمكن تجاهله على الأقل إحصائيًّا، وهو يتعلق بالتعليم المدرسي؛ خلال 20 سنة بين عامي 1963 و1983 ارتفع عدد الأطفال الملتحقين بالمدارس من 750,000 إلى 2,700,000، في حين تضاعف عدد السكان من 5 إلى 10 مليون نسمة. وتم تخطي رقم 3 ملايين تلميذ في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية في سنة 1989/1988[20]، كان التقدم الكبير بصورة خاصة في المرحلة الثانوية، حيث تضاعف عدد المدارس الثانوية 6 مرات، في حين تضاعف عدد التلاميذ 10 مرات، ليصل إلى 250,000 تلميذ. أفادت الإناث من جهود الدولة حيث يمثلن أكثر من 40 بالمئة من العدد الإجمالي في المرحلة الثانوية مقابل 20 بالمئة في بداية الستينيات.

زاد عدد الطلاب عن الضعف منذ 1970 إذ ارتفع من 60,000 طالب إلى 136,000 طالب في عام 1989 في جامعات البلاد الأربع. وحظيت جامعة اللاذقية التي تضم 15,000 طالب في قلب البلاد العلوية باهتمام خاص. وبصورة عامة، على

[20] تصريح وزير التربية السوري، نشر في الصحافة السورية في 3 تشرين الأول 1988.

الرغم من استشراء الفساد في الوسط الجامعي، وفقدان الجامعات مصداقيتها وانتشار العيون المخابراتية فيها؛ يبقى مستوى التعليم الجامعي مقبولًا حتى نهاية الثمانينيات.

إلا أن الإخفاقات لم تكن أقل أهمية، فالهاتف مثلًا بقيت خدماته نادرة في عام 1990 500,000 خط مقابل 400,000 عام 1980 نصفها في دمشق، هل هو الإهمال أم عدم الثقة في المواطن؟

إلا أن البلاد لم تنهض من الأزمة الاقتصادية التي عرفتها في مطلع الثمانينيات، حيث تعود بوادر ذلك إلى منتصف العقد السابق مع دخول القوات السورية إلى لبنان، والتوقيع على اتفاقات كامب دافيد. بعد أن عرفت البلاد بين عامي 1970 و1980 نموًا اقتصاديًا، استنادًا إلى البنك الدولي، بنسبة 10 بالمئة سنويًا، مما أدى إلى رفع الناتج القومي من 400 إلى 1500 دولار للفرد[21]. عرفت سورية ركودًا اقتصاديًا ثم انخفاضًا في العملة الثابتة، في الوقت الذي انخفض فيه الناتج الإجمالي للفرد في عام 1990 إلى 1200 دولار[22].

في الواقع استفادت سورية في السبعينيات من ارتفاع أسعار النفط، ففي الوقت الذي حققت مكتشفات مهمة مكنتها من رفع إنتاجها عشرة أضعاف مرتفعة من 1 إلى 10 مليون طن بين 1968 و1980. أصاب انخفاض الأسعار في السوق العالمية سورية في الصميم، فالنفط السوري الخام هو من النوع الثقيل جدًا، ولا يمكن تصديره إلا بعد مزجه بنفط أخف، ويتوجب دفع ثمنه بالعملات الصعبة. ومثلت الصادرات النفطية في 1987 بذلك أقل من 350 مليون دولار، وشكلت عائدات أقل بكثير مما كانت عليه عام 1977: 1 مليار دولار. غيرت المكتشفات الحديثة في منطقة دير الزور من النفط عالي الجودة جذريًا معطيات المسألة، واستنادًا إلى وزير النفط السوري مطانيوس حبيب، دخل إلى خزينة الدولة مبلغ 840 مليون دولار بفضل هذه المكتشفات غير المتوقعة.

على الرغم من تواضع هذه «الطفرة» النفطية، إلا أنها مكنت البلاد في عام 1989 من تسجيل زيادة في الميزان التجاري للمرة الأولى منذ 15 سنة، زيادة قدرها أكثر من

---

[21] المكتب المركزي السوري للإحصاء: 1971 و1983.

[22] Annuaire économique et géopolitique mondial, p.404.

10 مليارات ليرة سورية، أي 900 مليون دولار بحسب النسبة الرسمية. يمكن تفسير هذه الزيادة في الواقع بالإجراءات المتخذة من قبل حكومة محمود الزعبي، بتخفيض الواردات –العملات الصعبة في أي حال نادرة الوجود-، واتخذت الحكومة إجراءات عدة لتشجيع القطاع الخاص بهدف زيادة الصادرات.

وتلعب الظروف الجوية دورًا أساسيًا في الصحة الجيدة لاقتصاد البلاد؛ ففي عام 1988، بعد 3 سنوات من الجفاف التي كلفت الناس جميعهم الكثير، كان المحصول ممتازًا، حيث صدّرت سورية قليلًا من القمح. وبخلاف ذلك، أرغمت الظروف الجوية السيئة في عام 1989 السلطات السورية على شراء كميات كبيرة من القمح، وستبقى البلاد معتمدة على الظروف الجوية، بما أن العمل لم ينجز في استصلاح حوض الفرات.

سياسة صناعية غير متماسكة

بالنظر إلى ما أسلفنا؛ يمكن الحديث عن تطور في الاقتصاد –حيث تم الوصول بسرعة نسبيًا إلى سقف متواضع– ولكن يتساءل كثيرون عن تماسك السياسة الصناعية للنظام: «ليس من السهل تحديد هوية لسياسة الصناعة الثقيلة، ولا لسياسة الصناعات التي تحل محل المستوردات، يبدو ذلك مرتكزًا على قاعدة «الفرص» أو الخيارات الثانوية، أكثر مما يستند إلى استراتيجية حقيقية». هذا ما كتبه ميشيل شاتلو خبير الاقتصاد السوري [23]. ويضيف «هذا منطقي بالنسبة إلى بعض القطاعات (البترول/الأسمدة، القطن، النسيج/الجاهز)، فهي تخضع إلى بعض المنطق في تطورها، ولكن النمو الاقتصادي بمجمله يفتقر إلى التماسك المنطقي»[24].

ما هي الحقيقة الواقعية؟ لكي نتمكن من فهم آلية عمل الحياة الاقتصادية في سورية اعتبارًا من 1970، يجب ألا ننسى أن الأسد قفز إلى السلطة بعد بضع أسابيع من

---

[23] Michel Chatelus, La Syrie d`aujourd`hui, op. cit. p, 250.

[24] Ibidem.

موت جمال عبد الناصر، إذ كان هذا الأخير مقتنعًا بأنه لا يمكن بناء وطن حقيقي إلا بتأسيسه على قاعدة صلبة، وكان يوجه جزءًا كبيرًا من طاقاته نحو التنمية الإنتاجية الوطنية، ليتمكن المصريون من الاعتماد على أنفسهم فقط. وهذا الفعل العظيم تم اتباعه مع كثير من الفائدة من العالم العربي، وبالطبع من القادة السوريين. طمح صلاح جديد نفسه ما قبل الأسد -بطريقته الخاصة- بإقامة قاعدة لصناعة وطنية قوية؛ نسخة من النموذج السوفياتي. وكان الوضع مربكًا قليلًا بالنسبة إلى حافظ الأسد، فهو متردد بين رغبته في الانتهاء من الإدارة «اليسارية» لفريق جديد، ومنافسته المخلصة لنموذج ناصر، لكنه وجد في نهاية المطاف خطًا وسطًا: يبقى خطابه ناصريًا –وهو يبقى كذلك اليوم إذا نظرنا إلى المبادئ الأساسية للاستقلال والكرامة التي يدافع عنها– ولكن تغيب هذه الناصرية في التطبيق تدريجيًا، وستصبح انسجامًا مع الخطاب أقل فأقل.

يعاني الرئيس السوري الواقعي جدًا من عدم امتلاكه نظرية حقيقية يدافع عنها. فهو عسكري قبل كل شيء، وغير قادر إطلاقًا على الحكم في مزايا الاقتصاد الاشتراكي أو مساوئه، أو مزايا الاقتصاد الحر أو مساوئه. بالمقابل، ما فهمه تمامًا عندما أخذ السلطة، امتعاض بعض طبقات المجتمع السوري -التي يطمح بالاستناد إليها- من السياسة الاقتصادية لأولئك الذين أزاحهم عن الحكم. ووجد في التقليل من تدخل الدولة، ومن الحرية أكثر فأكثر؛ صيغة مناسبة لتخفيف التوتر، وإشاعة الانفراج في جو خيم عليه التجهم العابر في نهاية الستينيات.

جعل جزء كبير من طبقة العمال و(البروليتاريا) الزراعية الراضية عن إجراءات صلاح جديد؛ الأسد فاترًا نحوها. في حين إن الجيش الذي كان يسيطر على غالبيته، والبرجوازية التجارية الصغيرة والمتوسطة، بدت أنها تشكل له دعمًا آخر أكثر صلابة.

بدت سياسة الأسد الاقتصادية منذ عام 1971 تسير في نسق اعتباطي، فلم يتم رسم الخطوط الكبرى للاقتصاد، ولكن اعتمد على تقديم التطمينات والتهدئة، وتدعيم نظام الولاء الذي نجح جيدًا في قطاع الجيش. ومكنته حرب 1973، ونتائجها الرائعة في أسعار النفط من إيجاد الفرصة لوضع واقعيته المبالغ فيها موضع التطبيق.

توجد الآن كميات خيالية من البترودولار، وهي تتحرك في ممالك النفط في الخليج، ولا يحتاجها فعلًا الأمراء الذين يحكمونها.

على الرغم من أن سورية لم تشجع رسميًا هجرة الأيدي العاملة، إلا أنها تركت عشرات الآلاف من مواطنيها يتجهون نحو الشواطئ الذهبية للخليج بالبقشيش والرشوة. وأصبحوا خلال سنوات نصف مليون، يعملون في المجالات كلها، في العربية السعودية وفي باقي أجزاء شبه الجزيرة العربية. بعد حرب 1973 سمح الأسد للكوادر بالذهاب إلى الإمارات العربية المتحدة قبل أداء الخدمة الإلزامية، مما أثار ضجة في الأوساط الثقافية التقدمية. وعندما تم استقبال وفد من ثلاثة طلاب سوريين في وزارة الدفاع من قبل الوزير الجنرال مصطفى طلاس قالوا له: «تتركون القوى التقدمية في الخليج وفي الجزيرة العربية مقابل بعض الدراهم من الأمراء!» أجابهم طلاس: «ما يعنينا هو عروبة الخليج، فالأمراء هم عرب وجزء كبير من العمال هم من الفرس. نحن قوميون عرب» [25].

بالتزامن مع ذلك، تقدم سورية الأسد نفسها بخطاب مستهلك، بوصفها أول بلد عربي في المواجهة مع اسرائيل[26]. وألقت بنفسها من دون تحفظ في ما سيسميه اقتصادي لبناني «استحواذ إقليمي». فالقمم المتتابعة قررت جميعها تقديم مليارات الدولارات لمصلحة «جهود الحرب السورية» [27].

ولكن إضافة إلى الإسهام الرسمي -الذي لم يتم الوفاء به دومًا- تدخل تحويلات أموال سرية عبر دمشق لتغطية عمليات محددة منها: 250 مليون دولار لمنع زراعة

---

[25] مقابلة أحد الطلاب مع المؤلف. هذا يبعث على ابتسام كل اولئك الرافضين دعم دمشق لطهران طوال الحرب العراقية الإيرانية. كانت الروابط بين سورية والإمارات العربية المتحدة قوية في مرحلة انتشرت في دمشق النكتة الآتية: بعث وزير الخارجية عبد الحليم خدام ابنه إلى أحد الأمراء، هذا الأخير قدم له المال، فاتصل خدام الصغير هاتفيًا بوالده: «قل لي هل آخذ؟ فرد: نعم بالتأكيد خذ هذا عمّك».

[26] «سوريا لن تترك مجالًا لأن يفرض عليها مكان المعركة مع العدو الصهيوني أو زمانها»؛ هذا ما تردده وسائل الإعلام الرسمية السورية منذ أمد بعيد.

[27] هذا النوع من الإسهامات لم يدخل أبدا في سجلات الدولة وحساباتها.

الحشيش في لبنان في عام 1986 [28]، ودفع ضعف هذا المبلغ قبل ذلك ببضع سنوات، لإخلاء مدينة زحلة المسيحية في وسط سهل البقاع اللبناني، وأربعة أضعاف (مليار دولار) في بداية عام 1987 لدخول بيروت والضاحية الجنوبية لإقصاء الميليشيات اليسارية للحزب الشيوعي والحزب التقدمي الاشتراكي وأنصار حزب الله دفعة واحدة[29]. وفي بداية صيف 1987 ومن مصادر «واسعة الاطلاع» أكدت أن الرياض دفعت 250 مليون دولار، ولم يتم تحويل المبلغ إلا بعد إخضاع الضاحية الجنوبية [....]. وبدءًا من ذلك الوقت اعتمدت حياة الاقتصاد السوري على التحويلات[30]، وهكذا أهملت سورية آلتها الإنتاجية.

عندما تدخل هذه الأموال الهائلة في الحسبان، ليس من الصعب ملاحظة تنوع اقتصادي حقيقي بدأ يحدث في بلاد أصبحت أشبه بورشة كبرى، حيث يتم استثمار الأموال في الاتجاهات كلها. ولكن يجب التساؤل عن دوافع هؤلاء الأثرياء الجدد، وحول الفاعلية الاقتصادية لهذا النظام الاقتصادي الذي تبلور في الواقع، لم تؤخذ العائدية الإنتاجية في الحسبان على الإطلاق، فنحن أمام منطق توزيع الغنائم –كيف يتم تقسيم المكارم النفطية؟ – وليس أمام منطق إنتاجي يهدف إلى تطوير الآلة الإنتاجية. كما يقول ميشيل سورّا «لا يتجاوز هدف المشروع الاقتصادي أحيانًا وجوده نفسه، أي كمية المصروفات الجارية التي ينتظر أن تعود بالفائدة المنتظرة على الجوقة التي اتفقت على المبادرة بالمشروع» [31].

---

[28] من غير المفيد القول إن تهريب المخدرات استمر وتوسع. خصص جيمس بول في مذكرة معدة للنشر حول انتهاك حقوق الإنسان في سورية - تمكنّا من الحصول على نسخة أصلية منها- فصلًا كاملًا يتعلق بالفوائد التي تجنيها سورية من تهريب المخدرات. في بداية آذار مارس 1991، وضع الرئيس جورج بوش سورية إلى جانب إيران وافغانستان على قائمة البلدان المحرومة من الحصول على مساعدات أمريكية، لأنها لا تكافح المخدرات. في لبنان نفسه، ليس للمال رائحة ومنذ بداية الحرب الأهلية في عام 1975، فالحشيش يمر عبر حواجز ميليشيات الطوائف المختلفة كلها، وحواجز الجنود السوريين من دون مشكلات.

[29] قبض المناضلون الأنقياء المتشددون من حزب الله وبموافقة راعيهم الإيراني أموال المخدرات. في الحقيقة، وتشكل تجارة الحشيش للشيعة في البقاع المورد الوحيد عمليًّا.

[30] هذا ما يسميه ميشيل شاتلو «العوائد المحولة»، لتعارضها مع «الدخل المتأتي من النشاطات الإنتاجية».

[31] Michel Seurat, Etat et industrialisation dans l`Orient arabe : les fondements socio-historiques, in Industrialisation et changement sociaux dans l Orient arabe (Centre d études et de recherches sur le Moyen Orient contemporain ; CERMOC ; Beyrouth : 1982), p. 82.

هذه الطبقة الطفيلية، كما يقول عالم الاجتماع الفلسطيني بشارة قادر في دراسته عن التصنيع في العالم العربي، «لا تمت بصلة إلى الطبقة البرجوازية التي قادت التنمية الصناعية في الغرب» [32]. فمن وجهة نظره، فإن 90 في المئة من الثروات في الشرق الأوسط العربي جمعت بفضل التجارة و(الكومسيون). عرفت مصر عصمت السادات الذي كان سائق حافلة في نهاية الستينيات، وجمع ثروة تزيد على مئة مليون دولار بعد خمسة عشر عامًا، بسبب التواطؤ السلبي للرئيس الأخ، وكان عمل رفعت الأسد أفضل من ذلك حيث تراوحت ثروته في تموز 1987 بين واحد وثلاثة مليارات من الدولارات. واستنادًا إلى أحد أصحاب الملايين من عائلة الفتال اللبنانية، تصل ثروة رفعت الأسد إلى ضعف ثروة أغنى لبناني في باريس، أي قرابة ملياري دولار في عام 1988.

ويعود نهم رفعت الأسد إلى الترف والمال السهلين إلى الستينيات، أي قبل سيطرة حافظ الأسد على السلطة استنادًا إلى أكرم الحوراني [33]، ففي عام 1959 لم يكن سوى برتبة عريف في قسم الاستخبارات بوزارة الداخلية في إدلب، بين حلب والحدود التركية، ولم يتردد بعد عشر سنوات في استفزاز رئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي، بإرسال بعض رجاله لنهب موقع أثري في أرض تعود ملكيتها لزوجة رئيس الدولة. كان رفعت يتاجر بالآثار. كان حافظ الأسد في تلك المرحلة وزيرًا للدفاع، أغلق أذنيه لاحتجاجات الرئيس، وأعطى الحق لأخيه. يؤكد السوريون ضاحكين، أن رفعت في أجمل أيامه، فلديه أكبر شركتين في المنطقة؛ شركة الشارقة هدايا/رفعت في سورية وفي الشارقة، وشركة طوني فرنجية/رفعت في لبنان. تمكن هدايا المستورد السوري الكبير للسيارات اليابانية -بصورة خاصة- من بناء ثروة مهولة، إذ كان يدفع القليل من الرسوم بفضل تدخل صديقه الحميم رفعت. أما بالنسبة إلى طوني فرنجية فهو ابن الرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجية الذي قتل مع زوجته وابنته الصغيرة من قبل كتائب سمير جعجع في ربيع 1978.

---

[32] Bichara Khader, L`industrialisation arabe, in Les Cahiers de l`Orient, no 6, second trimester 1987, p. 80.

[33] مقابلة مع المؤلف، أكرم الحوراني رجل سياسي سوري عريق، يعيش في المنفى بالقرب من باريس. كان له تأثير قوي في السياسة السورية في سنوات الخمسينيات.

كان ذلك تعبيرًا ناجزًا عن نظام العلاقات الذي تبلور تدريجيًا في ظل نظام أخيه، فأصبحت حياة رفعت موزعة بين جنيف وماربيلا (في اسبانيا)، ولديه كثير من المريدين والأتباع الكبار والصغار.

بدأت الأمور تتغير منذ 1982، فأسعار النفط تتابع التدهور، في الوقت الذي استنزفت حرب الخليج أموال ممالك النفط، وأرغمتها على دفع مليارات الدولارات لتحريك آلة الحرب العراقية. كما انخفضت تحويلات العملات الصعبة انخفاضًا كبيرًا، في حين إن سورية أدركت أنه ليس ممكنًا تشغيل وحدات الإنتاج المنجزة، وتضاعف عدد الورش المتوقفة عن العمل. وهكذا يرى السوريون نسيجهم الاجتماعي يدمر أو على الأقل يتمزق، فالكبار ليسوا قادرين على معرفة بلدهم: «يبدو أن المال أصبح الاهتمام الوحيد لأبناء بلدي» يتنهد بعثي سابق خرج من سجنه بعد 15 عامًا من الاعتقال [34].

قادت هذه الوقائع إليزابيت لونجنس إلى القول الحق عن الحال السورية بأنها محيرة «إن التحليل القاسي ومن دون موارية (لبعض أعضاء الحزب أو النقابات المرتبطين بالنظام) لم يقد إلى أي تغيير للأشخاص السياسيين، يُظهر في الوقت نفسه شعورًا حادًا بالمشكلة، والاستحالة البنيوية للحلول» [35].

دخل الاقتصاد في حال من الشحّ، فالطفيليون والانتهازيون ليس لديهم خيار سوى انتظار أيام أفضل. إن اكتشاف حقول النفط المهمة في منطقة دير الزور سمح منذ 1988 بإعادة إقلاع الآلة الاقتصادية جزئيًا، في الوقت الذي بدا واضحًا في أزمة الخليج التي سنعود إليها، أنها أعطت الفرصة مرة جديدة للرئيس الأسد، ليظهر مدى انتهازيته. قبل ذلك، ويجب تحليل الإجراءات ضد الإرهاب المتخذة فيربيع 1987 من قبل

---

[34] في مواجهة هذا الحجم من الفساد والرشوة كله، انتشرت في البلاد المختلفة الحكاية الآتية: لم يتمكن أحد مستوردي الأحذية من دفع ضرائب جمركية مبالغ فيها، حيث ستصل إلى جيوب موظفي الجمارك المرتشين. وقد استورد هذا الرجل من إيطاليا 30 ألف حذاء للرجل اليمنى، وصلت إلى ميناء اللاذقية. وعندما جاء ليأخذ بضاعته، رفض التاجر بقوة سحب البضاعة ودفع المطلوب. قام فرع الجمارك ببيع المخزون بسعر رمزي، حيث تم الشراء من قبل تاجر متواطىء. بعد أسابيع عدة تكرر الموضوع نفسه في مرفأ بانياس مع 30 ألف حذاء للرجل اليسرى....

[35] Elizabeth Longuenesse, Syrie, secteur public industriel : les enjeux d`une crise, in Maghreb-Machreq no 109, été 1985. P. 16.

النظام –بصورة خاصة طرد أبي نضال من دمشق– والتعاون بين أجهزة الاستخبارات السورية والأوروبية، وجهود دمشق في تسهيل تحرير بعض الرهائن الغربيين؛ في ضوء الأزمة الاقتصادية، إذ تأمل سورية من خلال ذلك بإيجاد بعض المزايا التي فقدتها.

منذ أمد بعيد، لم يبق أي بديل سوى سياسة الولاء والتبعية التي يستند إليها النظام. على الرغم من المرتبات المتدنية، فالزبائنية تبقى المخرج الوحيد بالنسبة لمئات الآلاف من الطفيليين. ركبوا المركب نفسه، فمصير النظام يرتبط إلى حد بعيد بمصير عملائه، فالأول لن يغرق من دون إغراق الآخرين.

تلوث البيئة يبعث على القلق

لم يكن مفاجئًا في مثل هذه الظروف، أن يأخذ التلوث والأذى في سورية بعدًا مقلقًا جدًا، لم تتخذ أي إجراءات حول الأبنية الإسمنتية القبيحة التي طغت على مفاتن القرى الجبلية، ففي إسرائيل ولبنان وكثير من بلدان المتوسط لم يفعلوا أفضل من ذلك. لا يسعنا إلا أن نحيي القائمين على شؤون دمشق، الذين عرفوا تجنيب مدينتهم الأبنية الضخمة، والحد من الأبنية الجماعية العالية إلا في حالات استثنائية نادرة.

ومما يبعث على الأسف أيضًا تلوث شاطئ المتوسط. فالمشكلات الجلدية عند الأطفال الذين يستحمون في شواطئ اللاذقية أصبحت للأسف معروفة جيدًا. كان ممكنًا تجنب ذلك لو وضعت السلطات العناية والاهتمام نفسهما لتنظيف هذا القطاع، بمثل ما فعلت في شاطئ برج إسلام، ملتقى سكان القرداحة، حيث ولد الرئيس الأسد. مشكلات الدمشقيين هي أكثر خطورة، فهم يصابون بأمراض الدم وصعوبات التنفس بنسبة أعلى بكثير من باقي المواطنين. يوجد في دمشق 90000 سيارة، تستخدم وقودًا رديء التصفية يتضمن الرصاص، وغبار المعامل، والنفايات الملقاة في ساقيات الماء، والكثافة العالية جدًا للسكان –أكثر من 10000 من السكان في الكيلومتر المربع- ذلك كله يمكن أن يفسر هذه الحالة.

على الرغم من ذلك، ليست دمشق ولا حلب التي تحطم الرقم القياسي في التلوث، وإنما حمص التي تقع على مسافة 150 كم إلى الشمال من العاصمة. في هذه المدينة التي تضم حوالى نصف مليون نسمة، تمت إقامة أكبر المصافي في البلاد، ومعامل الإسمنت، ومعامل معالجة الفوسفات... إلخ. بنيت هذه المنشآت معظمها غربي المدينة، حيث تؤدي الرياح الغربية القادمة من البحر إلى اجتياح المدينة غالبًا، التي تعاني بصورة مخيفة، فعدد الأشخاص الذين يموتون بالسرطان هو أعلى بثلاثة أضعاف في حمص مقارنة بالمعدل الوطني السوري. لا يوجد سوى اللاذقية التي يمكن أن تنافس حمص في هذا المجال، بسبب وجود معمل إسمنت ينتج يوميًا 7000 طن. أصيبت ضواحي هاتين المدينتين بالطبع بقوة بمشكلة التلوث، وكذا الحال في بحيرة قطينة، بالقرب من حمص التي هجرها تمامًا صيادو السمك. أما الصيادون فهم كثر في المنطقة، لكنهم توقفوا منذ أمد بعيد عن إطلاق النار على الإوز البري أو على البط الذي يفضل سماوات أكثر رحمة.

بدأت السلطات السورية الاهتمام بالمشكلة عندما أحدثت عام 1985 وزارة شؤون البيئة. كما وافقت سورية على اتفاق مونتريال 1987 الذي يحد من الإنتاج العالمي للمواد الضارة بطبقة الأوزون، وكذلك اتفاق بال عام 1989 المتعلق بضبط حركة عبور النفايات الخطرة.

إضافة إلى ذلك، يجب الاعتراف ببعض الصراحة التي أبدتها السلطات السورية، ففي مقابلة مع إحدى وكالات الأنباء العالمية في آذار 1990، قال وزير الدولة السوري للبيئة عبد الحميد المنجد «إن مياه الصرف الصحي في دمشق تلقى حاليًا من دون معالجة في نهر بردى»، وهو يروي مزروعات الغوطة في غرب وشرق العاصمة السورية[36] في دمشق، أضاف الوزير أن نسبة التلوث الجوي في مناطق الحركة المرورية الكثيفة تتجاوز النسب المسموح بها عالميًا، كما أعلن السيد المنجد أنه سيتم خلال ثلاث سنوات بناء ثلاثة معامل لتنقية مياه الصرف الصحي في العاصمة، وإعادة استخدامها، وكذلك بناء معملين لمعالجة المياه ونفايات السفن على الشاطئ

[36] Interview a l`AFP, le 12 mars 1990.

السوري، وهذا المشروع الأخير ممول بالكامل من قبل «خطة عمل من أجل المتوسط» (PAM) الموجود في أثينا.

أن يأتي متأخرًا أفضل من ألاّ يأتي بالتأكيد، إلا أن ذلك لن يمنعنا من التفكير بأن استجابة السلطات السورية جاءت متأخرة، وبأنها لم تعرف -مرة جديدة أيضًا- التخطيط الفعال لتطور المدن الكبرى أو لتطور الشاطئ. سنرى فيما بعد أن طبيعة النظام نفسه، والأولويات المطلقة المعطاة من قبل متملقيه للعائدات السريعة لا يمكن إلا أن تقود إلى طريق مسدود فيما يتعلق بالبنية التحتية للبلاد. هذه الحال تذكرنا بالكارثة الشاملة التي واجهت المعسكر الاشتراكي في شرق أوروبا، مع فرق كبير: الحرية في سورية هي حلم يتوق إليه السوريون.

ثانيًا: أقلية ونضال وعسكر

المصير المحتوم للعلويين

ولد حافظ الأسد في 6 تشرين الأول 1930 في القرداحة في قلب ما اصطلحنا عليه اسم بلاد العلويين قبل أن تتخلى فرنسا عن سنجق إسكندرون في عام 1939 لتركيا. يشغل 350000 علوي تقريبًا الجزء الأساسي من الأرض الواقعة بين أنطاكيا في الشمال والنهر الكبير الذي يفصل لبنان عن سورية في الجنوب، والبحر الأبيض المتوسط من الغرب، ونهر العاصي من الشرق تقريبًا. وبعد الضربة الموجعة لسورية من قبل فرنسا، أصبح مئة ألف عربي، غالبيتهم من العلويين، في ظل الإدارة التركية. العلويون الآخرون، ومنهم عائلة الرئيس السوري في المستقبل، بَقَوْا في ظل الإدارة الفرنسية حتى تم إعلان الاستقلال السوري في أيلول 1941 بوضوح من قبل الجنرال كاترو.

درج المؤرخون والجغرافيون على عادة تقسيم البلاد العلوية السورية إلى أربعة قطاعات وهي من الغرب إلى الشرق: الشاطئ نفسه مع مدنه الثلاث (اللاذقية وبانياس وطرطوس)، والسهل الساحلي وهو منطقة ملكيات زراعية كبرى، والجبل الذي يقسم هو نفسه إلى تلال منخفضة ومرتفعة؛ وأخيرا البلاد الداخلية. إذا كان العلويون أغلبية في الريف وفي الجبل، فَهُم في المقابل أقلية في المدن. ويشكل المسلمون السنة في مدة ولادة حافظ الأسد ثلاثة أرباع سكان اللاذقية (26000 نسمة) تقريبًا. كما إن الطوائف المسيحية حاضرة بقوة في المدن الساحلية، إذ تشكل 15 في المئة باللاذقية و30 بالمئة في طرطوس. ويتبين مما سبق أن العلويين في المدينة هامشيون تقريبًا.

طائفة منبوذة

ستشكل الأصول الريفية أو الجبلية للعلويين عبئًا ثقيلًا على مصير الطائفة، فتاريخها غير معروف بصورة جيدة. عانت هذه الطائفة -مثل غيرها من الطوائف ذات الأصول الشيعية- كثيرًا انتصار الإسلام الأرثوذوكسي أي السني، الذي لا يجد أفضل من العمل على شطب غالبية النصوص «الإلحادية» أي البدع. وكما يذكر جان ويلرس «يندر أن يتعرض شعب إلى هذا القدر من الاضطهاد عبر التاريخ» [1].

ولدت الطائفة العلوية في العراق مهد الشيعة في عام 859 م. في هذه المرحلة يعلن ابن نصير، وأصله من البصرة، انتماءه للإمام أي للخليفة العاشر بعد علي، صهر الرسول (صلعم). ومن المعروف، -بصورة عامة مختصرة- أن الإمامة لدى الشيعة هي بمنزلة الخلافة عند السنة، إلا أنه يجب أن ينتمي الخليفة بالنسبة إلى السنة إلى قبيلة قريش، قبيلة النبي محمد، وهو ليس سوى قائد زمني مكلف بحماية الدين، في حين يجب أن يمتلك الإمام بالنسبة إلى الشيعة علمًا يتجاوز البشر (فوق بشري أو إلهي)، وتعاليمه لها قيمة مطلقة.

ويجسد علي أيضًا بوصفه خليفة أو إمامًا رابعًا؛ الألوهية في نظر الشيعة، وبالطبع في نظر ابن نصير مؤسس الطائفة العلوية، فهو وأنصاره دفعوا إلى الذروة الطقوس التي ينسبونها إلى علي في شيء من التأليه، فهو (أي علي) يتمثل المعنى «الجوهر»، أما النبي فدوره أقل أهمية عند العلويين مما هو عند أهل السنة: فهو ليس سوى الاسم «الغطاء» للإله. وأخيرا سلمان، أحد الصحابة الأساسيون في عهد محمد، فهو بمثابة الباب أو التلميذ. هذا الثلاثي العلوي أخذ أشكالًا عدة عبر تطور العالم. تشكل من هذه الأسماء الثلاثة (علي ومحمد وسلمان) اسم ثلاثي مقدس «عمس»، وهو خاص بالأتباع فقط[2].

---

[1] Jacques Weuleresse, de l`Institut française de Damas, Le pays des Alaouites, (Tours, Arrault et Cie. 1940), p. 53.

[2] F.M. areja, Islamologie, (Imprimerie catholique de Beyrouth: 1963), p. 844 مدخل جيد إلى المذهب الشيعي بالرغم من تقادم المعطيات الرقمية

انتشرت العقيدة النصيرية بسرعة شمالي سورية عبر الأمراء الحمدانيين في حلب الذين سمحوا للأفكار الشيعية بالانتشار في كل مكان، إلا أن طرد الصليبيين من سورية، والعودة القوية للسنة من غير العرب، شكلا ضربة قاصمة للأقليات الإسلامية، خصوصًا للعلويين والإسماعيليين. في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، قامت قوات السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، من منطلق (الغايات تبرر الوسائل) [3]، باجتياح الأرض العلوية والإسماعيلية، واحتلت قلاعهم ومعاقلهم وحاولت إدخالهم في الدين بالقوة عبر بناء المساجد في الأمكنة كلها. ومنع أي شكل من أشكال الدعوة لمعتقداتهم. وتم تتويج ذلك بقيام ابن تيمية، أحد أهم العلماء في بداية القرن الرابع عشر، بإصدار فتوى بحق العلويين، فتوى يستخدمها الإخوان المسلمون حتى اليوم، كتب يقول «الحرب المقدسة هي مشروعة ومحببة لله ضد هؤلاء أصحاب المعنى المخفي (الباطنية)، فهم أكثر إلحادًا من المسيحيين ومن اليهود، أكثر إلحادًا أيضًا من أشد المشركين الذين ألحقوا الأذى بدين محمد أكثر من المشركين المقاتلين، كالإفرنج أو الترك أو غيرهم» [4].

تراجع العلويون إلى جبالهم مهزومين ومسحوقين، كما فعل الدروز والإسماعيليون والموارنة، وظلت معتقداتهم ثابتة، لم تتطور أبدًا.

ومن المدهش أنه يجب الانتظار سبعة قرون، وعودة «الصليبيين الجدد» حتى نلحظ استيقاظ العلويين. في أثناء هذه المرحلة الطويلة، لم يكن جبل الأنصارية – الكلمة مشتقة من «نصير»– سوى منطقة منسية من قبل الإمبراطورية المملوكية ثم الإمبراطورية العثمانية.

على الرغم من تحطيمهم من قبل قوات بيبرس ومن خلفه، بقي العلويون منبوذين من قبل إمبراطورية استمرت بالحذر منهم، ومن أشكال الهرطقة والإلحاد كلها. كما

---

[3] نقرأ باهتمام بالغ الأجزاء الأربعة من رواية بيبرس، من منشورات سندباد في باريس. في الحقيقة أسهم بيبرس في طرد الصليبيين المحتلين جزءًا كبيرًا من الساحل السوري، وأصبح بسرعة النموذج الأمثل للسلطان الذي يدافع عن الإسلام ضد الكفار، من صليبيين وعلويين وآخرين إسماعيليين.

[4] ابن تيمية تقي الدين، فتوى في النصيرية. تمت الإشارة إليه من قبل ستانيسلاس غيار، شخصية بارزة من الحشاشين في زمن صلاح الدين. Cite par Stanislas Guyard, Un grand maitre des Assassins au temps de Saladin, Paris, Journal asiatique, 1787.

إن بؤسهم المروع ثقافيًّا وماديًّا جعل منهم كائنات خاصة. إذ لم يتمكن أعداؤهم من الإجهاز عليهم، فقالوا إنه «يستحيل السيطرة عليهم»، «من غير الممكن حكمهم». في الواقع يلعب المشايخ دومًا، بسلطتهم العليا في القبائل العلوية، دور الوسيط مع القبائل العلوية الأخرى، ولا سيما مع السلطات المركزية [5].

يرسم ابن بطوطة المؤرخ والجغرافي العربي الشهير الذي تنقل في المنطقة في منتصف القرن السادس عشر؛ لوحة معبرة: «لا يدخلون المساجد ولا يهتمون بها. غالبًا حتى قطعانهم وحيواناتهم تلجأ إليها. غالبًا أيضًا يحصل عندما يصل رجل غريب إليهم يدخل المسجد ويدعوهم للصلاة، فيجيبون حينئذ: «لا تنبح، أوه حمار سنعطيك غذاءك» هؤلاء الناس عددهم مرتفع جدا»[6].

تعد شهادة ابن بطوطة، على الرغم من الشك الذي تحمله، واحدة من الشهادات النادرة التي تضمنت بعض التفاصيل المتعلقة بتلك المرحلة من التاريخ العلوي، ويشير أيضًا إلى بعض الانتفاضات التي قمعت بقسوة. ففي عام 1317، قام أحد «أنبياء» العلويين بقيادة أتباعه للثورة على المدينة الإسلامية الساحلية جبلة، إلا أنه تم صدّ المهاجمين بسرعة، ثم مطاردتهم، ووقع أكثر من عشرين ألف قتيل في صفوفهم، ولكن هذا لم يكف السلطان الذي لا يريد أن يسمع بالحديث عن العفو عنهم. ويذكر ابن بطوطة أن أمير طرابلس تدخل لدى السلطان في القاهرة بهدف حماية أرواح الفلاحين العلويين: «هؤلاء الناس يعملون في الأرض العائدة للمسلمين، فإذا ما قتلوا، يؤدي ذلك بالضرورة إلى إضعاف المؤمنين» [7].

هذه اللمحة المدهشة تعبر أفضل تعبير عن المصير القاسي للشعب العلوي: سذاجته ومعاناته والتسامح الذي أفاد منه، فرضته الاعتبارات الاقتصادية فقط، وحاجة «المؤمنين» لعمله.

---

[5] هيثم مناع، إنتاج الإنسان، (بيروت: شرق المتوسط، 1986)، ص 107-108.

[6] Ibn Battuta, Voyages, t. 1, p. 177. Cite par Dessaud (René) in Histoire et religion des Nosayrites; Paris. 1900.

[7] Ibidem,p. 178.

تمكن الأتراك العثمانيون خلفاء السلاجقة من طرد المماليك في عام 1516م. لم يكسب العلويون من هذا التغيير، لأن الباب العالي يسخر تمامًا من أناسه، وما يطلبه منهم ببساطة أن يدفعوا ضرائبهم بالتمام والكمال.

شعب مهمش

بدء في عام 1535 حدثٌ كبير وجديد في المنطقة، تمثل بتوقيع نظام الامتيازات الذي سمح للقوى الأوروبية الكبرى على رأسها فرنسا بالتجارة مع الشرق الأوسط. وبدأنا نشهد عودة سورية، وخاصة حلب والمدن الساحلية، لتدخل حركة التجارة الدولية. انتشر القناصل الفرنسيون في هذه المدن المعروفة باسم «سلم الشرق» جميعها. لكن، على الرغم من أن الأتراك واليونان والعائلات الإسلامية الكبيرة أو المسيحية استقروا جميعهم في المدن الكبرى، وجمعوا الثروات أو كافحوا ببساطة لتحسين ظروف حياتهم اليومية، بقي «الشعب العلوي» غريبًا بالكامل عن هذا النظام الجديد الصاعد، فهم ثابتون في السهول الساحلية حيث لا تعود ملكية الأرض إليهم، أو هم معزولون في جبالهم، يبقون على قيد الحياة في ظروف بائسة. كما إن ظروف حياة الفلاحين في السهل شديدة القسوة، لأنه من المستحيل الإفلات من مراقبة رجال الباشا وأزلامه [8]. بالمقابل، تمكن الجبليون كالموارنة في لبنان من الاحتفاظ باستقلال شبه تام.

في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، شهدت حياة الفلاحين العلويين انقلابًا كبيرًا، فالإمبراطورية العثمانية أصبحت متقدمة في طريق التفكك، في الوقت الذي يواجه فيه نابليون بونابرت بقوة أعداءه الأوروبيين الكثيرين. يدفعهم دومًا الفقر ولكن أيضًا الفوضى التي انتشرت من حولهم، فهم –العلويين- أكثر حرية في الحركة. بدأت العصابات العلوية تنهب، وتأخذ الرهائن، مما تطلب تدخل جيوش كاملة لدفع العلويين نحو جبالهم، وتضاعف إعدام الفلاحين بين طوائف متنافسة، كما يحدث اليوم في لبنان، فما يحدث ليس سوى تصفية حسابات على نطاق واسع.

---

[8]Jacques Weuleresse, op.cit,p. 118.

في عام 1808، انفجر الغضب عندما قام اثنان من العلويين بقتل أمير الإسماعيليين في معقله مصياف. وتوالت المجازر بعد ذلك، ولكن باشا دمشق الذي دعي من قبل الإسماعيليين، لم يتمكن سوى من دفع القبائل العلوية إلى جبالها التي يستحيل دخولها. بعد حوالى قرنين من هذا التاريخ ما تزال الكراهية القوية المتبادلة حية في الذاكرة الجمعية للطائفتين كلتيهما نتيجة هذه الواقعة المروعة. فالدروز والموارنة لم يبتكروا شيئًا في هذا المجال.

يشكل فتح سورية في عام 1833 من قبل الحاكم المصري محمد علي امتحانًا جديدًا للعلويين، بعد تأسيسه الدولة المركزية، ويريد محمد علي بسط السيطرة على المناطق كلها. كان هذا التدخل لا يطاق، مما قاد العلويين إلى الثورة، إلا أنهم أضعف من مواجهة الجيش المصري، فقادتهم معظمهم واجهوا المقصلة.

لم يستمر الوجود المصري سوى مدة قصيرة، ففي عام 1840، توجب على جيش محمد علي الانسحاب المذل أمام التحالف الذي يضم إنكلترا والنمسا وتركيا. لا يحتاج الجبليون العلويون أكثر من ذلك، فهم مفعمون بالنشاط، وسرعان ما بادروا بقيادة زعيم قبلي صغير «إسماعيل بك» بتأكيد قوتهم. أفاد من حنكته بسرعة لنيل اعتراف شبه رسمي من الحكومة العثمانية التي كانت عاجزة عن إخضاعه، إلا أن طموحاته أودت به، حيث قتل بعد ذلك بقليل.

لاحظ لوكروا سكرتير أرنست رونان الذي رافقه خلال رحلته في الشرق في عام 1861، أن العلويين «هم جماعات فقيرة دائمًا في حرب مع السلطات التركية»، ويضيف أيضًا إنهم «يرهبون السوريين» [9].

لم تحمل نهاية القرن التاسع عشر أي تغيير للطائفة التي توجب عليها، زيادة الأخذ في الحسبان إعادة تنظيم الوجود العسكري العثماني. ولكن هذه اليقظة للإمبراطورية تتزامن مع صعود القومية العربية. وأدت الحرب العالمية الأولى إلى انهيار تركيا ويقظة كثير من الخصوصيات المحلية. وتحول جبل الأنصارية إلى ملجأ للفارين من أصول مختلفة جميعهم، وفي الحقيقة فتح باب عودة الغرب إلى المنطقة بعد سبعة قرون.

---

[9] Eugene Lockroy, Mission d`Ernest Renan en Phenicie, (Paris : Tour du Monde, 1863).

«متعاونون» وقوميون عرب

في أيار 1916 وجد المنتصرون على العثمانيين -الفرنسيون والإنجليز- بحسب اتفاق سايكس- بيكو، أنفسهم على رأس منطقة شاسعة مفككة تمامًا، تمتد من الغرب إلى الشرق، من المتوسط حتى الخليج، ومن الشمال إلى الجنوب، من الجبال التركية طوروس وحتى صحراء الجزيرة العربية. على هذه المساحة التي تعادل مساحة فرنسا مرة ونصف، تتعايش عشرات الطوائف والأعراق قليلًا أو كثيرًا، ويشكل العرب المسلمون السنة بالتأكيد الغالبية، ولا سيما في سورية وفي فلسطين، إلا أن العرب الشيعة هم أكثرية في العراق، كما لا يمكن تجاهل الأقليات العربية المسيحية؛ فهي تلعب دورًا نشطًا جدًا، ولاسيما في الميدان الاقتصادي. أخيرًا يطرح سكان الجبال جميعهم مشكلات كبرى على السلطات المركزية، سواء أكانوا أكرادًا أم دروزًا أم موارنة أم علويين.

إذا أضفنا إلى ذلك ما يحرك البريطانيين والفرنسيين من فكر مضمرة عدة، والوعود المتناقضة التي أعطيت للمجتمعات المحلية وحرضتها واحدًا ضد الآخر أحيانًا، وأخيرًا التأثير الذي تركته أفكار توماس وودرو ويلسون المناهضة لأي احتلال إمبريالي، يمكننا أن نتخيل أن المهمة الموكلة إلى باريس ولندن من قبل عصبة الأمم لن تكون سهلة على الإطلاق.

وصل أول جندي فرنسي في 8 تشرين الثاني عام 1918 إلى اللاذقية، وكان أول قرار لقائد القوات الفرنسية الملازم الأول جان دولاروش [10]، حل الحكومة المؤقتة التي شكلها وجهاء المدينة بعد مغادرة آخر الموظفين العثمانيين في 9 تشرين الأول السابق. لم تكن هذه الحكومة قادرة على السيطرة على البلاد العلوية، فأعلنت انضمامها فورًا إلى المملكة الهاشمية للشريف فيصل. فرض دولاروش مباشرة السيادة الفرنسية، ولكن بقدر ما كان إخضاع المدينة سهلًا، بقدر ما طرح موضوع الجبل مشكلة، إذ لم يكن الأمر سهلًا هناك.

---

[10] Jean de La Roche, Note sur notre occupation du territoire alaouite, (Paris, Archives francaises, 1931).

بالنسبة للعشائر الجبلية، كما يذكر بحق ويلرس: «حكومة نظامية، مهما كانت ودية، تبقى دائمًا حكومة، يعني أنها تبقى شيئًا مزعجًا بطبيعتها، ويصعب تحملها». فهي لن تتراجع إلا بالقوة. في شباط 1919، أراد الفرنسيون التحكيم في أزمة بين العلويين والاسماعيليين، وبدأت المواجهات بين قوات الانتداب والعلويين. وتعرضت القوات الفرنسية إلى هزيمة أمام بلدة الشيخ بدر الواقعة في منتصف الطريق بين طرطوس ومصياف. وأصبح الزعيم العلوي الشيخ صالح العلي، المهندس الحقيقي للنصر، أصبح سيد الجبل. تلقى الشيخ صالح دعمًا من مبعوثي فيصل على الفور، وكذلك من العصابات التركية التي قدمت من أنطاكيا. واستمرت المواجهات حوالى عام كامل، من تموز 1919 إلى تموز 1920، واستمر الفرنسيون بإطلاق النار ضد المجموعات العلوية المسلحة. في الواقع، كان لموت دولة الشريف، وهروب فيصل في لحظة الاعتراف بالانتداب الفرنسي رسميًا، الدور الحاسم في نهاية المواجهة. أصبحت البلد العلوية بعد ذلك «أراض مستقلة» في ظل السيادة الفرنسية في 31 آب 1920.

استمرت المقاومة العلوية 15 شهرًا حتى استسلام الشيخ صالح في تشرين الأول 1921، وخيم الهدوء النسبي بعد ذلك -قليلًا أو كثيرًا- حتى مغادرة الفرنسيين.

تنشأ في داخل الطائفة العلوية -كما هو الحال لدى كثير من الطوائف- أزمة يتواجه فيها الوجهاء التقليديون والشخصيات القومية التي تضم كثيرًا من الشباب والمثقفين. وقد امتلك الاتجاهان كلاهما بسرعة مجلته، وكانت مجلة «بلاد العلويين» للاتجاه الأول ومجلة «العروبة» للثاني [11]. كان تصميم حافظ الأسد على إجراء مصالحة بين العلويين واحدة من أهم الخصائص المميزة له بعد سيطرته على السلطة في عام 1970، وكأنه احتفظ منذ طفولته بذكريات مؤلمة عن الانقسامات التي تمزق طائفته.

لاحت في الأفق مرحلة مهمة، حيث تعد فرنسا تقليديًا، حامية الأقليات المسيحية في الشرق الأوسط، وسّعت هذا الدور ليشمل الأقليات الإسلامية والإثنية، ومن بينها العلويون. وينسجم ذلك كله مع رؤية الانتداب ومبادئ ولسون التي تدافع عن حق الشعوب في تقرير المصير، إلا أنه كان من الصعب تطبيق ذلك، فإعادة التنظيم الإداري

[11] عبد الجابر الجابوري، الأحزاب والجمعيات السياسية في سوريا، (بغداد: 1980).

التي اعتمدها الفرنسيون، أثبتت أنها غير كافية للتحول المفاجئ لشعب من الفلاحين المتخلفين إلى إداريين ناجحين، إلا أن التخلف التاريخي الذي عرفه العلويون لم يكن السبب الوحيد في ذلك، لأن «الأراضي المستقلة» أي منطقة العلويين -في الواقع- لا تملك الوسائل لتحقيق طموحاتها، فهي في الوقت نفسه شديدة البؤس، وضيقة جدًا، لذا حاول الفرنسيون دمج هذه الأراضي في مجموعة دول الشرق.

وفي 12 تموز عام 1922، تصبح «الأراضي المستقلة» الدولة العلوية، وتدخل ضمن فدرالية الدول السورية التي تتضمن دولتي دمشق وحلب أيضًا، ولكن بعد ثمانية عشر شهرًا، انسحب الممثلون العلويون من المجلس الفدرالي، حيث كانت التناقضات على درجة كبيرة من الحدة مع الشركاء السوريين. وفي 5 من كانون الأول 1924، ألغى الجنرال ويغان الفدرالية، وأقام «الدولة المستقلة للعلويين»، ولم يكن هذا الاستقلال إلا استقلالًا شكليًا تمامًا، ويجب الاعتراف بذلك، لأنه من حيث المنزلة العضوية، تم تعيين حاكم فرنسي بتاريخ 14 أيار 1930، يساعده مديرون ومستشارون، ضباط فرنسيون ينتمون إلى الأجهزة الخاصة في جيش الشرق، وهم يسيطرون الحقيقة على الإدارة المحلية مجملها.

منذ عام 1923، أوجد الفرنسيون مجلسًا تمثيليًا، يفترض له المشاركة في إدارة الدولة. ويتألف هذا المجلس من ستة عشر عضوًا؛ تسعة من العلويين، وثلاثة من السنة، وثلاثة مسيحيين، وواحد إسماعيلي، وكان يتم تسمية الربع فقط من قبل الحاكم، أما الباقون فيُنتَخبون بتصويت عام.

مع تصاعد تأثير القوميين العرب الذين أصبحوا أكثر نشاطًا، قامت فرنسا في عام 1930 بتعديل الاسم من «دولة العلويين المستقلة» -وهي تسمية مستفزة جدًا- إلى «حكومة اللاذقية»، إلا أن هذا لم يغير شيئًا أساسيًا في مصير 250000 من السكان الخاضعين لهذه الإدارة.

ويبدو في الواقع أن الضغوط التي مارسها الوطنيون الدمشقيون بهدف الاستقلال؛ أثرت مباشرة في توجهات العلويين، ولكن قبل أن تعترف فرنسا، استنادًا إلى معاهدة 9 أيلول 1936 بالسيادة السورية على حكومة اللاذقية، وحاول القادة الرئيسون في الطائفة العلوية للمرة الأخيرة قلب الأوضاع إلى صالحهم، في وقت كانت المفاوضات

جارية بين الفرنسيين والسوريين؛ ففي رسالة أرسلت بالتزامن إلى ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية، وإلى قادة الحزب الاشتراكي الفرنسي، كتب المسؤولون العلويون، ومعهم سليمان علي الأسد[12] جد حافظ الأسد ما يأتي:

(المذكرة الرسمية التي سجلت في وزارة الخارجية الفرنسية برقم 3547، وبتاريخ 15 حزيران 1936).

«بمناسبة المحادثات التي تجري بين فرنسا وسورية في الوقت الحالي، لنا الشرف نحن وجهاء الطائفة العلوية في سورية بأن نلفت انتباه حكومتكم والحزب الاشتراكي إلى النقاط الآتية:

1. الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله على مر السنين مقابل تضحيات كبيرة، يختلف بمعتقداته الدينية وتقاليده التاريخية عن تلك التي تخص الشعب المسلم السني. ولم يخضع الشعب العلوي أبدًا إلى سلطة المدن الداخلية.
2. يرفض الشعب العلوي أن يكون مرتبطًا بسورية المسلمة لأن الدين الإسلامي يعد الدين الرسمي للدولة، وإن الإسلام يعد العلويين كفارًا. لهذا السبب، نود أن ننوه لكم بالتهديد الذي سيقع علينا إذا تم ارتباطنا بسورية عندما ينتهي الانتداب، حينئذ ستطبق سورية النظام والقانون الإسلاميين.
3. بالتأكيد، إعطاء سورية استقلالها إنهاء الانتداب يمثل تطبيقًا جيدًا للمبادئ الاشتراكية في سورية شريطة أن لا تنسوا بأن استقلالًا كاملًا للبلاد سيؤدي إلى سيطرة بضع عائلات مسلمة على الشعب العلوي في كيليكيا، وإسكندرون، وفي جبال النصيرية. بالنسبة لوجود برلمان وحكومة دستورية، فلن يضمنا الحريات الفردية (...) وفي الحقيقة، لن يؤدي ذلك إلا إلى خلق نظام يفرض تعصبه الديني على الأقليات. هل يريد القادة الفرنسيون أن يكون الشعب العلوي تحت سيطرة المسلمين؟

[12] هذا الجد نفسه الذي غير اسمه ليصبح الأسد، غير راض بكنيته «الوحش».

4. يتميز المسلمون العرب بالتعصب تجاه كل من هو ليس مسلمًا، وليس هنالك من بوادر أمل بتغيير هذا الوضع. لهذا السبب، ستواجه الأقليات في سورية خطر الموت عندما ينتهي الانتداب.

نشعر كذلك بالأسى اليوم للطريقة التي يتعامل بها المواطنون المسلمون في دمشق مع اليهود الذين يسكنون في أحياء المدينة، بإجبارهم على توقيع وثيقة يتعهدون بموجبها بعدم إرسال المؤن الغذائية إلى إخوتهم اليهود من سكان فلسطين. كما إن وضع اليهود في فلسطين هو الإشارة الأوضح إلى عنف المسألة الدينية عند المسلمين العرب تجاه كل من لا يرتبط بالإسلام. نعم، هؤلاء اليهود الطيبون الذين حملوا إلى هؤلاء العرب المسلمين الحضارة والسلام، ونشروا الذهب والخيرات في أرض فلسطين، والذين لم يضايقوا أحدًا، ولم يأخذوا شيئًا بالقوة، وعلى الرغم من ذلك كله، أعلن المسلمون عليهم حربًا مقدسة، ولم يترددوا بقتل نسائهم وأطفالهم. وهذا، على الرغم من وجود بريطانيا في فلسطين وفرنسا في سورية. ولتلك الأسباب كلها، ينتظر اليهود والأقليات الأخرى مصيرًا مشؤومًا، عندما تنتهي الانتدابات، ويتم تحقيق وحدة سورية المسلمة مع فلسطين المسلمة، الهدف الأسمى للعرب المسلمين....»

أُرخت هذه الوثيقة التي تتضمن بعض النقاط الأخرى بالروح نفسها في 15 حزيران 1936 وسجلت برقم 3547 في وزارة الخارجية الفرنسية [13]. وقع هذا الاتفاق إضافة إلى جد حافظ الأسد كل من عزيز آغا الحواش، ومحمد بك الجنيد، وسليمان المرشد، ومحمد آغا جديد (والد صلاح جديد رجل سورية القوي بين 1966 إلى 1970)، ومحمد سليمان الأحمد المعروف باسم بدوي الجبل. هذا النص المدهش يشكل مؤشرًا كاشفًا على أنهم منبوذون عبر قرون من قبل الإسلام السني. ويبدو أن كثيرًا من زعماء العلويين ليس لديهم الرغبة في رؤية الفرنسيين يغادرون، فهؤلاء كانوا في الواقع أول محتلين لسورية يعترفون بالهيمنة العلوية على الآخرين جميعهم غربي البلاد. ويشكل أعضاء في المجلس التمثيلي «لحكومة اللاذقية» الأغلبية. ولم يحدث إطلاقًا أن أظهرت قوة أجنبية كبرى هذه الأهمية كلها نحوهم، كما إن الإشارة إلى رفض الطائفة سيطرة «سلطات المدن الداخلية» هو أيضًا غني بالمعاني؛ فكل تاريخ

[13] الأجزاء الماخوذة من هذه المذكرة المسجلة هنا هي ترجمة من العربية، وليست من النص الفرنسي.

سورية الحديث شأنه شأن العراق، يمكن رؤيته تحت هذا العنوان الخاص من الكفاح والمواجهة المستمرين بين أبناء المدن وأبناء الريف من أجل السيطرة على السلطة. وعلى سبيل الطرفة، تجدر الإشارة إلى التوازي الذي أقامه المسؤولون العلويون بين مصير طائفتهم ومصير هؤلاء «اليهود الطيبين» في فلسطين، وأقل ما يمكن أن يقال في هذا المجال أن حافظ أسد كان أقل تأثرًا بجده.

العلويون وحزب البعث

ليس العلويين جميعهم مؤيدين لفرنسا على الرغم مما سبق، وبوجه خاص إذا كانوا قد درسوا في باريس، كما هو حال زكي الأرسوزي الذي كان السبب غالبًا في دخول حافظ الأسد في حزب البعث[14]. وزكي الأرسوزي علوي من لواء إسكندرون، مركز المنطقة التي سميت باسمه وأعطتها فرنسا إلى تركيا عام 1939، أسس الأرسوزي في عام 1933 مع صبري العسلي رابطة العمل القومي، وهي حركة قومية عربية، تتميز في الوقت نفسه ببعض الأفكار النازية –حيث حلت العروبة محل الجرمانية- كما تأثرت أيضًا ببعض الجمعيات السرية من مثل «العهد»، و«الفتاة» أو «القحطانية» التي ازدهرت بين عام 1900 وعام 1920، في نهاية الإمبراطورية العثمانية.

تهدف رابطة العمل القومي إلى إحياء الماضي المجيد للعالم العربي، وإعادة الأهمية للغة العربية ونقائها بوجه خاص. وكان أعضاؤها مناوئين بشدة للشيوعية. فقدت الرابطة كثيرًا من تأثيرها في سورية مع مغادرة العسلي في 1936، الذي قدم نفسه لاعبًا بالورقة الفرنسية، إلا أن دور الرابطة تعزز بالمقابل عند الدروز، وعند العلويين أيضًا. يجب التأكيد هنا على الدور المهم الذي قام به فرع الرابطة في

[14] Itamar Rabinovich, Syria under the Ba`ath 1963/1966, The Army/Party symbiosis, (Jerusalem: Israel University Press), 1972.

إسكندرون، حيث عمل المناضلون كثيرًا لإرباك الفرنسيين، فهم المناضلون أنفسهم الذين شكلوا كتائب البعث الأولى [15].

انتهى الأرسوزي بالدخول إلى دمشق، بعد أن قاد المقاومة ضد الأتراك بعض الوقت، وأغفل الرابطة، وشكل في تشرين الثاني 1940 حركة جديدة سماها البعث العربي أو الإحياء العربي. إلا أن حركة الأرسوزي لم تنجح أبدًا، وبعد ثلاث سنوات ترك الأرسوزي الحياة السياسية النشطة، وانضم تلامذته معظمهم إلى حركة سياسية مشابهة سميت بالبعث العربي أحيانًا، وبالإحياء العربي أحيانًا أخرى. تأسست هذه الحركة من قبل طالبين درسا سابقًا في فرنسا؛ ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار.

بعد مضي نصف قرن، يصعب القول ما هي بالضبط إسهامات الأرسوزي في حزب البعث. ويبدو واضحًا في المستوى الأيديولوجي أن الخصيصات الروحية (الصوفية) لمفهومه للقومية العربية أثرت بقوة في فكر عفلق والبيطار، كما توضح أيضًا أنه دفع كثيرًا من أبناء طائفته العلوية للانتساب إلى الحزب.

فيما يتعلق بحافظ الأسد وصلاح جديد اللذين تربعا على قمة البلاد في أواسط الستينيات، تتلمذا على أفكار البعث بواسطة وهيب الغانم الذي هرب من الإسكندرون مع الأرسوزي في الوقت نفسه، واستقر في اللاذقية[16]. في عام 1945، كان الشاب الأسد عمره 15 سنة، يناضل بنشاط في الاتحاد الوطني للطلبة، كما هو حال كثير من شباب الأقليات الطائفية. لم تستند أيديولوجية البعث[17] كما قدمت في المؤتمر الأول للحزب في عام 1947، بطابعها الأصلي مباشرة إلى الإسلام، على الرغم من أن عفلق ألح دائمًا على الدور الجوهري لهذا الدين في مراحل أمجاد العالم العربي.

يحب حافظ الأسد الملاحم التاريخية، كما سيكتشف بعد ثلاثين سنة هنري كيسينجر، ولدى هذا المراهق أسباب أخرى ليكون شديد الحساسية لحجج الأرسوزي. يعبر التاريخ الشخصي لمعلمه المطرود من مدينته الأصلية بعد التنازل عن لواء إسكندرون لتركيا أفضل تعبير عن العجز العربي المخيف، وعدم القدرة على

---

[15] عبد الجابر جابوري، مرجع سابق ص 87.

[16] Itamar Rabinovich, op.cit., p. 25.

[17] انظر الملحق عن حزب البعث في نهاية الكتاب.

مواجهة المؤامرات الغربية، ولن يغفر السوريون لفرنسا فقد هذا الجزء العزيز من أرضهم[18]. وبدءًا من ذلك الحدث، يمكن أن نتخيل أحلام استعادته التي تؤرق آلاف الشبان السوريين. كما شكلت مأساة فلسطين في الوقت نفسه «صدمة عنيفة أخرى»، حيث عملت بريطانيا على تصفية فلسطين، ولكن قبل الولوج في المسار السياسي لرئيس سورية المستقبل، لنعد إلى القرداحة، بلدته، حيث ولد وأمضى سنوات الطفولة كلها.

القرداحة مهد عائلة الأسد

تقع في قلب البلاد العلوية، في المرتفعات الأولى من جبال الأنصارية، وتبعد قرابة 15 كم جنوبي شرق اللاذقية، شكلت القرداحة في عام 1930 تجمعًا كبيرًا يضم أكثر من 2000 نسمة. وتعد أغنى منطقة في جبال العلويين، وأكثرها خصبًا. «التنوع في الأرض يضاعف مستوى الموارد، منطقة أشجار مثمرة ممتازة، أشجار التين والرمان والمشمش والتفاح تشكل روضة حقيقية، من دون الحديث عن شجيرات العنب» كما يذكر جاك ويلرس الذي زار المنطقة في تلك المدة [19].

على الرغم من ذلك، يجب ألاّ نذهب بعيدًا، ونتخيل أن الأشياء كلها عسل وحليب. حافظ الأسد هو من أسرة ريفية متوسطة، لا ينتمي إلى عائلات الشيوخ ولا إلى العائلات المالكة، طفولته مختلفة تمامًا عن تلك التي يعيشها أبناء البرجوازية الحلبية أو الدمشقية. فالأرض التي يملكها والده تكفي لتأمين التعليم الابتدائي والثانوي لبعض أبنائه فقط. على الرغم من ذلك، فإن والد حافظ وجدّه، شجاعان يطمحان إلى السلطة، ومن اللافت للنظر سيطرة فكرة السلطة دائمًا على عائلة الأسد؛ فالجد سليمان علي كان في خدمة العائلات الغنية المسلمة والمسيحية التي تريد تشديد قبضتها على الفلاحين العلويين المعاندين. تمثل عائلة الأسد في الواقع بوضوح تام

https://facebook.com/groups/abuab/

[18] الخرائط الرسمية السورية لسوريا كلها تتضمن لواء إسكندرون.

[19] Jacques Weuleresse, Le pays des Alaouites, op, cit., p. 340.

الفكرة القائلة بأنه ثمة خطان عند العلويين دائمًا: الأول انفصالي انقسامي متعاون مع الأجنبي، والآخر مندمج يرغب في البقاء ضمن الإطار العام، ومنه حافظ.

ينمتي والد حافظ الأسد ينتمي إلى جيل من القرويين الذين يعملون كل شيء من أجل أن يتمكن أطفالهم من متابعة الدراسة. استفاد الأسد من هذه الرؤية، ومن الواقع أيضًا، حيث صار العلويون للمرة الأولى مواطنين بالمعنى الكامل بفضل الاستعمار، كما هو الحال كذلك بالنسبة إلى باقي طوائف الأقليات. يمكّننا ذلك من فهم أفضل للغلوّ العلوي اليوم ضد الإسلاميين الذين يريدون ببساطة إعادتهم إلى حالهم التي كانوا عليها في مرحلة ما قبل الاستعمار.

استأجر علي الأسد غرفتين في اللاذقية من دون كهرباء، بعد أن ضغط موازنته إلى الحد الأقصى، ليتمكن أبناؤه من متابعة الدراسة، ولكن إذا لم تكن العائلة غنية، فإن حياتها اليومية ليست أقل يسرًا إذا قورنت بالأغلبية الساحقة من العلويين، فهم أميّون معظمهم، يعيشون في البؤس، سواء في السهل أم في الجبل، في بيوت منخفضة قليلة الارتفاع، تفتقر إلى الأساسيات الصحية، مبنية من الحجارة المقطعة تقطيعًا أوليًا، والبيوت معظمها لا تتضمن أكثر من غرفة، ولا تسمح إلا بالوقوف لا أكثر. لم يكن استعمال الإسمنت معروفًا، هناك تردد واضح في البناء المرتفع.

علي الأسد، فلاح ميسور الحال نسبيًا، ليس لديه غرفة رئيسة من حجم مهول فحسب، وإنما أضاف إليها أخرى للاستقبال «السلاملك» تسمح بالفصل بين الجنسين عندما يكون ثمة زائرون غرباء. ومن نافلة القول أن الأثاث متواضع جدًا؛ فالطاولة والكراسي غير معروفة، وكل شيء على الأرض. كما إن الرجال والنساء والأطفال ينامون معًا على الحصير. وتوجد جرار كبيرة يزيد ارتفاعها على 150سم، يخزن فيها الزيت والحبوب والنبيذ أحيانًا. إلا أن الأمر مختلف عن البيوت التقليدية الرائعة في جبال لبنان، الدرزية منها أو المسيحية، وهي أقرب في الحقيقة إلى بيوت كردستان أو أفغانستان.

في الثلاثينيات، تختلف القرية العلوية تمامًا عن القرية المارونية في الجبال، فأهلها لا يعرفون من وسائل النقل إلا الحيوانات، ويجهلون شبكات الطرق، ولا وجود للطرق والشوارع والعربات والسيارات كذلك، القرية هي «مكان بسيط لإقامة الأفراد مبني بلا مخطط من دون أي تنظيم» هذا ما كتبه ويلرس [20]. يستخدم نبع الماء مركزًا للقاء، للقيام بأعمال الغسل وتنظيف الأواني والحصول على الماء.

في الحقيقة، في الوقت الذي يتضح تأثير الإنسان في لبنان في كل مكان، كان الفلاح العلوي دومًا يقتنع بالقليل. فهو يستقر حيث يمكن له الاستقرار، ويستصلح الأرض الأقل وعورة أو تلك التي يسهل الدخول إليها. إضافة إلى ذلك، يجب أن تكون العين مدربة للتمييز بين ما هو مزروع وما هو غير ذلك. ففقر الأرض يفسر أيضًا تشتت القرى والمساكن التي يقل عدد سكانها عن 100 نسمة غالبًا. من وجهة النظر هذه، تعد القرداحة التي يتجاوز عدد سكانها 2000 نسمة؛ موطنًا ممتازًا، تشغل فيها عائلة الأسد منزلة مناسبة.

طائفة خاصة

على الرغم من ذلك كله، فإن العلوي رجل آخر، سواء أكان غنيًّا أم فقيرًا، وجيهًا أم حرفيًّا، شيخًا أم فلاحًا، فإن بدت حياته اليومية كما هي الحال في قرية سنية أو مسيحية في ظروف متشابهة، فهو ينفصل عن أبناء وطنه بواحدة من تلك الحدود غير المرئية، وهذه إحدى مميزات الشرق الأوسط. يقتنع -شعوريًا أو لاشعوريًا- بانتمائه إلى شعب منبوذ لأنه كان عرضة للاضطهاد منذ أمد بعيد، ولديه الشعور بموازاة ذلك -استنادًا إلى بعض المستشرقين في النصف الأول من القرن العشرين- بأنه موعود بمستقبل رائع، وبأنه بشكل من الأشكال منتقى (شعب مختار)، فإذا لم يكن ذلك على الأرض سيكون في السماء. ففي هذا المعنى، يأخذ الدين حقيقة أهمية أساسية في حياته، فالمزارات أو الأمكنة المقدسة التي يحج إليها كثيرة جدًا ولا تحصى. وبتعبير آخر، أخذت طقوس الطائفة بمرور الوقت طابعًا شعبيًا إلى أقصى حد. يرى

[20] Ibidem, p. 244 et sqq.

دوسو الاختصاصي الكبير في العلويين في بداية القرن العشرين، أن دينهم الشعبي يلتقي مع أقدم الطقوس السامية بعبادتهم للحضور الإلهي المقدس غير المجسد وغير المشخص [21].

الأعياد العلوية معبرة أيضًا، حيث نجد الأعياد الشيعية الكبرى، من مثل عاشوراء ذكرى مقتل الحسين في كربلاء، وعاشوراء يجب عدم مطابقتها مع عاشوراء الشيعة لأن الكحول (العرق الممتاز) يحل محل جلد الذات [....] وثمة أعياد مسيحية بمثل عيد الميلاد، عيد الإيبيفاني (عيد الغطاس أو عيد القديسة بارب)، إضافة إلى أعياد كردية أو فارسية، وأعياد زراعية بمثل عيد الورود في 21 نيسان. يجب أن ندرك أن الأمر يتعلق بسد الفراغ، حيث لا مكة لديهم ولا القدس ولا النجف مثل ما لدى السنة أو الشيعة. ويبقى الدخول في التدين «وهو رمز يكشف بشكل أساسي الغلوّ الشيعي» استنادًا إلى تعبير لويس ماسينيون [22]. هذا الدخول هو فقط من حظ النخب الصغيرة: المشايخ الذين يمتلكون سلطة قوية في أوساط الطائفة.

عند وصول الفرنسيين بعد الحرب العالمية الأولى، لم تكن المحاكم الدينية موجودة، لذا قررت سلطات الانتداب إيجادها على نموذج الإسلام السني، الشيء المدهش، هو عدم وجود متعلمين، فقام الموظفون الفرنسيون بجلب القضاة الشيعة من جنوب لبنان، قضاة غادروا بعد بضع سنوات في عقب تأهيل الدفعة الأولى من القضاة العلويين، وهي الخطوة الأولى في طريق التعاون في المستقبل بين نظام الأسد وحركة أمل الشيعية اللبنانية.

لن تكتمل هذه البانوراما إذا لم نتناول بنية الطائفة العلوية في الثلاثينيات من القرن العشرين. عندما يتحدث العلويون عن أنفسهم في تلك المرحلة، فهم يستخدمون مفهوم العشائر [23] جميعهم تقريبًا، ربما بهدف التعويض عن حياة يومية قاسية، يؤكدون انتماءهم إلى أكبر القبائل العربية القديمة. ولكن أصبح من المعروف عشق

---

[21] René Dessaud, op.cit., p. 30.

[22] Louis Massignon, Encyclopédie de l`Islam, article sur les Nosayrites.

[23] بصورة عامة تترجم tribu إلى قبيلة.

العرب للأنساب، فكثيرون اليوم يعلنون المزاعم نفسها، ويشعرون بالكبرياء بأصولهم التي تعود إلى النبي محمد أو على الأقل إلى أصحابه الأكثر إخلاصًا.

في الواقع، إذا كان من الصعب مراعاة الدقة حول أصل الجماعات الأربع التي ينتمي إليها تسعون في المئة من العلويين اليوم، فلا يوجد أي مجال للشك بأنهم عرب أيضًا، كما يمكن أن تكونه القبائل الكبرى الأخرى الأردنية أو العراقية أو الخليجية أو الليبية أو غيرها.

يسمون كلبية، وخياطين، وحدادين ومتاورة، وتشكل هذه الجماعات الأربع اليوم أهمية عددية متقاربة: بين 150000 و250000 نسمة، وتنقسم كل منها إلى عدد من الأفخاذ أو العشائر، حيث يتفاوت عددها تفاوتًا كبيرًا. يبلغ عدد بيت الخياط من جماعة (كونفدرالية) الخياطين أكثر من 100 ألف نسمة، في حين إن العراجنة من جماعة (كونفدرالية) المتاورة لا تصل إلى 5000. ينتمي حافظ الأسد بدوره إلى قبيلة الكراهيل من جماعة (كونفدرالية) الكلبية، ويصل عدد هذه العشيرة حاليًا حوالى 30000 شخصًا. إن تدقيق هذه المعلومات على درجة من الأهمية، إذ إنه من المتفق عليه، لأسباب غير معروفة، أن حافظ الأسد ينتمي إلى عشيرة النميطله من جماعة (كونفدرالية) المتاورة [24]. انطلاقًا من هذه البدايات، يرجح المؤرخون الأكثر مصداقية من مثل محمود فقش [25] أو حنا بطاطو [26] أنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون الجنرالات علي دوبا رئيس الأجهزة السرية للجيوش البرية، وعلي أصلان، الرئيس المعاون لهيئة الأركان ورئيس مكتب العمليات الحربية، وعلي صالح، قائد القوى الجوية والصاروخية، ينتمون أيضًا إلى جماعة المتاورة، كما إن مستشار الرئيس ورئيس

---

[24] Haytham Manna, Middle Eastern Studies, tome 23. Avril 1987, p. 221.

يبدو أن هيثم مناع الذي أمضى أشهرًا عدة في البحث الميداني كان له الأسبقية في تصحيح الوضع. لا يمكننا إلا تأكيد أهمية قراءة منشوراته التي تحمل إضاءة أصيلة ودقيقة عن سوريا المعاصرة.

[25] Mahmud A. Faksh, The Alawi community of Syria: a new dominant political force, in Middle Eastern Studies, 1983. P. 137.

[26] Hanna Batatu. "Some observations on the social roots of Syria`s ruling military group and the causes for its dominance" in Middle East Journal, ete 1981, P. 331.

الاستخبارات العسكرية الجوية حتى نهاية 1986 الجنرال محمد الخولي هو أيضًا عضو في هذه «العائلة».

أخيرا، يذكر بطاطو أن عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية وأحد رجال الثقة لحافظ الأسد، وهو سني، تزوج عام 1954 امرأة من عائلة الحواش المرتبطة بعشيرة المتاورة.

يبدو من المضحك أيضًا القول إن حافظ الأسد أحاط نفسه بأعضاء من جماعته، والتأكيد على أن مفاتيح السلطة معظمها يمسك بها أعضاء من عشيرة النميطلة، في حين إن وزير الدفاع صديق قديم للرئيس ومجمل سيرته، هو مسلم سني، كذلك كان رئيس الأركان حكمت الشهابي، ورئيس الوزراء محمود الزعبي الذي خلف سنياً آخر هو عبد الرؤوف الكسم.

في الواقع، لا يأخذ مفهوم الانتماء القبلي أو العشائري أي أهمية، فإذا احتل كثير من العلويين المراكز الرئيسة والمسؤوليات الرفيعة، فهم ينتمون إلى الجماعات والعشائر العلوية جميعها. إضافة إلى ما سبق فإن يونس يونس، قائد الفرقة التاسعة المدرعة، وعلي حيدر قائد القوات الخاصة، هما من جماعة (كونفدرالية) الحدادين، وفيما بينهم يتهم العلويون علويي جبلة ومحيطها باحتكار السلطة.

ويؤكد هيثم مناع: «نجد اليوم كثيرًا من الناس الفقراء، ومن المهاجرين الجدد (نحو الخليج)، ومن المعتقلين السياسيين» ينتمون إلى الجماعات (الفدراليات) العلوية الأربع [27]. في المقابل، تشكل الزبائنية السياسية تقليدًا راسخًا في الجبال، وفي المجتمع العربي، وتؤثر تأثيرًا عميقًا. تخلص الأسد كذلك من منافسه الأساسي محمد عمران، بتصفيته جسديًا عام 1972، حيث إن بعض مؤيدي عمران مثل علي دوبا وعلي صالح -إذا لم يذكر غيرهما- يعدان اليوم من أقدم مؤيدي الأسد [28].

---

[27] محادثة مع المؤلف.

[28] Nomenklatura Syrienne: le who`s who du pouvoir en Syrie" in Les cahiers de `Orient, Paris, n4, 4e trimestre 1986.

باستثناء بعض الأخطاء، تشكل هذه الوثيقة مرجعا مهمًا. النومنكلاتورا تعني رجالات السلطة.

في الواقع، علاقات الأسد بطائفته الأصلية هي علاقات مصلحة. لأنه يكون من المستحيل على الأسد الاستمرار في قيادة سورية من دون دعم منطقته حيث ولد ووجد بالطبع أفضل مساندیه من بين أولئك الذين يعرفهم جيدًا. والتأكيد بالمقابل - كما لم تتوقف عن تكراره وسائل الإعلام الغربية والعربية أو المعارضة السورية- على أن الأسد مهووس بمصير الطائفة العلوية لدرجة أنه لا يحاكم إلا من وجهة نظر طائفية يكون غير معقول إطلاقًا. لا لأن طموح الرجل يتجاوز كثيرًا مثل تلك الرؤية الضيقة للعالم فقط، ولكن ممارسة مثل تلك السياسة تؤدي بالتأكيد إلى انفضاض كل التيارات السياسية السورية من حوله. ومن المحير، أن النتائج التي توصل إليها أثارت ضده جزءًا مهمًا من الطائفة العلوية الخائفة من التأثيرات السياسية في المستقبل لهذه الزبائنية المكشوفة أو ببساطة المعارضة التامة لممارسته السلطة لأسباب سياسية أو أيديولوجية، بمثل الغالبية الساحقة من الشعب السوري.

مع ذلك، استنادًا إلى المبدأ القائل بأن القبيلة المتحضرة تكون عمليًا بحكم المنتهية، فالتحالفات منذ أمد بعيد، لم تعد تحدث فقط، وتحدث الآن أقل فأقل استنادًا إلى علاقات الدم. في الواقع، في أيامنا العشائرية الشخصية المنظمة حول أشخاص أقوياء هي التي تفرض قانونها في الأرض العلوية. هذا بالضبط ما حدث مع عشيرة الأسد. في عام 1983، في وقت يعاني فيه الرئيس مرضًا خطرًا، قام اثنان من أخوته (رفعت وجميل)، بتأسيس حركة التحرير «المرتضى»، وبدعوة الجماهير للالتحام «بالقيادة الحكيمة الثورية لعائلة الأسد». وقامت مجموعة ثانية بقيادة بعض الجنرالات بالسير في عملية مشابهة، ودعت الجماهير إلى التحرك لمصلحتهم ضباطًا علويين وغير علويين. عندما نهض من حالته المرضية، أنهى الأسد مبادرة أخويه، وأرسل ممثلي المجموعتين كلتيهما إلى الخارج لبعض الوقت. إذا كانت حرب الخلافة انتهت ظاهريًا، إلا أنها تركت آثارًا عميقة على واقع السلطة في سورية، هذه الآثار تبقى حاضرة كما سوف نرى بالتفصيل بعد قليل.

المرأة العلوية

إذا كانت الحياة اليومية للرجل العلوي خاوية في الثلاثينيات من القرن العشرين، فحياة المرأة في الطائفة تبعث على اليأس. فهي لا تعيش فقط في ظروف محزنة كغالبية الفلاحين العرب في تلك المرحلة، ولكنها أيضًا تعاني رفض العقيدة العلوية لروحها. نقل الرحالة الغربيون والعرب عنهن من بين ما نقلوا سمعة كارثية، وهي كثيرًا ما تكون بلا أساس. في الواقع على عكس السمعة المشؤومة التي تجد جذورها في الاحتقار التقليدي للفلاحين من قبل أبناء المدينة، في هذه المدة، كانت المناطق العلوية، من المناطق النادرة في العالم العربي التي لم تعرف إطلاقًا ظاهرة بائعات الهوى (الدعارة) كما لم تعرف المثلية الجنسية والأمراض الجنسية. «بعيدًا عن رذائل المدينة، الشعب العلوي شعب قاس وصحيح» كما يذكر أحد الموظفين الفرنسيين، ألبيرت جيرلان في عام 1931 [29].

على الرغم من استثنائهن من الرذائل التي تنسب إليهن ظلمًا، فإن النساء العلويات لسن أقل إذعانًا –من غيرهن- لحياة قاسية جدًا: عمل زراعي من عمر التاسعة، خطبة مفروضة منذ الحادية عشرة –لا وجود للعزب عند العلويين– وأمومة مبكرة... إلخ.

يرى بعضهم في سياسة النظام الحالي نحو المرأة ردة فعل للرئيس الأسد ضد الموقف الخاص بالنصف الأضعف من الشعب السوري. ولا يبدو في الواقع أن الأسد لعب دورًا في تقدم قضية المرأة السورية، بل على العكس، فمن المحتمل أنه سهل بعض التراجع، حيث وقع في 31 كانون الأول 1975 القانون رقم 134 المتعلق بالأحوال الشخصية الذي يشكل تراجعًا مقارنة بالإجراءات المتخذة من قبل البعث، خصوصًا من قبل فريق جديد ما بين 1964 إلى 1970 [30]. فمنذ ذلك الحين، يتوجب على المرأة، من جديد، أن تطلب موافقة زوجها لكي تعمل. كذلك في موضوع الإرث، فالإجراءات المتعلقة بها هي أقل بكثير من السابق.

---

[29] Jacques Weuleresse, Le pays des Alaouites, op, cit., p. 72.

[30] Rachid al Hijar, "quelques remarques a propos de la destruction de la société syrienne ", in Soual ; no 3; hiver 82-83, p. 43

حافظ الشاب

لا يعرف الكثير عن طفولة أو مراهقة حافظ الأسد، فالقليل الذي نعرفه، تعرض لرقابة مشددة، تمت كتابته بعناية من قبل لوسيان بيترلان رئيس جمعية الصداقة الفرنسية-العربية في كتابه «حافظ الأسد، مسيرة مناضل»[31]. نوع من السيرة التي تهدف إلى تحسين صورة، تعرضت للاهتزاز لرجل غير معروف من قبل الرأي العام الفرنسي.

ولد حافظ عام 1930، وهو الابن الثالث لعلي الأسد، أخوه الأكبر أبو توفيق؛ من الزواج الأول، ولم يرغب أبدًا في الاقتراب من السياسة تابع زراعة حقوله، بمساعدة بعض العمال الزراعيين. مات بيات الابن الأول لناعسة بعمر 18 سنة، وتزوج من قبل علي الأسد زوجة ثانية، أما جميل ورفعت الأخوان الأصغر لحافظ، فهما معروفان جدًا، ومسارهما السياسي-العسكري غالبًا ما أثار فضول صحافة الحوادث المتفرقة. وكانت بهيجة آخر الأطفال، بنت جاءت لتكمل هذه العائلة قليلة العدد نسبيًا في المنطقة في تلك المرحلة.

بعد دراسته الابتدائية حتى سن العاشرة في مدرسة القرداحة الصغيرة «لافتًا انتباه معلميه» بذكائه الحاد وذاكرته القوية، تلقى الشاب أسد تلقى تشجيعًا قويًا لمتابعة دراسته في اللاذقية. ويقول لوسيان بيترلان الذي يعرفه جيدًا إنه في السادسة عرف الصغير حافظ عن ظهر قلب ربع سور القرآن الكريم [32]. لم يمنعه ذلك من المشاركة في أعمال الحقول، وإنجاز حصته من العمل كباقي الأخوة والأخوات. يغادر هذا «العبقري» القرداحة في مطلع الأربعينيات للاستقرار في اللاذقية في غرفتين متواضعتين

---

[31] Lucien Bitterlin, Hafez al Assad, le parcours d`un combatant, (Paris, Editions du Jaguar : 1986).

تهدف إلى التعريف بالرئيس السوري وسياسته. على الرغم من إثارتها للسخرية والنقد بقوة في أوساط عدة، لكن يجب الاعتراف بان هذه السيرة الشخصية تقدم معلومات جديدة عن مرحلة الشباب لحافظ الأسد، وكذلك تلقي الضوء على بعض الأحداث التاريخية الحديثة في سورية.

[32] Bitterlin (Lucien), op. cit. p. 18. هذا التأكيد يثير الحيرة، فأطفال المدارس في سورية يبدؤون تعلم القرآن في عمر الثامنة.

مستأجرتين. دخل ثانوية المدينة وتابع دراسة جيدة، ودرجاته بالفرنسية -بحسب بيترلان- كانت ممتازة، أفضل من درجاته بالعربية.

«في السنوات الأولى من المدرسة الثانوية، كنت جادًا ومنهمكًا في دراستي، ولكن كان ذلك أقل بكثير فيما بعد، إذ انشغلت تمامًا بالسياسة وبالحزب. كنا نتعلم الفرنسية سابقًا في الابتدائية، وكنا في مستوى جيد، ولكن لم تتح لنا إمكانية وضع هذه اللغة موضع التطبيق فيما بعد» [33].

على الرغم من ذلك، يستوجب هذا الإطراء الحذر، استنادًا إلى بحث دقيق قام به بعض الناس الذين لا يريدون له إلا الخير، فحافظ الأسد عند وصوله إلى السلطة، عمل على تغيير علاماته في الصفوف جميعها حتى البكالوريا، باستثناء الدرجات المتعلقة بالسلوك. ففي هذا الميدان، لم يحصل سوى على تقدير «وسط» مما لا يبشر بالخير، ولكن ذلك يتضمن جانبًا يصعب هضمه من دون أن يمتعض منه الرئيس.

يتحدث رفاقه في المدرسة بأنه في الواقع كان متوسط المستوى المدرسي، وكانت قوته الجسدية الاستثنائية لافتة أكثر من ذكائه وذاكرته، وتثير إعجابهم. كان طويلًا قوي البنية، شجاعًا في التظاهرات السياسية، لا يتردد خلالها في مواجهة الشرطة وضربهم، وكان يحمل سكينًا في جيبه، يستخدمه دائمًا وبانتظام استنادًا إلى شهادات رفاقه.

انتخب رئيسًا لاتحاد الطلبة في الثانوية، ابتعد عن اللاذقية حيث عرف بنشاطه السياسي، وأنهى البكالوريا في بانياس الساحلية جنوبي اللاذقية.

عند حصوله على الشهادة الثانوية، تردد بين دراسة الطب والتوجه نحو الجيش. «ولأسباب عدة» لا يوضحها، يتراجع عن دراسة الطب، ويتقدم بطلب ترشحه إلى الكلية العسكرية في حمص. بعد أربعين سنة من ذلك، يلاحظ أن القبول في الكلية العسكرية ليس «سهلا بالنسبة لبعثي»، لكنه يدخلها على الرغم من كل ذلك، مدفوعًا على ما يبدو بمشكلات مادية، لا بل أكثر من ذلك، يحثه الثأر لضياع فلسطين.

---

[33] Ibidem, p. 15.

في هذه المرحلة من بداية الخمسينيات، تعرف أسد على مصطفى طلاس، ابن فلاح سني، انتسب بدوره إلى الحزب من الساعات الأولى، وهو المخلص بين المخلصين، أصبح طلاس الوزير السوري للدفاع منذ بداية السبعينيات.

في الوقت الذي قام فيه عبد الناصر بالانقلاب على الملكية المصرية في تموز 1952، أنهى أسد وطلاس المدرسة العسكرية. وتقدما إلى مسابقة الكلية الجوية في حلب التي أُنشئت حديثًا، إلا أن طلاس شديد العصبية، يعود إلى حمص، ويتخصص في المدرعات، ويبدو أن أسد تكيف مع الوضع.

«في تلك المرحلة، اكتشفنا الطيران، لم يسبق لي الصعود إلى الطائرة من قبل. الساعات الأولى من الطيران خلف الطيار، كانت بالنسبة لي اكتشاف عالم مختلف. والشعور بأنك سيد طائرتك في السماء يعطي بعدًا جديدًا للإنسان».

طار أولًا على طائرات سبيتفاير، وشيبمارك، وفيات55 و59 طائرات هيلوكبتر. ثم طار على فامبير وميتور أولى الطائرات النفاثة في أثناء دورة تدريبية في مصر. وخلال دراسته في حلب حصل في سنتين متتاليتين على جائزة الألعاب البهلوانية للطيران. تعلم الإنكليزية أيضًا بهدف الالتحاق بدورة تدريبية في بريطانيا، إلا أن ذلك لم يحدث في نهاية المطاف. وفي عام 1958، أمضى أحد عشر شهرًا في الاتحاد السوفياتي للمزيد من التدرب، وتعلم أيضًا قليلًا من الروسية. ومن اللافت للنظر، أنه على الرغم من نتائجه «الممتازة» في الفرنسية في المرحلة الثانوية، لا يبدو الأسد مرتاحًا في اللغات الأجنبية، فهو لم يعط أي مقابلة في لغة غير العربية والمناقشات الطويلة التي خاضها مع هنري كيسينجر جرت دومًا بمساعدة مترجم. وتوجب على كيسينجر أن يكتب على سبيل الممازحة أن الأسد أفاد من جلسات المحادثات المتلاحقة هذه لتحسين إنكليزيته: «قلت له لمضايقته، إنه الزعيم العربي الوحيد الذي يتحدث الإنكليزية بلهجة ألمانية» [34].

[34] Henry Kissinger, Les années orageuses, t.1,0 (Paris : Fayard, 1982), p. 960.

شغف الأسد باللغة العربية، وقلقه ليفهم وليكون مفهومًا، ذلك كله يفسر امتناعه عن استخدام لغة أخرى، ربما كان طريقة لأخذ الوقت اللازم مقابل مفاوضيه أو لتأكيد دور بلده الباحث الدائم عن هويته. ناصر والسادات ليس لديهما هذه المشكلة، فهما ورثة واثقون لأقدم حضارات العالم، وكذلك عرفات نفسه، تقدم تقدمًا مدهشًا في لغة شكسبير وفي لغة فولتير إذ يفهمهما اليوم فهمًا تامًا تقريبًا.

عرف حافظ الأسد عرف طوال هذه المدة حياة مهنية عادية لضابط جيد مع بعض المضايقات من قبل رؤسائه بسبب آرائه السياسية، فكان ملازمًا أول في عام 1955، ونقيبًا في عام 1958.

تعيش سورية منذ الاستقلال وانسحاب آخر جندي فرنسي في عام 1946 حالًا من عدم الاستقرار السياسي المزمن. وبعد سنوات عدة من الحياة البرلمانية المضطربة، شهدت البلاد أول انقلاب عسكري، حيث تم الاستيلاء على السلطة، في 30 آذار 1949 من قبل العقيد حسني الزعيم، وسجن رئيس حزب البعث ميشيل عفلق. بعد خمس سنوات من النظام التسلطي أو العسكري الدكتاتوري، انتفض الشعب في شباط 1954، وتم تنظيم انتخابات حرة أدت إلى انتخاب أغلبية برلمانية مستقلة، في الوقت الذي ظهرت فيه تشكيلات سياسية جديدة، من بينها حزب البعث. تابع الضابط الطالب أسد تدريباته الممتعة في الطيران، ثم عاد إلى الأرض، لإتمام تربيته السياسية. يحمل الرجل نفورًا عميقًا نحو التقلب، وعدم الثبات لدى السياسيين، سواء كانوا من اليمين أم من اليسار، لأن ذلك من وجهة نظره، يعرقل إمكانات النمو، فالقاعدة الأولى في السياسة هي الاستمرارية.

دمشق: مكة السياسية والثقافية

يتميز غالبية السوريين بالنفور الشديد من أي ديكتاتورية عسكرية وبرفض أي تحالف مع الغرب. وبتعبير آخر ابتعدت دمشق عن القاهرة كما ابتعدت أيضًا عن بغداد؛ ابتعدت عن القاهرة لأن ناصر الذي لم يصبح بطل العالم العربي بعد –سيصبح كذلك في تموز 1956 مع تأميم قناة السويس– عد نوعًا من الدكتاتورية؛ إضافة إلى ذلك، لجأ الإخوان المسلمون الذين تعرضوا إلى ضربة قاسية في مصر إلى سورية، وأعطوا عن (الريس) صورة قاتمة.

أما الابتعاد عن بغداد فقد حدث لأن حكومة نوري السعيد العراقية تلعب بقوة بورقة بريطانيا العظمى، إذ اندمجت تمامًا في حلف بغداد الموجه، للتخفيف من النفوذ الأميركي المتصاعد في الشرق الأوسط، وتعمل على الإبقاء على القواعد البريطانية في العراق، حيث إن المعاهدة الأنجلو-عراقية توشك على الانتهاء.

ترقى حافظ الأسد الذي أنهى دراسته إلى رتبة ملازم، والتحق بالقاعدة الجوية في المزة بالقرب من دمشق. بدأ في هذه المرحلة التعاون العسكري السوفياتي-السوري تحت سلطة «الملياردير الأحمر» خالد العظم.

في مؤتمر باندونغ في ربيع 1955، أكدت سورية حيادها، بعد أن تمكنت من مقاومة طلب بالانضمام إلى قيادة عسكرية موحدة مع مصر.

في الوقت الذي يقود فيه حزب البعث والحزب الشيوعي حملة ضد الغرب، يتصاعد تأثيرهما ومنزلهما بسرعة، واستقبلت سورية في أراضيها المنفيين القادمين من أنحاء العالم العربي جميعها، حيث تم الاعتراف بالحريات العامة. في هذه المدة، كتبت (ثابته بيتران) -وهي واحدة من أفضل المتخصصين بالشأن السوري- «أصبحت دمشق مكة السياسية والثقافية في العالم العربي» [35].

على الرغم من ذلك كله، وقف كبار المالكين للأرض، والعائلات الكبرى، متمثلين بأكبر من حجمهم بكثير في البرلمان، وقفوا في وجه النقابات، واستمروا في

---

[35] Tabitha Petran, Syria nation of the modern World, (London: Ernest Benn Ltd, 1972), p. 111.

رفض مطالب العمال والفلاحين معظمها. في آب 1955 حدثت الانتخابات الرئاسية، وانتخب شكري القوتلي الذي قاد تقاربًا قويًا مع مصر، بسبب توجه ناصر نحو تشيكسلوفاكيا لشراء الأسلحة –رافضًا شروط الغرب– وكذلك بسبب رفض فرنسا بيع السلاح لسورية.

نحو قيام الجمهورية العربية المتحدة

بتأميم شركة قناة السويس في تموز 1956، تراجع تأثير الأنظمة المحسوبة على الغرب وعلى العراقيين تراجعًا قويًا في سورية لصالح جمال عبد الناصر الذي كسب شعبية عارمة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي-الفارسي.

غير البعث الذي توخى الحذر لوقت طويل من العقيد المصري المشهور؛ رأيه تمامًا، على الأقل من الناحية الظاهرية، لأنه لا يستطيع الذهاب في مواجهة الشعبية العارمة التي حملها البكباشي [36].

شكل عام 1957 السنة الأخيرة، حيث كانت سورية تمثل كيانًا أصيلًا مع لبنان، البلد العربي الوحيد الذي عرف حياة ديمقراطية عادية تقريبًا، إلا أن رفض دمشق في بداية عام 1957 نظرية أيزنهاور التي تزعم تقديم الحماية الأميركية للبلدان المهددة من قبل «الشيوعية الدولية»، أدى إلى قيام الأميركيين والبريطانيين بحملة قوية ضد سورية، أسهمت هذه الحملة في دق ناقوس الخطر بالنسبة للحياة الديمقراطية في هذا البلد. لم يتردد مراسل صحيفة نيويورك تايمز في الشرق الأوسط، كينيث لوف، بإعلان أن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) تنشر إشاعات كاذبة [37]. وبدعم من العربية السعودية، وإلى حد ما من مصر التي كانت بحاجة ماسة للبنك الدولي، ولا يمكنها مواجهة واشنطن مباشرة، تمكن الأنجلوسكسون من شق فريق السلطة في دمشق الذي

---

[36] كلمة عربية من أصل تركي تعني عقيد.

[37] Kenneth Love, Swez the twice-fought war, (New York, 1969), p. 653.

يجمع البعثيين وأعضاء من الحزب الوطني (يسار الوسط) وشخصيات تقدمية وبعض الشيوعيين.

كان هدف الأميركيين هو عزل الشيوعيين، تابعوا عملهم التخريبي، وطبقوا كذلك، إغراق السوق بالقمح في اليونان وفي إيطاليا أي لدى زبائن سورية التقليديين. حتى تلك المرحلة، كان يستخدم الطحين السوري في صناعة العجين الغذائي من قبل الإيطاليين. في هذه الأجواء المتأزمة، وفي كانون الأول عام 1957 قام وفد برلماني مصري عبر مروره من دمشق، بالطلب من الحكومتين عَقْدَ اتفاق «اتحاد فدرالي». في حين تنادي الدعاية القاهرية نداء الشارع السوري الهاتف «وحدة وحدة يا جمال»، واجميعهم يطالبون بالوحدة الكاملة.

في 12 كانون الثاني 1958، ذهب إلى القاهرة وفد عسكري سوري يتضمن 14 ضابطًا من الرتب العليا، وطالب بتوحيد الجيشين. التحق بالوفد في العاصمة المصرية صلاح الدين البيطار، وهو من مؤسسي البعث ووزير الخارجية. لم يؤخذ رأي البرلمانيين والأحزاب والشعب السوري أيضًا في هذه المسألة المصيرية. اقتنع البعثيون في الواقع بأنهم سيشكلون روح الجمهورية العربية المتحدة المعلنة في 1 شباط 1958، وجوهرها، وهذا يعني عدم المعرفة الحقيقية بشخصية ناصر.

وعد (الريس) أمام قبر صلاح الدين في دمشق باتباع مَثَل صلاح الدين العظيم، وتحقيق الوحدة العربية الكاملة. من أجل الوصول إلى ذلك، بالنسبة لناصر لا تنقصه الوسائل. واستنادًا إلى الدستور المصري لعام 1956 حيث يعطيه السلطات جميعها، فهو يسمي -سيدًا مطلقًا- أعضاء الحكومة المركزية للجمهورية العربية المتحدة (ج ع م)، وكذلك أعضاء الحكومتين المحليتين في الإقليمين. لم يهتم كثيرًا بحساسية شركائه السوريين، إذ اكتفى بتوزيع بعض حقائب الشرف لشركائه الجدد: نائبين للرئيس ومنصب وزير دولة. وافقت الأحزاب السياسية جميعها في أقل من ستة أسابيع على حلّ نفسها، باستثناء الحزب الشيوعي.

اختفت تسع عشرة صحيفة من مجموع خمس وعشرين صحيفة سورية يومية بكل بساطة، في حين خضع ما تبقى من هذه الصحف إلى الرقابة المصرية المتشددة. كانت ردود الفعل المناهضة نادرة جدًا: خالد العظم الرجل السياسي الوحيد الذي رفض الوحدة مع مصر وتنازل فورًا عن أشكال النشاط السياسي كلها. كما استقال عفيف البزري قائد الجيش الأول من منصبه، احتجاجًا على التصفيات التي بدأها عامر، الشخصية المصرية الثانية، وتناولت الضباط السوريين التقدميين.

خلق الجهل بالأوضاع السورية، واستعلاء المصريين، واقتناعهم بأن قوانينهم وعاداتهم مناسبة تمامًا لسورية؛ مباشرة الشعور بالامتعاض، إلا أن سحر ناصر ما زال يعوض كثيرًا أخطاء مواطنيه.

إن إقامة الجمهورية العربية المتحدة تركت آثارًا مهمة في المنطقة كلها. في العربية السعودية، توجب على الملك سعود، نتيجة هذيانه وشكوكه ورعونته، التنازل عن العرش لأخيه فيصل الذي وصل لأن لديه علاقات جيدة مع عبد الناصر، لكن شهر العسل كان قصيرًا.

في لبنان، الأميركيون والمصريون يتفقون على تسوية مشكلة خلافة كميل شمعون القريب من بريطانيا الذي أراد الاستمرار في السلطة، بوصول الجنرال فؤاد شهاب، الذي حافظ بدقة على الحياد والتزم بتنمية البلاد على أسس صحيحة.

وفي العراق، وبصورة خاصة بعد انقلاب النظام الملكي في 14 تموز، تمكن عبد الكريم قاسم من أخذ السلطة، إلا أنه لم يكن حساسًا لسحر القاهرة، على غرار غالبية مواطنيه، ولا سيما أن ناصر عارض ضم الكويت من قبل بغداد. وضاعف قاسم في وقت سابق عروضه للسوريين، لحثهم على التخلص من الوصاية المصرية. لم يجد ناصر استجابة أخرى سوى مضاعفة هيمنته على الإقليم السوري ردًّا على هذا التحدي. وتم ربط الحكومة المحلية السورية مباشرة بالسلطة المركزية، كما أقيل رئيس الحكومة المحلية أكرم الحوراني من منصبه، واستدعي على وجه السرعة للإقامة في القاهرة وزيرًا للعدل.

تحولت دمشق الأبية في أشهر عدة إلى ضيعة كبرى من دون تأثير حقيقي، فقد غادر دبلوماسيو القوى الكبرى والمتوسطة ضفاف بردى للالتحاق بشواطئ النيل. كل

شيء يتم تقريره -بدءًا من الآن- في القاهرة. انتهت الأوهام بالنسبة للبعثيين. ألقت الإخفاقات المتتابعة لحزب البعث ظلالها فيما بعد، وأصبح الرعيل الأول بسبب تنازله موضع تساؤل بنظر الشباب، باستثناء المتحمسين لناصر، الشباب الذين استنكروا قرار القادة بحل الحزب قبل ثمانية عشر شهرًا.

خرج ناصر عن هدوئه نتيجة بعض الممانعين الذين يدورون في حلقة مفرغة، وسمى عامر حاكمًا لسورية، وبدأ هذا الأخير العمل على إحياء الملكيات الكبرى، وغازل بصورة واضحة عالم الأعمال. كانت تلك النقطة التي أدت إلى أن يطفح الكيل؛ في الخريف استقال الوزراء البعثيون جميعهم من الحكومة المركزية. وانفجرت المواجهات في جامعة دمشق بين البعثيين والناصريين.

تحولت سيطرة عبد الناصر على سورية إلى دكتاتورية بوليسية، وأخذ فساد الضباط المصريين الموجودين في الإقليم السوري بعدًا قويًا: الاختلاس والابتزاز، وتهريب المخدرات وغيرها، كما أدى الجفاف الذي ضرب البلاد خلال السنوات الثلاث إلى زيادة خطورة الوضع، والإصلاح الزراعي الخجول الذي شرعت به السلطة المصرية بقي بلا تأثير، باستثناء بعض المناطق في الفرات وفي حوران التي بقيت بعد الانفصال وفية لناصر.

في 28 أيلول 1961، قامت مجموعة من الضباط السوريين الذين ضاقوا ذرعًا -كمواطنيهم معظمهم- بتمصير مجتمعهم، بالسيطرة على دمشق، وفشلت تمامًا محاولات الجيش المصري استعادة السيطرة على الأوضاع، أمام رفض الوحدات السورية الأخرى التعاون معه. ماتت الجمهورية العربية المتحدة، ولكن ما يبعث على الاستغراب أن ناصر خرج من دون أضرار نتيجة هذه المغامرة، حيث ألقيت مسؤولية الفشل على معاونيه.

حافظ الأسد في زمن الجمهورية العربية المتحدة

لا يُعرف الكثير عن تصرفات حافظ الأسد في هذه المرحلة المضطربة جدًا، ولعله مسار مهني عادي جدًا لضابط سوري شاب. في عام 1956، شارك للمرة الأولى في تمرد عسكري صغير، حيث ثار بعض رفاقه البعثيين والتقدميين لظنهم أنه تم إبعادهم بطريقة تعسفية. في الواقع، لم يفعلوا سوى الخضوع لأوامر أكرم الحوراني الذي لا يحب القوتلي؛ كلف الأسد مع ثلاثين رجلًا بالسيطرة على مطار المزة بالقرب من دمشق، ومنع الطيارين المقربين من النظام من استخدام الطائرات الموجودة في أرضه. انتهت المسألة بسرعة، بعد اتخاذ عقوبات إدارية ضد الأسد وزملائه «لقد فهمنا، قال فيما بعد صديقه القديم مصطفى طلاس وزير الدفاع الحالي، أن المدنيين (في الحزب) زجوا بالعسكريين في مغامرة معدة من قبل الحوراني» [38]، درس لن ينساه الشاب الملازم الأول أسد أبدًا.

كان عام 1958 عامًا مهمًا بالنسبة إليه في المستويات جميعها، تزوج من أنيسة مخلوف، وأنجب خمسة أطفال؛ أربعة صبيان: باسل، وبشار، وماهر ومجد، وبنت واحدة سميت بشرى. وبوجه خاص، بعد دورة في الاتحاد السوفياتي استمرت عشرة أشهر، اختير مع حوالى 60 من رفاقه الضباط للذهاب إلى مصر. لم يعرف أسباب هذا الانتقال، إلا أن الأكثر احتمالًا هو رغبة عبد الناصر في كسب تعاطف البعثيين في الجيش، البعثيين الذين لم يأخذهم على محمل الجد، ولكنه يشك بهم، ويفضل وضعهم في متناول اليد في مصر.

كلف الأسد بمسؤولية مطار القاهرة العسكري على طريق الإسماعيلية، وكان ذلك باعث على الحزن بالنسبة لشاب طموح، فالأجواء ليست مريحة: «نحن نشعر بالدونية، وبأننا في وضع أقل، ولم نعرف لماذا» هذا ما قاله فيما بعد أحد الضباط السوريين المنفيين إلى وادي النيل. عندما تلاشى الإعجاب لدى هؤلاء الضباط؛ كبر الاعتقاد بأن عبد الناصر لا يستحق هذه الشعبية كلها «ليس لديه حزب، كما يقولون،

---

[38] Lucien Bitterlin, op. cit. p. 44

مثلما لدينا، وكذلك ليس لديه أيديولوجية، وتأهيل جنوده أقل من مستوى جنودنا» وبتعبير آخر، ظهرت بسرعة مشكلات السلطة بين الطرفين.

مع ذلك، أدت الإقامة في مصر إلى زيادة شعبية الضباط البعثيين في المنفى، إلا أنها عززت شعورهم بأنهم يتامى، حرموا من حزبهم الذي تم حله في بداية الوحدة الكاملة. اقتنعوا بسرعة أن ناصر لن يحقق الوحدة العربية، لذا قرروا الدفاع عن حزبهم في الأحوال كلها، فهويتهم ذاتها من دونه موضع تساؤل، وشكل الأكثر حراكًا من بينهم «اللجنة العسكرية» [39]، كان من بين مؤسسيها ثلاثة علويين، هم محمد عمران، وصلاح جديد وحافظ الأسد، وكذلك إسماعيليان اثنان. وانضم ضباط آخرون، من مثل مصطفى طلاس السني إلى تلك اللجنة، فوصل مجموعهم إلى خمسة عشر، حيث سيلعب أغلبهم -من دون أن يعرفوا حينذاك- دورًا مهمًا في تاريخ بلادهم. تميزوا جميعهم بمعارضتهم في الوقت نفسه للمسؤولين في زمن الوحدة، وللآباء المؤسسين للبعث، وللضباط البعثيين الكبار المرتبطين بأكرم الحوراني أيضًا.

في الحالات جميعها، احتل الحزب والتجربة الناصرية الحيز الأساسي من أفكارهم، وكما يفصح أحد المراقبين للمشهد السوري على سبيل الفكاهة، أنه لم يجد أي من الضباط السوريين غير المتزوجين وقتًا ليتزوج امرأة في مصر.

قاد انفصال الوحدة النقيب أسد إلى معرفة السجن للمرة الأولى، حيث تم حبسه لمدة شهرين في معسكر أبو زعبل سيئ الذكر، بالقرب من القاهرة بعد إجراءات انتقامية اتخذتها السلطات المصرية. أطلق سراحه في الأيام الأولى عام 1961 «في حقيقة الأمر 1962 لأن الانفصال وقع في 28 أيلول 1961 وبعد سجنه شهرين يجب أن يكون ذلك مع بداية 1962- المترجم».

عاد إلى سورية وشغل وظيفة ثانوية في قسم صغير في وزارة الاقتصاد، يبدو أن وظيفته الجديدة تركت له هامشًا واسعًا للمتعة، حيث وجد الوقت خلال بضعة أشهر في تحضير انقلاب ضد رئيس الدولة ناظم القدسي، وانتهت المحاولة بسرعة أمام رفض غالبية السوريين رؤية عودة العسكر إلى السلطة. تنازل الأسد بحذر شديد عن

[39] لمزيد من التفصيل فيما يتعلق باللجنة العسكرية، انظر الملحقات.

قيادة العملية إلى أصدقائه، وتمكن من الهرب إلى لبنان، حيث تم توقيفه في بيروت، وتسليمه إلى سورية، وسجن بضعة أشهر في سجن المزة. «في السجن -كما يدون بعذوبة مصطفى طلاس- تمتع حافظ الأسد بمعنويات عالية، وبقناعة أن أفكاره ستنتصر في يوم من الأيام. أخرج من السجن كمدني، وكان واحدًا من الأوائل، الذين تمكنوا من العمل لحساب انطلاق ثورة 8 آذار 1963، مستفيدًا من التجربة المكتسبة عبر الإخفاقات والأزمات القاسية» [40].

مرحلة الانفصال

طوال ثمانية عشر شهرًا بين 28 أيلول 1961 و8 آذار 1963، كانت المرحلة التي عرفت بمرحلة الانفصال، خيمت فيها على البلاد أجواء سياسية من الحريات النسبية، وذكرت هذه الأجواء بمرحلة أواسط الخمسينيات، وبدأ حزب البعث بتحضير نفسه بصورة أساسية للسيطرة على السلطة.

تم انتخاب ناظم القدسي انتخابًا ديمقراطيًّا في كانون الأول 1961، رئيسًا للجمهورية، ومعروف الدواليبي رئيسًا للحكومة، وأسرع أصدقاؤهم القدماء من حزب الشعب لإلغاء قوانين التأميم التي اتخذت في أثناء الوحدة، وإفراغ الإصلاح الزراعي من مضمونه. تشكل هذه التنازلات للبرجوازية الكبيرة ولكبار الاقطاعيين مالكي الأراضي، تشكل في الواقع أول غلطة كبيرة للحكام الجدد. كما يكشف إيتامار رابينوفيتش أن مفهوم الوحدة العربية (المفهوم القومي العربي) ومفهوم الاشتراكية – على الرغم من غموضهما- أصبحا متلازمين لا ينفصلان في اللغة الدارجة هذه الأيام[41].

لا يخفي الضباط التقدميون في الجيش تحفظهم نحو زملائهم «الرجعيين»، لازدياد الغضب الشعبي. في نيسان 1962، عقد مؤتمر عسكري في حمص لدراسة الوضع.

---

[40] Lucien Bitterlin, op. cit. p. 54.

[41] Itamar Rabinovich, op.cit., p. 26 et sqq.

كما سيدونه لاحقًا الجنرال زهر الدين قائد الجيش الذي لاحظ بأنه يوجد في المؤسسة العسكرية تيار «يتضمن وحدات يقودها ضباط ليس لديهم سوى الكراهية والحقد نحو دمشق وسكانها» [42]. وهكذا إذًا نجد في أكثر من أي وقت مضى هذا التعارض المزمن بين المدن والأرياف، فلاحون/بورجوازيون مدينيون. والحالة ليست سوى في بدايتها.

في الوقت الذي تتراكم فيه التغييرات الحكومية، أصبح حزب البعث بمجموعه يستحيل حكمه تقريبًا، حيث تتعايش داخل الحزب، بصورة جيدة أو على الأرجح سيئة، تيارات عدة تتراوح بين الناصريين –الذين سيؤسسون فيما بعد حزب الاشتراكيين الوحدويين– حتى المناهضين للناصرية من مثل أكرم الحوراني، مرورًا «بالمستقلين» و«الماركسيين». هذه المجموعات الأربع توجد في أوساط العسكريين كما في أوساط المدنيين من أعضاء الحزب. يتم حشد الأكثر نشاطًا من بين مناضلي البعث القدامى، المهتمين بإعطاء تشكيلهم نظرية علمية حقيقية، ومن بين قدماء الشيوعيين الذين لم يعد بإمكانهم أن يتحملوا ارتباط الحزب الشيوعي السوري بموسكو. تنتظر المجموعتان كلتاهما؛ الأولى كما الأخيرة، في الحالات جميعها، نهاية الاشتراكية المتورمة قليلًا للآباء المؤسسين.

تمكن ميشيل عفلق المحاصر من الجهات جميعها من إرجاء الحلول، بفضل نجاح الانقلاب الذي حدث في العراق في 8 شباط 1963. ساعد نجاح «الأخوة العراقيين» عفلق الذي أسهم فيه إسهامًا كبيرًا؛ على استعادة المبادرة. هذا النجاح أجبر أعضاء اللجنة العسكرية على إعادة النظر في خطتهم في اللحظة نفسها، وهم يستعدون لأخذ السلطة في سورية.

ومما يبعث على الاستغراب، في الوقت الذي أصبح شائعًا القول أن حزب البعث وصل إلى السلطة في 8 آذار 1963، إلا أن الانقلاب الذي حدث في هذا اليوم هو من فعل ضباط غير بعثيين. في مساء 8 آذار في الوقت الذي يعزز الجيش هيمنته على البلاد، يتحدث النقيب سليم حاطوم -وهو درزي- باسم مجلس قيادة الثورة، ويدعو

[42] عبد الكريم زهر الدين، مذكراتي عن فترة الانفصال في سوريا، (بيروت: 1968)، ص 216 و372.

عبر الراديو الوطني بعض الضباط الذين طردوا من الجيش إلى الالتحاق بصفوف القوات المسلّحة، وكان من بينهم النقيب حافظ الأسد.

وعلى الرغم من كونهم أقلية، يتمتع الضباط البعثيون بتنظيم مميز في إطار مجلس قيادة الثورة، إذ تمكنوا من توسعته، ليضم عشرة أعضاء إضافيين مدنيين، ومن بينهم ثمة خمسة بعثيين. وأصبح لديهم ثمانية أصوات من عشرين، ويستندون إلى بعض «المستقلين»، مما مكنهم من الحصول على رئاسة مجلس قيادة الثورة مع صلاح البيطار. وصل رفيقه القديم ميشيل عفلق إلى قمة المجلس الوطني الجديد. ولكن سيطرت اللجنة العسكرية الشهيرة بصورة خاصة على القطاع العسكري للحزب وحدها، وما زال البعثيون بعد ذلك التاريخ، وبعد مضي ثمانية وعشرين عامًا (في عام 1991) في السلطة.

خلال بضعة أسابيع، قام الضباط البعثيون، الذين أصبحوا السادة الحقيقيين للبلاد، باستبعاد منافسيهم الحقيقيين الوحيدين، أي استبعاد العسكر المخلصين لناصر، وبالتزامن مع ذلك، بدأ صلاح جديد بالصعود، وكلف بقيادة الشؤون العسكرية من خلال تسلمه مديرية شؤون الضباط، وهو منصب استراتيجي جدًّا.

طوال الصيف عام 1963، حدثت القطيعة التامة مع مصر الناصرية، ففي خطابه الذي ألقاه بمناسبة الذكرى السابعة لتأميم قناة السويس، دان ناصر الخصائص غير الدينية والملحدة لنظرية البعث، وذهب أحد أنصاره -الرئيس اليمني السلال- إلى التساؤل علنًا عن الاسم المسيحي -لميشيل عفلق-، مؤسس الحزب. مما دفع الإعلام البعثي للرد بقوة على هذه الهجمات البائسة[43].

---

[43] Itamar Rabinovich, op.cit., p. 72.

لمعرفة إجابات القادة البعثيين للسلال وناصر، انظر نضال البعث الجزء 6 ص 186-194

في الوقت الذي يزداد فيه عدد المنتسبين إلى البعث بسرعة، ويتدنى فيه المستوى الثقافي لهؤلاء[44]، أظهر المؤتمر القومي السادس للبعث تغيرًا أيديولوجيًا مهمًا -نحن في تشرين الأول 1963- لايظهر المفهوم المركزي للوحدة العربية في هذه النظرية إلا بصورة ثانوية، في الوقت الذي تتقدم الأفكار الماركسية اللينينية شيئًا فشيئًا لتخترق مصطلحات الحزب وفكره. كان الهدف العميق هو تحديد المضمون الاجتماعي للوحدة العربية بوصفها حقيقة لا جدل فيها في الأحوال جميعها، وبكلمة أخرى، لن تتحقق الوحدة العربية بصورة جيدة إلا عبر الاشتراكية العلمية. كما طالب الأيديولوجيون الأربعة والأربعون الجدد بتأسيس المزارع الجماعية، وطوال صيف 1963، تم العمل على تأميم مطاحن حلب.

يشهد عفلق والبيطار في حال من الذهول حقيقة إعدام وليدهما، بالنسبة للمنظرين، حيث تأتي الطموحات والأفكار الاشتراكية قبل أي رأي، وأصبح ثقلهم طاغيًا، وتمكنوا من السيطرة التامة على أجهزة الدولة، حتى جاء حافظ الأسد في نهاية عام 1970 ووضع حدًا «لمناوراتهم». ظهر منذ 1963 تياران متمايزان في البعث، لكن بدا ذلك أكثر وضوحًا في عام 1964، الإصلاحيون المناوئون بقوة للشيوعية، ممثلون بالرعيل الأول؛ والآخرون، من أصول ريفية بوجه عام، أكثر تجاوبًا مع الأفكار الاشتراكية، وأقل دافعًا نحو الأيديولوجيات العربية التي يتعلق بها «الكبار». وتجدر الإشارة إلى أن أعضاء اللجنة العسكرية ينتمون إلى التيار الثاني، فمعظمهم من العلويين، ولكن هم أبعد ما يكونون عن تكوين جبهة مشتركة.

[44] بصورة أساسية منيف الرزاز وجورج طرابيشي وياسين حافظ، بدلا من مكافأتهم على جهودهم، تم دفعهم من قبل صلاح جديد إلى المنافي أو السجون.

الهيمنة على السلطة

بعد استبعاد يمين الحزب، سيتخلص حافظ الأسد خلال سنوات عدة من عقائديي اليسار الذين ضاق بهم البعث ذرعًا، فالإصلاح الزراعي، والتأميم، والإجراءات الاجتماعية الأخرى لم تعد تمثل سوى اهتمام محدود. يتجه الأسد بقوة نحو السلطة، ويعمل بوجه خاص على تشكيل (زبائنية)، وشبكة من المخلصين له لتمكينه من المناورة بحنكة وإبعاد منافسيه جميعهم واحدًا تلو الآخر.

بدأ حافظ الأسد منذ عام 1963 ببناء سلطته الشخصية بوقاحة نادرة، بعد ارتداء ملابسه العسكرية بقليل. أمر الشاب الملازم الأول محمد الخولي الذي يعمل معه بوضع القاعدة اللازمة لتأسيس استخبارات القوى الجوية التي سيستخدمها في السبعينيات لإتمام سيطرته على السلطة، وتعزيز موقعه. ونلاحظ شيئًا استثنائيًّا ونادرًا فالأسد هو الرجل الوحيد في سورية الذي طور لنفسه جهازًا أمنيًا سريًا، لا من أجل الدولة. وبعد سنتين من ذلك، بنى أيضًا الميليشيا، التي اشتهرت باسم سرايا الدفاع وأدت إلى شهرة أخيه رفعت بعد عشر سنوات.

على الرغم من ذلك، إذا صدقنا رفيق دربه الدائم ووزير الدفاع الحالي مصطفى طلاس، كان حافظ الأسد يعرف جيدًا في تلك المرحلة أين يضع قدميه: «يقول، في السياسة الخارجية لا يوجد حب أو كراهية للأبد، لكن توجد مصالح ثابتة فقط. استنادًا إلى هذه القاعدة، يتوجب علينا الدفاع عن مصالحنا والتعامل مع البلدان الأجنبية في ضوء دعمهم أو معارضتهم لمصالحنا القومية. يجب أن تكون سياستنا الخارجية في مأمن من الاهتزازات وتقلبات المزاج»[45].

في ذلك الوقت، لم يتجاوز حافظ الأسد الخامسة والثلاثين من العمر، فهم جيدًا أن المستقبل سيكون ليسار الحزب. لا يتردد هذا التكتيكي البارع البعيد قدر ما هو ممكن عن الأيديولوجيا، في التأكيد فيما بعد: «لم يكن ممكنًا المراوغة وقتًا أطول مع هذا الفريق الذي يحمل تناقضات على هذه الدرجة من العمق في ما يتعلق بالنظرية الثورية». في 23 شباط 1966 احتل كل من سليم حاطوم وعزت جديد دمشق،

---

[45] Lucien Bitterlin, op. cit. pp. 64 et 65.

وسيطرا على محاور الطرق التي تقود إلى العاصمة السورية كلها، ودخلا مبنى التلفزيون. كما تم زج أمين الحافظ رئيس الجمهورية في السجن، في الوقت الذي أرغم مؤسس حزب البعث على مغادرة سورية إلى لبنان.

وبخلاف ما تردد، يبقى دور الأسد في هذا اليوم «التاريخي» ثانويًا، على الرغم من أن الرجل الذي سيصبح وزيرًا للدفاع تابع عن كثب هذا الانقلاب، وأسهم في وضع خطته. في تلك المرحلة كان لحافظ الأسد بصورة مؤكدة أهمية خاصة، ولكن الرجل الحقيقي القوي في النظام بلا منازع هو صلاح جديد.

جديد شخصية مثيرة، هذا الضابط العلوي الذي هزم من قبل الأسد في عام 1970، ما زال منذ ذلك الحين يتربع في زنازين منافسه، بعثي مخلص، ومقتنع بأن الاشتراكية هي الطريق الوحيد الذي يقود إلى الوحدة العربية، لم تتناوله الشكوك بالميل إلى الطائفية –أظهر في مناسبات عدة قلقه من ضيق أفق بعض رفاقه، وطائفيتهم أو مناطقيتهم-، أراد جديد بطريقة حادة محضة، وغير واقعية، سعادة الشعب. فهو خير ممثل لهذا الجيل من الضباط بوصفه القادم من الريف أو من الجبال، يحذر من برجوازية المدن، كما يحذر من الطاعون، وبخاصة البرجوازية السنية، ولكن عقيدته المطلقة ورفاقه، أديا إلى نفور الغالبية العظمى من الشعب السوري، الذي يقاوم أشكال التعبئة والتعسف كلها.

تخلى الثوري النقي والمتشدد صلاح جديد في اليوم التالي للانقلاب -السابع عشر منذ الاستقلال- عن وظائفه في إطار الآلة العسكرية جميعها، على الرغم من أهميتها الاستراتيجية، ليصبح الأمين العام المساعد للقيادة القطرية لحزب البعث، لأن منصب الأمين العام في تلك المرحلة يعود لرئيس الدولة. منصب كذلك له أهمية استراتيجية. يمكن تفهم خطوته كبعثي ملتزم، لأنه يعتقد بأولوية الحزب على الجيش، على غرار الماركسيين-اللينينيين الذين أثروا فيه تأثيرًا قويًا. باختياره هذا الحل، وبالتأكيد له رجاله في الجيش أيضًا، فقد جديد سلفًا الشوط مقابل حافظ الأسد الذي لا يرى سوى توازن القوى، وهو يعمل منذ زمن طويل -كما رأينا- على كسب ولاء الضباط أكثر فأكثر، ويمكن للأسد حقًا الاعتماد عليهم وحدهم.

لا يوجد منافس للأسد في سورية في هذه اللعبة الصغيرة، ظهر ذلك بشكل فاقع في أثناء حرب 1967. في الوقت الذي انساق رفاقه معظمهم مع الدعاية المصرية، أو وقعوا بعينين مغمضتين في الفخاخ الكثيرة التي نصبها الإسرائيليون، فهم وزير الدفاع السوري منذ زمن طويل أن الجيوش العربية غير قادرة بعد على إلحاق الهزيمة بالجيش الإسرائيلي. لم يؤثر التنسيق العسكري بين القاهرة ودمشق، الذي بدأ في 4 تشرين الثاني 1966؛ في حسابات الرجل البارد. ومثله السوفيات ليست لديهم وهم، إذ حاولوا بالوسائل كلها إيقاف السير نحو الحرب عند العرب.

عندما طلب عبد الناصر من قوات الأمم المتحدة الانسحاب من سيناء ومن قطاع غزة، ارتكب خطيئة لا تغتفر، على الرغم من أننا نعرف اليوم بأنه لم يكن لديه أي نية بإشعال الحرب، ولكن من الناحية السيكولوجية، كان التأثير مدمرًا في الرأي العام الغربي المقتنع بأنه ليس لدى العرب فكرة أخرى سوى تدمير الدولة اليهودية. حينذاك، كان ديغول الرجل السياسي الوحيد الذي فهم جيدًا حجم المأساة التي يتم التحضير لها، لذلك اقترح على القوى الكبرى الثلاث الأخرى منع الطرفين من الشروع بالحرب. إضافة إلى ذلك، عندما قرر انتقاد من يبدأ المواجهات، لم يرم فقط إلى المحافظة على السلام، ولكن رمى إلى تقديم مخرج مشرف للعرب أيضًا. لم يأبه الإسرائيليون بذلك، فالتقطوا الفرصة لتحقيق أحلامهم التوسعية القديمة.

كان تحليل الأسد متطابقًا تقريبًا، ولكنه ليس لديه السلطة كلها، وغير قادر على معارضة الجموح الجنوني الذي يحرك الجماهير العربية، لقد تخندق خلف قرارات الحكومة وهيئة الأركان، ومارس في الوقت نفسه الضغوط، لتجنب التضحية بالطيران السوري بلا جدوى. يأخذ عليه مناوئوه وأعداؤه -بغير وجه حق- حتى اليوم الهزيمة والتراجع الذي لم يكن من فعله وحده. يمكننا في الواقع التفكير بأن القادة السوريين باختيارهم الحذر أنقذوا الوضع، فمن الواضح في الحالات جميعها أن رحيل حافظ الأسد كان ممكنًا كغيره من المسؤولين السوريين، لو تحولت الهزيمة إلى انهيار كامل.

إلا أن الشعور المخجل بالهزيمة، بالنسبة لهذا الرجل ذي السبعة وثلاثين عاماً، لم يكن ممكنًا نسيانه أبدًا. فخلال بضع سنوات، كان دومًا على مسافة من رفاقه في المغامرة، كان يتحمل، دون اعتراض، الحذلقة السوقية والهذر. في الوقت الذي يتركهم يهذرون، يعمل على تعزيز قوة استخباراته وميليشياته، ويحيط نفسه برجال موضع ثقة، يزدادون شيئًا فشيئًا، ويعرف كيف يمكنه يومًا ما أن يعتمد عليهم. إن خسارة الجولان وهذيان العديد من المسؤولين الذي يعتبرهم خطرين ومغامرين دفعوا البلاد إلى حافة الهاوية. يجب عليه إذًا أن يأخذ على عاتقه حكم البلاد. لم يفعل ذلك عن طريق ديمقراطية الحزب[46]، وأحب التأكيد بعد مرور عشرين سنة، ولكن بطريقة تافهة باستبعاد خصومه السياسيين ليضع أصدقاءه مكانهم.

ويقول من دون موارية رفيقه المخلص مصطفى طلاس الذي أصبح رئيسًا للأركان في شباط عام 1968، كان حافظ الأسد «يدرك عقلية صلاح جديد في القيادة، وبسبب تصرفاته دفع سورية إلى الابتعاد عن حلفائها المصريين الذين بدؤوا يتوجّسون ريبة منا. كذلك الجيش يجب أن يكون مخلصًا لوزير الدفاع. لقد اتخذنا الإجراءات الضرورية بتطبيق المناورات التي تسمى الأرضي شوكي. وننقل كل يوم ضابطًا ولاؤه غير مؤكد. لا يمكن لصلاح جديد أن يتدخل لمصلحتهم في كل يوم. ولكن في يوم ما، تبين له بأنه لم يعد لديه عناصر موالية، فطلب تحكيم المؤتمر القومي»[47]. سابقًا، وقبل أن يكون آخر ضحايا حافظ الأسد، شاهد صلاح جديد استبعاد أصدقائه الدروز والإسماعيليين بأم عينه من دون أن يكون قادرًا على أن يفعل شيئًا. وهكذا اختفت الأقليات السورية التي كانت تحتل مواقع أساسية في الحزب وفي الجيش، لإخلاء المكان للطائفة العلوية وحدها، لتشهد فيما بينها تصفية الحسابات.

على الرغم من ذلك، يمثل جديد وأصدقاؤه في عام 1966 قوة توجّب على الأسد أن يحسب حسابها، فمشروعهم السياسي المستوحى من الماركسية، يعجب فئات واسعة من الطبقة العاملة ومن الجامعيين. وثمة فكرة جديد هي أن استعادة الأراضي المحتلة؛ فلسطين والجولان بعد حرب 1967، وكذلك تحقيق الوحدة العربية غير

---

(46) Ibidem, p.64.

(47) Ibidem, p.65.

ممكن إلا إذا أصبح المجتمع السوري والمجتمعات العربية الأخرى مجتمعات اشتراكية حقًا.

بالنسبة لكثير من العسكريين الذين يتفاهمون جيدًا مع الأسد، أيديولوجيا المجموعة التي تحتل السلطة هي أيديولوجيا دخانية وهمية. يرى الأسد في ضوء رفضه التمييز بين أنظمة رجعية وأنظمة تقدمية؛ أن الدول العربية لن تتغلب على إسرائيل إلا إذا تعاونت في ذلك. وفي هذه المرحلة، يطالب بالتوازن الاستراتيجي مع الدولة اليهودية، فالجيش الشعبي الذي يتوجب عليه دمج الفدائيين الفلسطينيين به يجب ألا يتم عده بمثل ما يفكر جديد، رأس الحربة في الثورة العربية، ولكن يجب ببساطة إلغاؤه. وبديلًا من ذلك، يجب تعزيز الجيش التقليدي، وتوجيهه للتعاون مع الجيوش العربية الأخر.

لم يظهر كل من جديد والأسد ثقة كبيرة بالفلسطينيين، بل أرادا دائما السيطرة عليهم، عن كثب. كان لدى جديد احترام مؤكد للقضية الفلسطينية، وقاده ذلك إلى عدم إدخال أي عسكري سوري على الإطلاق إلى مخيم فلسطيني، بينما لم يكن لدى الأسد هذا النوع من الهواجس.

بعد عودة البعث إلى السلطة في بغداد في تموز 1968، تدهورت العلاقات بين الرجلين. رفض البعثيون السوريين إعادة اللحمة مع الحزب الشقيق. وقاد الأسد - الأقلية- إلى الاستقالة من منصبه في القيادة القطرية. على الرغم من ذلك، فإن المدنيين البعثيين غير قادرين أن يطلبوا منه الاستقالة من منصبه وزيرًا للدفاع في الحكومة. أفاد الأسد بعزلهم تمامًا عن أنصارهم في الجيش، انطلاقًا من مبدأ أن دعم عسكري واحد يساوي ألف مدني، ونقل العسكريين غير الموالين جميعهم، خصوصًا عزت جديد شقيق صلاح وقائد اللواء 70 المهم جدًا على الصعيد الاستراتيجي. تتناقض هذه التنقلات تمامًا مع القواعد المتبعة، فبموجب هذه القواعد فإن القيادة القطرية وحدها المخولة بتقرير ذلك.

في 25 شباط عام 1969، بعد هجوم إسرائيلي على بعض القرى بالقرب من دمشق، احتلت مدرعات الأسد النقاط الاستراتيجية في العاصمة، وسيطر رجاله على إذاعتي دمشق وحلب، وكذلك على صحيفتي البعث والثورة، وأطلق سراح عدد من السجناء

السياسيين، ناصريين، وبعثيين قدماء، وحورانيين. وبالتزامن مع ذلك أحكم سيطرته على المناطق العلوية (اللاذقية) حيث يوجد عدد كبير من أنصاره. ولكن الجنرال لم يذهب حتى النهاية في انقلابه على الرغم من نجاحه، إنما اكتفى بتسجيل نقاط في أثناء المؤتمر القطري الاستثنائي المنعقد في آذار 1969 الذي أرضاه في كثير من النقاط.

توقف الهجوم على الأنظمة العربية، ثم بدأ التعاون مع بعض القوى التقدمية في سورية، وشرع بالإعداد لسلطات تشريعية موقتة، وتشكيل حكومة جديدة موسعة تضم بعض الأحزاب اليسارية. وأخيرًا، جهد الأسد في طمأنة البورجوازية الدمشقية والتجار السنيين المعجبين أكثر فأكثر بالأيديولوجيا الإسلامية.

الحرب الأهلية في الأردن وموت عبد الناصر في أيلول 1970 وضع، مع ذلك، نهاية لهذه الازدواجية في السلطة. ساند الأسد مساندة شكلية قرار السلطات السورية بمساعدة الفدائيين الذين يتعرضون للطرد من قبل الملك حسين. ودفعه التهديد بتدخل الولايات المتحدة وإسرائيل إلى سحب المدرعات السورية من الأردن. ووجد نفسه معزولًا في الحزب. واتهم بأنّه تبنّى «خطًا رجعيًا انهزاميًا»، وطرد من الحزب في 12 تشرين الثاني 1970 بقرار من القيادة القومية للبعث للأسباب الثلاثة الآتية التي تنطبق على صديقه مصطفى طلاس:

- التخلي عن الأهداف الأساسية للحزب
- التمرد ضد الحزب، وضد قرارات مؤتمراته وناهض التوجهات التي اعتمدها الحزب
- أخطأ بكامل إرادته بحق الحزب، وبمعنوياته وبشرعيته [48].

[48] وثائق عربية، بيروت، 1970. ذكرت في الصحيفة اللبنانية الراية في 1970/11/17.

رد الأسد مباشرة باحتلال مكاتب الحزب بقواته العسكرية، اعتقل في وقت سابق الضباط الذين ما يزالون مناهضين له جميعهم[49]. وسجن كثير من المدنيين أيضًا. ثم تحدث، بعد بضعة أيام، عن موقفه، باقتضاب، ينكر الأسد تعبير «انقلاب» ويتحدث عن تطور عادي في إطار الحزب» [50].

حالما وصل إلى السلطة، تلقى مساندة تامة من اتحاد الجمهوريات العربية حديث العهد الذي يجمع مصر وليبيا والسودان. وتنفس الشعب السوري الصعداء بعد أن تخلص من منظريه، ولكن ليس لوقت طويل.

[49] الأسد في الواقع لا ينسى شيئا. فهو مقتنع من خلال التجربة بأن الذي ينجح في البقاء من بين كل مناوئيه ينتهي بالضرورة بأن يكون معه الحق! نجده هنا يستخدم الوقت بعناية....

[50] مقابلة مع التلفزيون الفرنسي، وردت في جريدة الثورة السورية، في 1970/11/27. فعلى سؤال: «يتحدث الإعلام الدولي عن انقلاب حدث للتو في سورية، ما هو رأيكم؟» يجيب الأسد: «لا نستطيع أن نوافق ما تؤكده وسائل الاعلام الدولية، ما حدث في سورية هو تغيير طبيعي في حزبنا، وهذا يمكن أن يحدث في أي حزب أو حركة ثورية في العالم. وبإمكانكم التأكد بأنه لا يوجد أي إشارة للانقلاب، فلا نسمع ولا تسمعون إطلاق نار، ولا يوجد تحركات عسكرية ولا جنود خارج ثكناتهم.

ثالثًا: الشخصية المشروع والانحراف

عقلية تآمرية

آن الأوان إذًا لتكوين صورة متكاملة لهذا الشخص وتحليل مشروعه. الرجل الذي استولى على السلطة فعليًا في سورية منذ شباط 1966، واستبعد نهائيًا منافسيه الأساسيين في تشرين الثاني 1970 وأصبح رسميًا رأس الدولة في آذار 1971؛ بلغ الأربعين من العمر. إذا كان كثير من الحكام في العالم العربي من مثل القذافي أو الملك حسين في الأردن وحسن الثاني في المغرب، وصلوا إلى قمة السلطة قبل هذا العمر، ففي سورية لم يحدث إطلاقًا انتخاب رئيس للجمهورية في هذا السن المبكر؛ إنها امتيازات العسكر كما يقال.

طويل القامة [1]، وقوي البنية، ومع ذلك ليس لديه وقار فارعي الطول من ملوك السعودية، ولا هيبة الملك الهاشمي الذي يبحث عن تعويض قصر قامته بصلابة بريطانيّة. رأسه يبعث على الدهشة، إذ يمكن أن يمر الرجل دون أن نعيره النظر. ولكن هذه السحنة، التي ليس فيها كثير من الملامح المتوسطية (البحر الأبيض المتوسط)، لديها ما يثير إعجاب أولئك المولعين بالسيكومورفولوجيا (الربط بين الملامح الجسدية والحالة النفسية). في وجهه المربع ما يثير الانتباه؛ الجبهة المرتفعة بشكل غير عادي، والفك القوي أشبه بنظيره عند الأنواع الضارية. الفم عريض ورقيق والأنف طويل ومعقوف. وبخلاف العرب معظمهم؛ العينان صغيرتان إلا أن النظر نظر حاد، وهو نموذج للانطوائي، لكنه نشط وثاقب. من هذه الملامح المفصلة يمكن أن نرى، استنادًا إلى وصف طبيب سوري لاحظ الأسد كثيرًا «طاقة غير عادية، دافع للهيمنة، وحاجة إلى السيطرة، وطموحات غير محدودة، وذوق غير معتدل للسلطة». في ذلك، بمثل ما يلح بصورة ملائمة عالم الاجتماع السوري رشيد الحجار، «إذا جزمنا بأنه يجب التمتع في العالم العربي بعقلية تآمرية من أجل الوصول إلى السلطة

[1] يبلغ طوله 1.84 م استنادًا إلى لوسيان بترلان.

والبقاء فيها، فالأسد مبدع بامتياز، ويعرف كيف يعد انقلابًا، ويتقن ما هو أفضل من ذلك؛ كيف يفشل الانقلابات» [2].

تكون السلطة طبيعية ولكنها تتحول -غالبًا- إلى دكتاتورية أو إلى طغيان. ولعل الشهادات كلها تتفق على مزية مهمة في الرجل، وهي امتلاكه قدرة كبيرة على ضبط النفس، مما لا يستبعد حدوث هيجان نادر ولكنه عنيف. في تشرين ثاني 1970، غضب بسبب ما قاله أحد المسؤولين البعثيين -مالك الأمين- الذي عارض وجهة نظره، فلم يتردد بصفعه.

بعد انقلاب الثامن من آذار 1963، كان في محادثة مع بعض الكتاب الذين ذكروه بلقب جده «الوحش»، أكد: «اقترب الوقت الذي بن يجرؤ فيه أحد على تسميتي حافظ الوحش، إذا لم أحكم هذا البلد، حينئذ، سأستحق هذا الاسم»[3].

على الرغم من أن الطموحات تلتهمه، لا يترك هذا الرجل السري الأمور كذلك إلا نادرًا. هو متبلد العاطفة، أحقاده شهيرة وعصية، وثمة مأساة بحق كل من يخالفه الرأي أو يحاول عرقلة مسيره. وربما كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، المحبب والمحنك، هو أكثر من يكرهه حافظ الأسد. منذ بداية الثمانينيات، تدهورت علاقاتهما، ولم يتمكن أحد من مصالحتهما حتى نهاية 1990؛ لا الليبيون ولا الجزائريون، على الرغم من مهارتهم في هذا المضمار، إضافة إلى فشل ندرة من الفلسطينيين الذيني حافظوا على صداقة مع دمشق. تعد حالة عرفات أنموذجًا يبين أن الكراهية خطأ سياسي فادح؛ أسد بموقفه هذا، أسهم بقوة في التفاف الفلسطينيين حول زعيمهم ياسر عرفات.

من كانت لديه الجرأة للوقوف في وجهه؟ دفع رجال آخرون حياتهم نتيجة لهذه المخاطرة وعدم الحذر، من مثل كمال جنبلاط الذي قتل في آذار 1977 على طريق خالية في موطن ولادته في الشوف. هاجم جنبلاط عام 1976 النظام السوري بقوة، بسبب دعمه الرئيس فرنجية والمليشيات المسيحية. وفي 1980، قتل صلاح الدين

---

[2] محادثة مع المؤلف.

[3] قصة أفضى بها ابن أحد هؤلاء الكتاب.

البيطار في باريس من قبل عملاء سريين سوريين. وسواء أخطأ أم أصاب، يبدو أن الأسد خشي أن يصبح الرجل العجوز منافسًا له.

بعد هذه الأمثلة، قد يكون من غير اللائق التأكيد على «وداعة» الجنرال أسد نحو رفاقه القدامى في الحزب. على الرغم من أنه يمكن أن يكون عديم الرحمة مع معارضيه، أظهر الأسد دائمًا كراهية كبيرة لتصفية رفاقه من البعثيين القدامى. مضى على سجن صلاح جديد 20 سنة حتى نهاية 1990، ولكنه على قيد الحياة. وثمة مئات آخرون أقل شهرة بكثير، أمضوا في السجن سنوات عدة، من دون أي محاكمة غالبًا، ولكن انتهوا بالخروج من السجن. بالمقابل، عندما يتعلق الأمر بسلطته، أو عندما تكون أسس الدولة التي ينتمي إليها مهددة، فهو أسد لا يقبل المساومة[4].

اقنع قبل أن تردع

يختلف حافظ الأسد عن خلاف صدام حسين الذي لا يتردد بالقيام بتصفيات كبرى ليتشبث بالسلطة في مواجهة خطر حقيقي أو افتراضي[5]، يفضل الوصول إلى أغراضه بنعومة. ويذكر كريم بقرادوني في كتابه «السلام الضائع»، أن الأسد يفضل «استخدام الإقناع قبل اللجوء إلى الإكراه»[6]. يمكن أن نجد في ذلك بعض التقاليد

---

[4] مثال آخر ساطع ألا وهو محمد عمران، هو ضابط علوي أيضًا وعضو في اللجنة العسكرية الشهيرة. تم قتل عمران في طرابلس بلبنان عام 1972، لأنه إذا بقي طليقًا، يشكل منافسًا خطرًا للأسد.

[5] يجب في يوم من الأيام كتابة تاريخ العلاقات السورية – العراقية التي تتداخل بقوة مع مسار الأسد وصدام حسين حتى عام 1991على الأقل؛ «يبقى من المهم التأكيد على التشابه الكبير المدهش بين خصائص الشخصين الاثنين. كلاهما يعكس بوضوح مستوى التطور الاجتماعي في البلدين، والمواجهة الاجتماعية التي تحدث بين الريف والمدن الأساسية في البلاد، وبتعبير أكثر دقة بين الريفيين المهمشين والقوى المدينية جزئيًّا من جهة، والمجموعات المدينية صاحبة الامتيازات من جهة أخرى، هذا ما ذكره حنا بطاطو في:

Journal, été, 1981, p. 332 et sqq. Meddle East

[6] Bakradouni (Karim), La Paix manquée, Beyrouth, Editions FMA (Fiches du monde arabe), 1983, p. 72.

السورية فهي أقل عنفًا مما هو عليه الحال في العراق، وأيضًا حول هذه النقطة، حققت سورية تقدمًا محزنًا منذ حوالى عشرين سنة، ولكن أيضًا «ماركة» الرئيس. يمكن لأي مناهض اليوم أن يصبح حليفًا ثمينًا فيما بعد، لمَ تصفيته إذًا؟ حتى بعض الإخوان المسلمين المعروفين انتهوا بالحصول على عفو في نظر رئيس الدولة.

من غير المحتمل استمرار حافظ الأسد في السلطة منذ زمن بعيد لو لم يبذل في خدمة طموحاته عملًا جبارًا. إن شهادة كبار الموظفين السوريين الذين خدموا حتى عام 1970 الرئيس نور الدين الأتاسي ثم حافظ الأسد منذ 1971؛ شهادة معبرة: «منذ سنوات عدة، ساعات عملي كانت كتلك الساعات التي يقوم بها موظف صغير، وفجأة، يحكي أحد هؤلاء، توجب عليّ اتباع توقيت الرئيس الجديد. يحدث بشكل متكرر أن تصل ساعات عملي إلى 16 ساعة في اليوم وكثيرًا ما تنتهي في الواحدة أو الثانية صباحًا»[7] وبخلاف الأتاسي، يجمع أسد بين وظيفتي رئيس الدولة والأمين العام للحزب، ولديه قدرة مهولة على العمل، قدرة مكنته في أثناء اليوم الواحد من استيعاب الملفات السياسية المعقدة، والإصغاء طوال ساعات لآراء المواطنين –بسطاء أو غير بسطاء– وشكاوى من يستقبلهم بمودة في لقاءات مخصصة لذلك [8].

سبق الحديث عن انبهار كيسينجر بحافظ الأسد. وأناس مختلفون جدًا مثل ريتشارد نيكسون أو سفراء فرنسيون سابقون في دمشق مثل فرناند رويون [9] أو هنري سيرفان لم يخفوا بعض الإعجاب به. إلا أنه من المهم التخفيف من هذا الحماس والإعجاب عندما نعود إلى شهادات أشخاص قابلوه في ظروف صعبة، وظلوا مجهولين لم يفصحوا عن هوياتهم.

في الكتاب الأخير لكريم بقرادوني الذي نشر في عام 1991، يوضح توضيحا مهما عن دور الولايات المتحدة في «الدعم المطلق لإسرائيل وعدم اكتراثها بمصير لبنان»، ويوضح دعم واشنطن لموقف سورية على حساب لبنان. كما يؤكد أيضًا على معاندة أمين الجميل وأخطاءه الكثيرة.

[7] محادثة مع المؤلف حيث أراد هذا الموظف أن يبقى مجهولًا.

[8] الأسد استنادًا لمن يعرفه، يعشق الدخول في التفاصيل، وهو يعشق بوجه خاص كل ما يشير إلى الصراعات العشائرية في جبال لبنان وسورية، ويظهر فضولًا وتعطشًا لذلك لا يرتوي.

[9] سفير فرنسا في دمشق في نهاية السبعينيات. أطلق عليه معاونوه والجالية الفرنسية الصغيرة في دمشق اسم «السفير البعثي» نتيجة إعجابه بالرئيس السوري.

جاءت زوجة أحد السجناء السياسيين تطلب من حافظ الأسد تخفيض العقوبة غير العادلة التي صدرت بحق زوجها -استنادًا إليها- ذهلت عندما سمعته يشير إلى أدق التفاصيل المتعلقة بحياتها الخاصة: الحالة الاجتماعية لأطفالها، الصعوبات المالية، آخر تاريخ زيارة للمعتقل وغير ذلك. كان الرئيس على علم بكل شيء. لم يكن ليتراجع بتأكيده أن زوجها «العنيد كما كان دائمًا» سيمضي عقوبته حتى آخر يوم.

الرئيس السوري وريث جيد للتقاليد العربية، على الرغم من ضيق الوقت الذي يمكن أن نتخيله، يجد دائمًا الوقت لاستقبال بسطاء الناس، وهم في الأحيان معظمها من العلويين، لأنهم يعرفونه جيدًا، وخشيتهم من المجيء لرؤيته أقل[10]. يحكي أحد وجهاء العلويين ضاحكًا أن رئيس أول حكومة للأسد، الجنرال عبد الرحمن خليفاوي، كان يتوجب عليه الانتظار 6 أشهر قبل أن يتمكن من لقاء الرئيس وجهًا لوجه، في الوقت الذي يتمكن عشرات القرويين من العلويين من الحصول على مقابلات بعد بضع أيام أو أسابيع.

هذا الميل البارز للاهتمام بأدق التفاصيل، يمكن تأكيده من خلال المحادثات الأولى مع الشخصيات التي تمر عبر دمشق. لا يترك شيئًا من دون اهتمام، من طريقة الإدارة الذاتية في تشيكوسلوفاكيا، إلى قانون من التشريع الأميركي مرورًا بالمواجهة القبلية في الجبال اللبنانية المارونية إلى التعايش في فرنسا (بين حكومة يمينية ورئيس يساري). فهو يقرأ بانتظام مقالات في الهيرالد تريبيون مترجمة ومحضرة من قبل موظفيه في قسم الإعلام.

يمكن أن نذهب إلى الظن عند الإصغاء إليه، بأنه قرأ كل شيء، وتعلم كل شيء، ويأمل دائمًا بتعميق معارفه. الحقيقة مختلفة قليلًا ن فمثله مثل كثيرين من الزعماء العرب أسد لديه ثقافة شفوية، لا يجيد اللغات الأجنبية، أو يتحدثها بمستوى رديء، هو ليس له علم بالكتب المهمة التي تصدر في العالم الغربي بالإنجليزية أو بالفرنسية –ولا المذكرات بصورة أساسية- أو تلك التي تنجح نجاحًا كبيرًا من أمهات الكتب

[10] الأعداء المناوئون للأسد ينظرون إلى ذلك بوصفه مؤشرًا «لعقليته الطائفية». لكن الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك، فهذا يحدث في أرقى المجتمعات، والشيء نفسه ينطبق على الأسد، فهو أكثر انفتاحًا على استقبال الناس من أبناء طائفته لأنه يعرفهم. فهو كما اتضح في مناسبات عدة لا يمكن أن نتحدث عن «عقليته الطائفية».

من خلال عدد النسخ الموجودة في المكتبات، فهو ليس على اطلاع إلا بقدر ما يقدمه بعض الأشخاص الأكثر ثقافة من المحيطين به، من ملخصات لهذه الكتب. رجل الأعمال عمران أدهم، الذي يعرفه جيدًا وكان لمدة طويلة وسيطًا بين سورية والمجموعة الأوروبية، يلح على الأهمية التي يعطيها الأسد لمذكرات الجنرال ديغول، ولا يوجد في ذلك أي شيء استثنائي أو أصيل.

في الواقع، خارج ذوقه من أجل الحياة العائلية –عندما يتوفر لديه الوقت– لا نعرف أي هواية له سوى الصيد.

رجل غامض

يظهر غموض الرجل بمناسبة بناء القصر الرئاسي على جبل قاسيون المطل على دمشق. عند البداية، تم تقدير كلفة أعمال البناء بـ 800 مليون ليرة سورية (ما يعادل 800 مليون فرنك فرنسي)، وصلت كلفة أعمال بناء هذا القصر إلى أكثر من 23 مليار ليرة سورية. زوّد القصر بتجهيزات أمنية استقدمت من الولايات المتحدة، يبلغ سعرها أكثر من 155 مليون دولار. حيث تضمن أنفاقًا وملاجئ ضد الأسلحة الذرية. وتم استيراد الرمال من اليابان لإحدى واجهات القصر. أمر الرئيس باقتلاع 15000 شجرة مثمرة، تم غرسها في البداية لتستبدل بأنواع نادرة: «اغرسوا لي أشجار من اليابان، فهذا قصر وليس مزرعة»، هذا ما قرره الرئيس. ومن المعروف، أن حافظ الأسد يعيش حياة بسيطة، بخلاف أخوته الذين يحبون متع الحياة. ربما تكمن الإجابة في تفسير هذا السلوك باعتقاده السري إلى حد ما الذي يتمثله في الدولة، فهو الدولة ولا شيء آخر يمكن أن يكون جذابًا بالنسبة إليه.

إذا اشتهر بعض رؤساء الدول العربية بميل نحو الثقافة، مثل اللبناني شارل حلو، أو اشتهروا بمعرفتهم للثقافة العربية، مثل الملك الحسن الثاني، لا يبدو أن الأسد يمتلك تفضيلًا للشعر أو للموسيقى العربية. «كلمات الأسد»، بعض الأجزاء المختارة منذ 1970، ومنتقاة بحب وإجلال من قبل وزير دفاعه مصطفى طلاس، وهي تجميع لصيغ فارغة ونموذج للغة متخشبة، يرددها باستمرار القادة الأساسيون في النظام. كيف يمكن أن يحكم عليها: «الحرية هي قلب الحياة وجوهرها، فإذا توقف القلب

توقفت معه الحياة. لهذا السبب يجب أن يحاط القلب بكل العناية الممكنة لكي يبقى قويًا نشطًا يبعث الحرارة والحركة في حياة الناس جيلًا بعد جيل» [11].

فيما يتصل بالشباب: «أنتم الشباب، أنتم الجمال ووردة الحياة في هذا البلد، أنتم العطاء وأنتم الحياة، بكم يبدأ، ويكبر ويتحقق الأمل» [12].

أما فيما يتعلق بالمرأة: «المرأة كائن إنساني كالرجل؛ يشاركان معًا في بناء الوطن، والأسرة والمستقبل. (....) فأنا أوافق تمامًا على الفكرة القائلة بأن المرأة يجب أن تتأهب بسرعة لاحتلال المكانة المناسبة التي تستحقها، على غرار أخيها، أو والدها أو زوجها، في بناء الحاضر والمستقبل» [13].

لا توجد ذرة من الأصالة أو الجدة في المئتي صفحة التي تشكل هذا الكتاب على الرغم من انتقائها بعناية.

ربما توجب على حافظ الأسد الحذر من أصدقائه. هنري كيسينجر الذي أمضى ساعات طويلة أكثر من أي مسؤول غربي، كان محقًا في حديثه عن «الفكاهة المؤذية» أو «التهكمية» للرئيس السوري [14]. في ربيع 1974، في الوقت الذي يقوم وزير الخارجية الأميركي بالرحلات المكوكية بين القدس ودمشق، أندريه كروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ينتظر طويلًا، بلا جدوى، منذ ساعات عدة في السفارة السوفياتية، أن يستقبله الرئيس السوري المنشغل في محادثاته مع «العزيز هنري». كشف هذا الأخير بمكر وخداع الموقف غير المريح لكروميكو، أجاب الأسد بفظاظة: «ليس للأمر أهمية تذكر، ستأكلون عشاءه» [15].

في أثناء لحظات من الانفراج، يقص كيسينجر قصة عن الأسد بأن كروميكو حدثه عن عصفور سيبيري يمكن جذبه بتقليد غناء الحب لديه. ثم يسأل الرئيس السوري

---

[11] حافظ الأسد، هكذا قال الأسد، مرجع سابق، ص. 78

[12] المرجع السابق، ص. 319.

[13] المرجع السابق، ص. 371.

[14] Henry Kissinger, op. cit., pp. 960 et 325.

[15] Ibidem, p. 1131. بالمناسبة أثنى كيسنجر في مناسبات عدة على كرم الضيافة عند مضيفيه السوريين. وهو يأسف لأن «العشاء الخفيف» غير قابل للترجمة إلى العربية.

ساخرًا فيما إذا سبق أن سمع هذا الغناء: «لا يغني كروميكو إلا بحضوركم» أجابه سريعًا بالمثل حافظ الأسد [16]. هكذا قامت بين الرجلين علاقة تواطؤ مدهشة.

«عسكري يحبون الروس بقدر محبتكم لهم تقريبًا، هذا ما باح به الأسد لكيسنجر. فهم-الروس - واقعيون. هنا الأيديولوجيون هم أنفسهم السياسيون، فوزير الخارجية هو الذي يجب أن يخيفكم» [17].

في سورية يبدو لافتًا للنظر بالنسبة لنظام فظ، أن هامشًا من الحرية سمح به للتليفزيون، خصوصًا بالنسبة للمسلسلات الهزلية لدريد اللحام، بذكاء مميز لا يشك به ألد أعداء السلطة السورية، وقد دان لحام بشدة خلال سنوات كل انحرافات النظام: اللغة الخشبية، والبيروقراطية وغيرهما. عندما قدم الحوار بين الأب وابنه، يسخر بوضوح من شعارات البعث الثلاثة: «الوحدة العربية، والاشتراكية، والحرية.» وتخيل الحال المأسوية لمواطن عربي يجد نفسه عالقًا على الحدود الأردنية السورية بعد أن فقد أوراقه وكل ما يشير إلى هويته. يتفاقم وضعه بقدر ما تشتد المطالبة بالوحدة العربية. إلا أن الشجرة لا يمكن أن تغطي الغابة، فلن تقودنا بعض وسائل تنفيس الاحتقان التي سمح بها النظام إلى كثير من الأوهام.

---

[16] Ibidem, p. 1150.

[17] Ibidem, p. 1312.

مفاوض بارع يحسب حسابه

لم تكن السنوات الثلاث الأولى من رئاسته هادئة، خصوصًا في المستوى السياسي، حيث توجب عليه التخلص من منافسيه المحتملين، ومن معارضة لم تفقد أدواتها جميعها بعد، لم يتخذ إجراءات تتعلق باستخدام وسائله كلها إلا بعد حرب تشرين عام 1973. قاتل الجيش السوري بصورة أكثر من مشرفة، إذ اقتربت إسرائيل كثيرًا من الكارثة لأول مرة منذ وجودها. لولا الجسر الجوي الأميركي، وتهور آرييل شارون الذي كان مكلفًا هذه المرة، ولولا بعض الأخطاء الفاحشة للأركان المصرية والسورية، لتوجب على الدولة اليهودية دفع فاتورة مرتفعة أكثر بكثير.

ولكن إذا كانت النتيجة ثقيلة بالنسبة لاسرائيل في الخسائر من الرجال ومن العتاد –أكثر من 2500 قتيل، وفقد السيطرة على قناة السويس– إلا أن ذلك أقل تألقًا بالنسبة لسورية التي، بعد تقدم كاسح في هضبة الجولان، اضطرت للانسحاب أمام العدو من أراض جديدة. في التزامه بمحادثات مع هنري كيسينجر، لعب حافظ الأسد لعبة كبرى. في الصالون الذي يستقبل فيه وزير الخارجية توجد لوحة تحتل مكانًا بارزًا حيث نشاهد عليها الجيوش العربية وهي تحرر آخر معاقل الصليبيين. بالنسبة للأسد، كما بالنسبة لغالبية السوريين، ليس هناك من أدنى شك بأن إسرائيل ستعرف يومًا ما المصير نفسه.

يلجأ الرئيس السوري بانتظار ذلك، ولعدم توفر وسائل الضغط لتوظيفها، إلى الخداع. وقال إذا أرادت الولايات المتحدة إيجاد دور أساسي في المنطقة وتحديد الوجود السوفياتي، يتوجب عليها إعطاء ضمانات جدية للأطراف العربية. ولتوضيح كل شيء يعلن مباشرة لكيسينجر: «ليس من الضروري بالنسبة إلينا الحصول على حقوقنا الكاملة اليوم؛ فسنتمكن من الحصول عليها غدًا، ولكن إذا نتج عن هذه الحرب أن ما نطلبه من إسرائيل هو مستحيل، إلا أنه يوجد فرق بين السلام والاستسلام» [18].

[18] Ibidem, p. 1167.

لكن كيسينجر لم يظهر أي استجابة مقابل هذا الخطاب المتشدد في الظاهر. وأدرك بسرعة نقاط ضعف سورية ورئيسها. فهي من ثلاثة مستويات؛ أولًا، في حدودها الحالية، «لا تمتلك البلاد، تقاليد طويلة في الاستقلالية الحكومية كتلك التي تعطي مصر سياقها التاريخي». «أنتم السوريون أقرب إلى فلسطين؛ فحالتكم أكثر تعقيدًا؛ فأنتم لا تتفاوضون على صحراء لأن الأمر يتعلق بأراض أصغر. أنتم تواجهون خطرًا في هذا الجانب، لديكم جيران أكثر من مصر» هذا ما أكده بهدوء لمضيفه رئيس الدبلوماسية الأميركية [19].

اقتنع هنري كيسينجر فيما بعد أن سورية لم تكن قوية بما فيه الكفاية لتوحيد الوطن العربي الذي تحتاجه على كل حال لاستعادة أراضيها المحتلة بالكامل أو بعضًا منها قبل متابعة طموحات أوسع من ذلك.

وأخيرًا، يعرف وزير الخارجية الواقعي أنه لا يمكن لسورية أن تعود إلى حياة طبيعية بما أن القوات الإسرائيلية تخيم على أبواب دمشق. فكتب أيضًا: «وجد أسد نفسه مضطرًا رغمًا عنه إلى التفاوض على فصل القوات الموجودة أمامه» [20].

كان كيسينجر محقًا بمداراة هذا الشريك الاستثنائي الذي لم يتردد بمقارنته بِـ لي دوغ تو (المفاوض الفيتنامي)، وشعر بتحفظات الأسد نحو الاتحاد السوفياتي إضافة إلى عودة الدبلوماسية الأميركية بقوة إلى الشرق الأوسط. وبخلاف عدد من مواطنيه (الأميركيين)، يرى أن رئيس الدولة السوري ليس دمية تتحرك في فلك الكرملن فلا شيء من هذا القبيل [21]. وقدر أيضًا تقديرًا كبيرًا عدائيته لمنظمة التحرير الفلسطينية ومنظمة ياسر عرفات (فتح)، وهي أهم المنظمات الفلسطينية. ألم يؤكد له الأسد أن الصاعقة –حركة فلسطينية مرتبطة عضويًا بسورية– بمستوى فتح نفسه من الأهمية، وهي «أفضل تدريبًا»؟ إضافة إلى ذلك، كتب: «في عام 1974، لم تتقدم سورية بأي مقترحات لمشروع يفيد القضية الفلسطينية» [22].

---

[19] Ibidem, p. 1163.

[20] Ibidem, p. 1369.

[21] Ibidem, p. 1374.

[22] Ibidem, p. 960.

وأخيرًا لقد فهم كيسينجر من خلال مؤشرات عدة، وبوجه خاص، بعد تعرضه شخصيًا لمحاولة اغتيال فاشلة في أثناء قيامه بزيارة للجامع الأموي، فهم جوانب الضعف على الصعيد الداخلي في موقف الأسد، كان كيسينجر مستعدًا ليسهل له المهمة. مما استوجب إمضاء ستة أشهر من المناقشات التي لا نهاية لها، والسهرات المنهكة، كي يتمكن الرجلان من التفاهم، «سيبوح في قادم الأيام كيسينجر لأسد متألق، أنتم المفاوض الوحيد الذي قفز على عجل مع الأمل أن تتعلق على شجرة حيث تعرفون وجودها لتمنعكم من السقوط» [23].

«كما كتب كذلك في مذكراته، أن طريقته في التفاوض لا تختلف كثيرًا عن طريقة الإسرائيليين، يبدأ بتصريحات مشتقة من المواقف الأكثر تطرفًا ليرى ما يمكن أن نسمح به. (...) في الوضع السوري، هو معتدل يتمتع بذكاء من مستوى متميز. (....) كان يلزمه، على الرغم من الأشياء كلها، أن يتجاوز كراهية موروثة نحو إسرائيل تضرب جذورها في البلاد بعمق» [24].

يجب ألا نعطي ملاحظات الإعجاب لكيسينجر نحو الأسد من الأهمية أكثر مما تستحق بالتأكيد، إن سياسة «الخطوة خطوة»، العزيزة على وزير الخارجية المشهور، من المحتمل أنها مكنت من تنشيط السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، لم تؤد إلى تقدم السلام بالمستوى. على العكس من ذلك، إن استبعاد الاتحاد السوفياتي من اللعبة، وتحريض مصر على المضي قدمًا لوحدها، وتجاهل منظمة التحرير الفلسطينية، مكن هنري كيسينجر من أن يسهم بقوة في إشاعة الاضطراب وعدم الاستقرار في منطقة حساسة.

إن وزير الخارجية لم يعرف حدود الرئيس السوري، فهو يأسف لضعف بصيرة حافظ الأسد -من الممكن لأنه لم يرد أو لم يتمكن من أن يقوم بدور السادات في سورية- قام كيسينجر بتحليل محادثاته بعد مضي سنوات مع السوري رقم واحد، فكتب: «أشك بما إذا كانت لديه أقل فكرة عن ماذا سيفعل بعد انتهاء الفصل بين

---

[23] Ibidem, p. 959.

[24] Ibidem, p. 960.

القوات» [25]. نشعر باستمرار عودة كيسينجر إلى نوع من الأسف أن الأسد ليست لديه الوسائل لتحقيق طموحاته. هل يتوجب أن تكون مقتنعًا بطموحات حافظ الأسد؟

طبيعة النظام

النظام السوري هو قبل كل شيء نظام دكتاتوري. بتعبير آخر، لا يمكننا فهم طبيعة عمله من دون الأخذ في الحسبان شخصية من يوجهه، حافظ الأسد. مثله مثل كثير من الرجال السلطويين أو الطغاة، على الرغم من ذوقه البسيط الذي يمكن أن يحمل على الاعتقاد بأنه يأنف الدعاية، إلا أن لديه سمعة رهيبة في الرعب. فرض الأسد وضع صورته في كل مكان. عندما عاد الجيش السوري إلى بيروت عام 1987، بعد أن ألغى أي أثر لمنافسين محتملين، بما فيهم الإمام خميني، ألصق في أنحاء المدينة جميعها مئات الصور لقائده الرئيس. صور ناجحة كثيرًا أو قليلًا تقنيًّا. ولوحات لصورته بألوان فاقعة من صنع فنانين من البعثيين الجدد، تلك المنافسة كلها لتذكير الشعب اللامبالي أو الممتعض أنه لا يوجد إلا سيد واحد إلى الأبد.

في سورية نفسها، تأخذ المطرقة بعدًا آخر. الرئيس حاضر بصورة دائمة في شاشات التلفزيون، حيث يتم إبراز نشاطاته، وإعداد التقارير المطولة والمفصلة عنها حتى تلك التي لا قيمة لها، وفي صفحات الصحف الرسمية –لا توجد صحف أخرى– حتى كلماته العادية التي لا قيمة لها، تحتل يوميًا العناوين. توجد أيضًا مكتبة الأسد في دمشق في ساحة الأمويين، وبحيرة الأسد التي يشكلها سد الثورة، وساحات الأسد بالمئات، وشوارع الأسد بالآلاف، وملايين الطوابع التي تحمل صورته. ونقشت صوره على قطع النقود أيضًا، مما أثار فضيحة صارخة، لأنه لا توجد تقاليد سورية أو تقاليد عربية تبرر ذلك. سحبت من التداول ذات مرة قطعة من ذات الليرة السورية الواحدة، نظرًا لردود الفعل السلبية لبعض مناضلي البعث، وثمة قطعة احتفظ بها بعض المعارضين «دليلًا للأجيال القادمة».

---

[25] Ibidem, p. 959.

هذه العبادة للشخص لا مثيل لها في العالم العربي سوى تلك التي فرضها صدام حسين على 17 مليون عراقي (على الأقل عند كتابة هذه السطور)، لا يمكن تفسيرها فقط بالأنا المتضخمة للشخص، شخص متأكد من شرعية حقه، ووقع في فخ هذه التأكيدات، ولكن تفسر أيضًا بنوع من عدم القدرة على إدارة علاقته بالرأي العام العالمي أو المحلي. حافظ الأسد ذو طبيعة انطوائية، لكن ليس لديه فظاعة القاع والوحشية الفجة لنظيره العراقي القابل لأشكال الانحطاط والبربرية كلها، ليحاول إرضاء مختلف مستمعيه. بخلاف عرفات –أو السادات في زمنه– الذي فهم جيدًا قدرة الإعلام الأميركي الذي غازله بعناية، انغلق الأسد على نفسه، تاركًا إعلامه يهاجم بقوة «الإمبريالية الأميركية» إلى درجة حصول توتر في العلاقات الثنائية، ولم يحدث أي انفراج في هذه العلاقات الّا في نهاية صيف 1990.

إذا ما حصل وتنازل لمطالب الشارع أو إرخاء للقيد، فلن يحصل بهدف تعزيز اللحمة الوطنية أو الإجماع الوطني أبدًا، ولكن بهدف تجنب خلق موازين القوى التي قد لا تكون في مصلحته. لقد أظهر في مناسبات عدة قلة اعتباره لشعبه، عبر قمع وحشي وغير مسبوق لبعض التظاهرات. «إذا كنت مع الأسد، أنت مع ذاتك، إذا كنت ضد الأسد، أنت ضد ذاتك»، هذا ما يردده بقوة عملاء الاستخبارات الذين يضغطون لحشد الشعب في خضم الأزمة مع الإخوان المسلمين [26]. أكد أخوه الأصغر رفعت بإيجاز أكثر «الذي ليس معنا هو مع الإخوان المسلمين» [27]. لا يمكن أن يكون الأمر أكثر وضوحًا من ذلك.

غلطته الأساسية، «جريمته» يقول مناوئوه، الأكثر فظاعة أنه ألغى إلى درجة العدم التمثيل الشعبي. «قبل أن يأخذ السلطة، يكتب أحد المنفيين السوريين، كان يوجد دائمًا من يمثلكم، ولكن معه عدنا إلى القرون الوسطى؛ لا يصل إلى الاستحقاق الانتخابي سوى مرشحو الحزب أو أجهزة الاستخبارات» [28]. نسخة عن النموذج

---

[26] الشعارات في كل مكان من دمشق في تلك المرحلة.

[27] Olivier Carre, et Michaud (Gerard), Les frères musulmans ; (Paris : Gallimard ; Coll. Archive), pp. 140 et 141.

[28] محادثة مع المؤلف.

السوفياتي، النظام السوري شطب تقريبًا فضاء الحرية كله، بما فيه النوادي الرياضية المرتبطة ببعض الجماعات التي يوجهها البعثيون الآن.

لم يكن مفاجئًا في مثل هذه الظروف أن يكون الجامع لزمن طويل مكاناً للتجمع الحر تقريبًا. ولكن وضع النظام هنا أيضًا آلية للتدخل، إما باستعمال عمال التنظيف للتجسس، أو ببساطة أكثر بنقل الأئمة والشيوخ غير الموالين بناء على تعليمات وزارة الأوقاف[29].

حذر بطبيعته، لا يحب الأسد أبدًا الشخصيات المستقلة. من هنا تأتي مخاوفه لتأطير أكبر عدد من البشر. هكذا يوجد مليونا شخص يعتمدون على الآلة العسكرية تمامًا: 500000 جندي وعائلاتهم، مما يمثل سدس الشعب. بالنسبة إلى جميع هؤلاء جميعهم، ثمة عدد من الامتيازات تعمل استنادًا إلى المنزلة في التراتبية. «النظام السوري هو الإرهاب بعينه إضافة إلى الفساد»، هذا ما يراه منفي سوري آخر، يفصح كذلك بأن الرئيس يعيش ببساطة: «ما يهمه، هو السلطة وصلاحياتها. فهو يسخر شخصيًا من الترف. كان معروفًا وهو طالب ببساطة ذوقه، وميله إلى تقنين المصروفات» [30].

كيف يمكن تفسير تغاضيه منذ الآن عن عدد من المسؤولين في النظام -لاعن أخوته فقط- الذين يملكون الفيلات الضخمة ومستودعات السيارات الفارهة كتلك التي يملكها أصحاب الملايين الأميركيون؟ من بين الأسباب المكررة، بأنه لا يعرف أن يأخذ في الحسبان بصورة مناسبة الرأي العام في البلاد، ولم يجد الوسائل المناسبة للإمساك بالمحيطين به.

---

[29] وزارة الأوقاف تشرف على المساجد والعاملين بها.

[30] مقابلة مع المؤلف. مثله مثل كثيرين من أبناء بلده، هذا الطبيب السوري في المنفى يرغب عدم ذكر اسمه وهذا يوضح بطريقة ما طبيعة النظام.

شعب متهكم ساخر

أمام التجاوزات من كل نوع للنظام، لم يجد السوريون شيئًا آخر للتعويض سوى مضاعفة الطرف، وما يشهد على ذلك، طرفة انتشرت في دمشق مدة طويلة من الزمن:

قررت زمرة السلطة إطلاق محطة تلفزيونية ثالثة، لأنها تدرك عدم قدرة المشاهدين الذين لا يمكنهم مشاهدة المحطة الأولى أو الثانية للتلفزيون من دون رؤية الرئيس أو وزرائه، فتح محمد جهازه. المحطة الأولى: يفتتح الأسد مزرعة من مزارع الدولة في شمال البلاد. يتنهد من هذا الإزعاج وينتقل إلى المحطة الثانية: الأسد يلقي خطابًا أمام فرع محلي للفلاحين في درعا. ما هذه المصيبة؟ يضغط على زر المحطة الثالثة ليكتشف على الفور عميلاً للمخابرات يصرخ في وجهه: «ارجع فورًا إلى المحطتين».

تنافست المدن جميعها، صغيرها وكبيرها، على إقامة تمثال للقائد في مكان مميز. ولكن يتعرض النحاتون الرسميون لمواجهة أوضاع مربكة أحيانًا. ففي مدينة السويداء عام 1986 جنوبي البلاد، اضطر اثنان منهما إلى لأخذ مقص وملحمة بعد استفزاز صغار الهزليين الذين لم يجدوا أفضل من الذهاب إلى ذراعي البطل الوطني الممتدين نحو السماء وتعليق سطل من السمنة وآخر من الصابون، مادتين نادرتين مفقودتين من السوق في تلك المرحلة. وعلى وجه السرعة، قامت قيادة فرع حزب البعث المحلية بدراسة النتائج المروعة لهذه الشتيمة، واستدعت اثنين من المتخصصين في إقامة التماثيل اللذين اضطرا إلى قطع الذراعين ولحم ذراعين أخريين نازلتين نحو القدمين.

ومن دون الوصول إلى مستوى مهزلة كيم إيل سونغ أو شاوشيسكو، إلا أن عبادة الشخص لا تقل غرابة ومهزلة. لقد شاهدنا سخرية دريد لحام الذي كان بإمكانه تناول كثير من الموضوعات، ولكن ليس شخص الرئيس على الإطلاق، في هذا العالم المتمركز حول شخص القائد فقط، فمن المدهش ملاحظة الأهمية التي تعلقها بعض الأوساط الدبلوماسية أو الصحفية على تصريحات بعض شخصيات النظام، سواء كانوا من الصف الأول أم لا.

في شهر آب 1987، في زمن انتهاء الاضطرابات في مكة المكرمة، ضاعف عمران أدهم -رجل أعمال سوري مقرب من الرئيس- من تصريحاته الحربية ضد حزب الله

اللبناني، وتصميمه على إقامة جمهورية إسلامية في لبنان. إذا طلبت منا البلدان الغربية تحرير الرهائن سنذهب إلى تحريرهم بالقوة، ولكن لم يطلبوا منا شيئًا، هذا ما أكده أدهم أيضًا. شهد كثيرون منعطفًا حاسمًا في السياسة السورية نحو إيران وأصدقائها اللبنانيين، ولكن في الوقت نفسه، ضاعف السوريون والإيرانيون من لقاءاتهم، بينما يتهم رئيس الدبلوماسية السورية فاروق الشرع الولايات المتحدة بإثارة الاضطرابات في المدينة المقدسة في مكة.

يعبر أدهم والشرع كلاهما عن فكرة الرئيس، ويطلقان (بالونات) تجريبية لاختبار أرض الميدان؛ فأدهم على درجة من الذكاء تمكنه من معرفة أن الغربيين لن يطلبوا من سورية تحرير رهائنهم بالقوة، خشية تعرض حياتهم للخطر، ويعرف أيضًا -كما الإيرانيون- أن الأسد لن يسمح أبدًا بجمهورية إسلامية في لبنان الخاضع لسلطته. ويهدف الأسد من هذا التحالف المزدوج مع الرياض وطهران إلى الاستعداد لاحتمال إيجاد باب للخروج، لكن المنعطفات المفاجئة لا يمكن التنبؤ بها إلا عند سماع صوت واحد من المحيطين به جميعهم. وبصورة عامة، فإن الرئيس في مثل هذه الظروف النادرة، هو من يعلن اللون الجديد.

سلطة بلا منازع

بالتأكيد، لا تكفي الحملة الملحة والمستمرة في مدحه لكي يضمن إخلاص أتباعه. قال الأسد وكرر غالبًا القول: لا يوجد قائد جيد بلا التزام، لا يوجد مؤسسات حية بلا التزام. لقد مكنته الهيمنة التي يمارسها على الجيش وعلى حزب البعث؛ من إقامة سلطة بلا منازع على الشعب السوري. سنلاحظ بداية أن حافظ الأسد ليس رئيسًا للدولة فقط، ولكن أيضًا القائد الأعلى للجيش، والأمين العام لحزب البعث وللجبهة الوطنية التقدمية التي تضم البعث وبعض التشكيلات السياسية اليسارية، حيث انقسم معظمهم -كما يقال بين قوسين- حول موضوع دعم الرئيس القوي وعدم دعمه. غادر الناصريون في الاتحاد الاشتراكي العربي الجبهة بصورة جماعية في عام

1973 في وقت قام شيوعيو رياض الترك (موجود في السجن عند كتابة هذه الأسطر) بالانشقاق بعد بضع سنوات.

أعلن حافظ الأسد بوضوح في تشرين الأول 1970، قبل سقوط جديد بقليل، برنامجه الهادف إلى فتح الحوار السياسي مع جماعات أخرى تقدمية. في حين إن صلاح جديد وأصدقاءه الستالينيين بامتياز، كانوا مقتنعين بوجوب أن يكون حزب البعث المحرك السياسي الوحيد في سورية، بينما لا يرى الأسد غير المعول كثيرًا على النظريات الأيديولوجية؛ ما يمنع توسيع القاعدة الاجتماعية لسلطته، ودعوة الحركات والأحزاب الأخرى لدعم حكمه. إلا أن الانفتاح نحو القوى الأخرى غير البعث كانت له حدوده، فإقامة الجبهة الوطنية التقدمية في 1971 كانت مشروطة بأن يقتصر النشاط السياسي في الجيش وفي التعليم -خاصة الجامعي- على البعث.

إضافة إلى ذلك، كان بإمكان الشيوعيين والناصريين طباعة صحفهم بحرية، إلا أنه كان من المستحيل عليهم توزيعها في الأماكن العامة، وبيعها أكثر استحالة. هذه الإجراءات ما زالت قائمة، كذلك قانون الطوارئ الذي بدأ تطبيقه منذ 1963 ولم يرفع أبدًا. «يستخدم دستور 1973 كجزرة في حين يستخدم قانون الطوارئ كالعصا» يكتب متهكمًا عالم الاجتماع السوري رشيد الحجّار أن الأسد «قضى أهم سنوات حياته على رأس الدولة، لتفريغ الإصلاحات التي وعد بها من كل مضمون» [31].

من بين مواد قانون الطوارئ (وهي كثيرة بحيث تجعل الحاكم العسكري مطلق الصلاحيات) مادة تسمح باستخدام الجيش للقمع الداخلي، وهذا ما أفضى إلى جعل الدستور بلا معنى (حاجة شكلية يتطلبها الديكور). عمل الأسد بكامل جهده ليجعل من مؤيديه المحتملين وجوهاً بلا سلطة وبلا وزن. فدستور عام 1973 ينص مثلًا على أن تعود نصف مقاعد مجلس الشعب (195 مقعدًا) للعمال والفلاحين. وبتعبير آخر، كتبت إيزابيل بيكار، هؤلاء «العمال» وهؤلاء «الفلاحون» يرتبطون بشكل أو بآخر

[31] مقابلة مع المؤلف.

بالحزب، فغالبية البرلمان تكون مضمونة الولاء بشكل أوتوماتيكي [32]. إذا أضفنا إلى ذلك أن عملاء السلطة حاضرون في الانتخابات كلها كي يضمنوا «التصويت المناسب» فلم يعد مدهشًا أن يحصل الأسد على ما بين 99 و99.9% من الأصوات في الاستفتاءات الرئاسية، علمًا بأن نسبة التصويت مفبركة بعناية، لدرجة مضحكة أحيانًا.

تطور التمثيل الشعبي بعد عام 1973، مع تأسيس مجلس الشعب، والمجالس المناطقية في كل محافظة، والمجالس المحلية في كل بلدة. إذ تم تعميم التأطير. من خلال هذا الواقع، يمكن للنظام أن يكون انطباعًا بالنجاح في تحسين التواصل والمشاركة السياسية، وتوقع توثيق العلاقة بين المواطن والدولة، إلا أن الأمر ليس سوى وهم موجه لإعطاء صورة للخارج عن التغيير، ولكن النتيجة الجوهرية لواقع القهر الذي يمارس في كل مكان، هي تطور جامح للآلة البيروقراطية وللتنظير الأيديولوجي.

القوى شبه العسكرية

كان التطور السريع للقوى شبه العسكرية من الخصيصات الأخرى لنظام الأسد. فظهرت بالموازاة مع الجيوش التقليدية الثلاثة بعض الكتائب وسرايا الدفاع التي يقودها جميعها مقربون من الرئيس. ولعل الأكثر شهرة من بينها سرايا الدفاع التي تأسست بطريقة غير مشروعة في عام 1965 من قبل حافظ الأسد، وقادها شقيقه رفعت حتى عام 1984 بحسب ما أسلفنا. ويمكنه في هذا التاريخ حشد نحو 50000 رجل مزودين بأفضل الدبابات السوفياتية -ت 52- وصواريخ ووحدات مظلية. قام رجال رفعت في سرايا الدفاع لسنوات طويلة بإرهاب الشعب السوري. وقرر حافظ بعد مرضه، وأمام الاستفزازات التي سببها سلوك رفعت طوال هذه المرحلة؛ إبعاد أخيه الأصغر

[32]Picard (Elizabeth), "Le parti Ba`ath au service des régimes militaires de Syrie et d`Irak. Discours du pouvoir et réponse des sociétés" in Les appareils de la dictature, communication faite a Paris au cours d`un colloque sur ce thème les 5 et 6 décembre 1985 a Paris I, p. 12. 32 تحليل مميز. موجودة باسم

المشاكس إلى أوروبا لمدة غير محددة، وحل سرايا الدفاع، حيث التحقت منها مجموعة صغيرة بالحرس الجمهوري بقيادة عدنان مخلوف ابن أخ زوجة الرئيس، وأرسل أكثر من 15000 شاب علوي، لا تزيد أعمارهم عن 17 سنة، إلى قراهم أيضًا بعد حل سرايا الدفاع، حيث سبق تجنيدهم من قبل رفعت.

إلا أن اختفاء سرايا الدفاع لا يعني نهاية النواة الصلبة للنظام. في الوقت الحالي، ما زالت تتضمن هذه الأخيرة قرابة خمس عشرة بؤرة أمنية، أكثرها شهرة في إثارة الحزن تكون بلا شك «القوات الخاصة»، التي يقودها علي حيدر، وتميزت بوحشيتها في مناسبات عدة، خاصة في حلب عام 1980 وفي حماة عام 1982. إذا كانت «القوات الخاصة» تزاوج بين الوظائف العسكرية والاستخباراتية، توجد أجهزة أخرى «المخابرات» لتقوم فقط بوظائف استخباراتية. ولعل الأكثر قوة والأشد قمعًا هي بلا شك المخابرات العسكرية –الاستخبارات العسكرية للسلاح البري– التي يقودها الجنرال الشهير علي دوبا الذي يعد من قبل الجميع، على الأقل، حتى صيف 1990، الرجل الثاني في النظام[33].

مع ذلك، بعض الوحدات المسلحة تلعب دورًا جوهريًا في حماية أمن السلطة الحالية. كما هو الحال بالنسبة للفرقة المدرعة الثالثة المؤلفة من 40 ألف رجل وتتخذ من القطيفة مقرًا لها على بعد 40 كم شمال دمشق. قائدها شفيق فياض، حيث تزوج أحد أبنائه من بنت رفعت الأسد، وهو علوي من أقوى رجال البلاد. إن إبراهيم الصافي قائد الفرقة المدرعة الأولى، والمزودة بـ 30 ألف رجل و500 دبابة وكذلك صواريخ أرض-أرض؛ علوي أيضًا، يأخذ دمشق رهينة تحت نيران مدرّعاته، ولهذا السبب فهو رجل يحسب حسابه. بين العشرة رجال الأكثر نفوذًا، يوجد أيضًا سني واحد، هو رئيس الأركان حكمت الشهابي، الذي يستمد أهميته من علاقته المميزة مع الولايات المتحدة، حيث درس غالبية أبنائه أو يتابعون دراساتهم هناك.

---

[33] في تلك المرحلة، تتردد شائعات في الأوساط المقربة من رفعت الأسد، تؤكد استبعاد علي دوبا. إذا تأكد ذلك في يوم من الأيام، سيشكل هذا الحدث مرحلة مهمة جدًا في الحياة السياسية السورية. فبوصفه رئيسًا للأمن العسكري، لديه «رجل تابع له» في قمة كل فرقة عسكرية، مما يمكنه من الاطلاع على كل شيء

في الواقع، تضم المؤسسة العسكرية، بمثل ما يسميها السوريون، حوالى أربعين رجلًا يصنعون أجواء المطر أو الصحو في سورية. عدا الأسماء التي سبق ذكرها، يجب إضافة رؤساء الفرق الأخرى في الجيش، وقادة الأجهزة الأمنية، خصوصًا المخابرات الجوية.

هؤلاء الرجال وخدماتهم يكلفون الخزينة السورية نفقات باهظة جدًا، ويشكلون عبئًا اقتصاديًا على السوريين، وهم غير مسؤولين سوى أمام الرئيس، وليس أمام وزير الدفاع مصطفى طلاس الذي يجد الوقت للاهتمام بدار النشر العائدة له وبثروته الخاصة. استنادًا إلى جام بول، وهو مؤلف لكتاب مميز يتعلق بحقوق الانسان في سورية، يخصص على الأقل 750 مليون دولار سنويًا لهذه المجموعات المتفرقة. في حين إن موازنة الجيش، تمثل 50 في المئة من نفقات الدولة.

يبقى ذلك كله في الواقع نظريًا جدًا، بالقياس إلى أنه يدخل في الحسبان، وبصورة مستمرة في الحياة اليومية للمواطنين؛ الرشوة والفساد على نطاق واسع، وأن هؤلاء المسؤولين معظمهم، جمعوا ثروات هائلة. يملك علي دوبا قصرًا باذخًا في بانياس، وبنى محمد الخولي -الملازم أول الشاب الذي دعم حافظ الأسد عام 1963 عند تأسيسه الأمن الجوي- بعد تسلمه لوقت طويل قيادة هذا الفرع الأمني الرهيب، مثله مثل علي حيدر؛ سكنًا مهولًا في بيت ياشوط بالقرب من جبلة، ويحتل إبراهيم الصافي قصرًا صغيرًا في شراشير بالقرب من جبلة أيضًا. تصاعد نفوذ الجبلاويين، فالميل الذي يظهره كثير من هؤلاء لجبلة، دفع العلويين للقول بأن أبناء دينهم الجبلاويين هم الذين يقودون البلاد.

سقوط رفعت والنتائج المترتبة على ذلك

أنهك حافظ بعد 3 سنوات صعبة جدًا، توجب عليه خلالهاسحق ثورة الإخوان المسلمين، ومعاناة الإذلال عند اجتياح لبنان في أثناء صيف 1982، وتحضير الرد على اتفاق السلام الإسرائيلي–اللبناني الذي فرضته واشنطن، وفي تشرين الثاني 1983 وقع حافظ الأسد بمرض خطر، فالإصابة بالسكر إضافة إلى أزمة قلبية جعلاه في وضع معقد اقترب من الموت. كانت المفاجأة تامة «للمؤسسة»، أي لعشرات من الرجال الذين يمسكون بزمام السلطة في سورية. لم يتجرؤوا أبدًا على التفكير بمثل تلك الفرضية من قبل. ويكتشفون حينئذ أن رفعت الأسد قدم نفسه خلفا لأخيه، وشكل حقًا دولة ضمن الدولة. مع إظهارهم الولاء للأخ الأصغر للرئيس، اجتمع القادة الأمنيون والعسكريون سرًا، من ضمنهم علي دوبا وعلي حيدر وإبراهيم الصافي وشفيق فياض، لتنظيم معارضتهم لطموحات رفعت.

في 30 آذار 1984، في وقت بدأ فيه حافظ يتعافى، كان رفعت قد أكمل اللعبة. ولكنه لم يعِ أن أخاه والمسؤولين في النظام معظمهم يراقبونه عن كثب منذ زمن بعيد. بعد أن قام هو ورجاله بإرهاب دمشق خلال ساعات، أخفق إخفاقًا مدويًا، ثم سمي بعد بضع أسابيع نائبًا للرئيس، ونفي إلى أوروبا. هذه المسألة التي غالبًا ما أثارتها الصحافة الغربية والتي أوضحها باتريك سيل في كتابه عن حياة الأسد[34]، كانت لها نتائج كثيرة، ومنها نتائج غير معروفة. ومكنت هذه الفرصة المؤسسة العسكرية في الواقع من اكتشاف حقيقة موازين السلطة، حقيقة لن تنساها أبدًا.

في الأيام التالية على محاولة الانقلاب، ذهب علي دوبا لرؤية حافظ الأسد، وأكد له بأنه ورفاقه لن يوافقوا أبدًا على أن يصبح رفعت رئيسًا، «لقد قام بانقلاب ويجب أن يعاقب، يجب ألا ترى به فقط الأخ»، هذا ما أوضحه للرئيس قبل أن يطلب منه «تصفيته»، وانتهى إلى قبول برنامجه «لتحييد أصدقائه الأميركيين والسعوديين» [35]. في الوقت الذي يميل حافظ إلى تعيينه نائبًا فخريًا للرئيس، بهدف السيطرة عن كثب

---

[34] Patrick Seale, Assad, the struggle for the Middle East, (London: I.B. Tauris and Co Ltd, 1986).

[35] مقابلة مع المؤلف من أحد المقربين السابقين من علي دوبا.

على ميليشيا سرايا الدفاع، إلا أن دوبا طلب حل هذه الأخيرة. تأثر الأسد بعمق بتصميم زائره، فتنازل، واكتشف إلى أي مدى يمثل هذا الزائر قوة مؤثرة.

في نهاية عام 1984، جمع علي حيدر عنده في القابون بالقرب من دمشق الممثلين الأساسيين «للمؤسسة». وأقسم الأعضاء الحاضرون أن يبقوا متحدين في مواجهة الرئيس، وتنفيذ الأوامر التي لا تؤدي إلى انقسام «المؤسسة»، وتجاهل الأوامر التي يمكن أن يكون لها تأثير سلبي. في الواقع إذا لم يكن الأسد أداة (آلة) المؤسسة العسكرية، فهو حقًا لم يعد طليق اليدين. سابقا وقبل بضعة أشهر، تمكن أن يعي إلى أي المستوى وضعه أخوه في موقف ضعيف. وقام باستدعاء واحد من أعلى المستشارين العسكريين السوفيات الموجود في سورية، ليطلب إليه التدخل لدى علي دوبا، لكي يبقي على أخيه في سورية. أجاب هذا الأخير: «إذا أراد الإبقاء على رفعت، حافظ سيغادر معه. هذا خائن وجاسوس أميركي»[36].

في تلك المرحلة، روج علي دوبا وأصدقاؤه أن رفعت وزبانيته قتلوا أكثر من 400 شخص بتغطيسهم بأيديهم في حمام من الأسيد في سجن المزة. وكان من بينهم الشاعر محسن الخير، صديق الطفولة للرئيس. بعد مدة وجيزة قامت أرملة الشاعر بطلب مقابلة رئيس الدولة، لتحدثه عن ظروف اختفاء زوجها. بعد أن أعلن الأسد الرئيس قناعته بأن الإخوان المسلمين قتلوه، أعلمها بأنه يمكن أن تعده بمنزلة أب لأطفالها. استخفت الأرملة الشجاعة بهذا العرض، وأجابته بأنها لا تبحث عن أب لأطفالها وإنما تبحث ببساطة عن أبيهم، ثم أضافت بأنها مقتنعة أن رفعت الأخ الأصغر لحافظ قام بتصفيته. غضب الأسد واستدار نحو أحد الحراس طالبًا إليه «طرد هذه المرأة إلى الخارج».

[36] مقابلة مع المؤلف لشخصية من الحزب الشيوعي السوري مرتبط بقوة مع الدبلوماسيين السوفيات حتى أواسط الثمانينات، حيث يعلمهم بانتظام بكل ما يحدث.

الأسد والمؤسسة العسكرية

خلال الربع الأخير من عام 1987 أدرك الأسد بقوة ضعفه النسبي، وكان وجود رئيس الوزراء عبد الرؤوف الكسم -آنئذ- في هذه السلة من الفاسدين شيء يبعث على الدهشة، كيف يمكن أن يوجد رجل شريف في هذا الوسط الفاسد؟

أثارت المشروعات العقارية لنخب النظام وفضائحها غضبه، ويبدو أنه قرر مواجهتها أو تحجيمها على الأقل، فأعطى الأمر باعتقال ابنة عم زوجة وزير الدفاع مصطفى طلاس، التي تعمل بالتهريب وتخرق القانون بشكل صارخ.

هذه القضية لا قيمة لها في الظاهر، إلا أنها تثير فضيحة حقيقية في «المؤسسة» العسكرية، حيث يخشى أعضاؤها معظمهم تعرض امتيازاتهم للخطر. كان طلاس الذي يصرخ في كل مكان الأكثر غضبًا: «لسنا عائلة تعمل في التهريب، فأنا أدير كل سنة موازنة تزيد على 25 مليار ليرة سورية ولست بحاجة للتهريب (...) فهذا يمثل إهانة للجيش، وللحركة التصحيحية [37]، وضد أولئك الذين صنعوا حرب تشرين كلهم».

وللمرة الأولى منذ عام 1970، «تجتمع المؤسسة» العسكرية الشهيرة بالكامل، وتقرر إرسال طلاس لمقابلة الرئيس، ليطلب إقالة الكسم. حاول الأسد المناورة، إلا أنه انتهى إلى الموافقة على ذلك. وبعد يومين، غير رأيه، واتصل مخبرًا طلاس بقراره تكليف الكسم من جديد برئاسة الوزارة، لأنه رجل شريف ويمتلك الكفاءة اللازمة ولم يجد خلفًا مناسبًا له. اتصل ابراهيم صافي -بعد إعلامه من قبل طلاس بساعتين- بالكسم مهددًا: «إذا أردت أن ترى وأنت على قيد الحياة زوجتك وأطفالك، ننصحك برفض اقتراح الرئيس» [38]، وبعد بضع أيام، تمت تسمية محمود الزعبي رئيسًا للحكومة.

تعد هذه الرواية أنموذجًا لهذه التقاليد وحقيقة سلوكيات أهل السلطة، وتبين بطريقة ما ضعف النظام؛ استمرار مراقبة كل طرف للآخر، وتحييد آخرين أو الوقوف المحايد،

---

[37] الحركة التصحيحية قام بها الأسد بعد أشهر عدة من وصوله إلى السلطة.

[38] الكسم يرفض في الواقع.

أسهمت هذه التصرفات في خلق أجواء من البارانويا، فالنظام بحسب ما كتب جام بول وصل إلى مستوى من الفساد بحيث أصبح «يأكل أطفاله».

يبقى الأسد بالتأكيد سيد اللعبة، لأنه لم تنجح أي شخصية قوية بما يكفي بالظهور من «المؤسسة» العسكرية، حيث كل فرد من أعضائها موضع تساؤل قليلًا أو كثيرًا. لم يعد بإمكان الرئيس على الأقل القدرة على مواجهة تحالف المصالح الكبرى التي تمثلها هذه الحفنة من عشرات الرجال الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ولي نعمتهم أي الرئيس.

دولة الحقوق غير الموجودة

تقودنا هذه المعركة الدموية من أجل السلطة، وتلك التقاليد من الحملات؛ إلى التساؤل عن أوضاع الحريات الفردية والحريات العامة في سورية. بالتأكيد، الخطابات الأخيرة، خصوصًا في مارس 1990 بمناسبة العيد السابع والعشرين لوصول البعث إلى السلطة، أرادت إشاعة الطمأنينة، حيث طلب الرئيس حينئذ من الحكومة تقليص تطبيق قانون الطوارئ المعمول به في البلاد منذ 30 سنة. قانون الطوارئ، يقول يجب ألا يتناول «سوى المشكلات الأكثر أهمية: أمن الدولة والنظام العام». كيف يمكن تحديد هذين المفهومين؟

قبل ذلك بأسبوع، استرسل حافظ الأسد في خطاب عفوي أمام البرلمانيين، بتفسير بعض المفاهيم المتعلقة «بالحرية»: «لا أريد القول بأنه لدينا كل الحريات التي نطمح إليها لأننا نريد دومًا المزيد منها. نحن لا نخافها. فالحرية ليست موضوع خلاف بيننا ونحن نبحث عن الصيغ المناسبة لننعم بها بطريقة أفضل». أكد الرئيس في هذا اليوم بقوة وأجاد القول بأنه منذ وصوله إلى السلطة في عام 1970 «تقرر اعتماد التعددية الحزبية. استجابة للمشكلات التي طرحت على سورية، إما ببراءة، وإما بخلفية فكرية بعد التطورات التي حصلت في البلدان الاشتراكية». لا يمتلك أحد بصراحة الجرأة على تذكيره بأنه في إطار الجبهة الوطنية التقدمية، أعلى تشكيل سياسي

في سورية منذ 1971 الذي يضم ستة أحزاب، يمتلك البعث، أي حزبه، الأغلبية المطلقة، في حين يحدد دور التشكيلات الأخرى لإتمام الديكور.

وعندما تخرج عن هذا الدور، بمثل ما حدث في أيلول 1979 عندما دعت الجبهة النظام بقوة إلى «تطبيق مبادئ سيادة القانون»، والى «تعزيز سلطة القضاء واستقلاليته»، والى «احترام قرارات المحاكم وتنفيذها»، والى «تقليص دور المحاكم الأمنية الخاصة واقتصارها على الجرائم المرتكبة ضد أمن الدولة»، تم نسف كل ما سبق بصورة فاضحة بعد بضعة أشهر فقط. لم يأخذ النظام في الحسبان ما تتمناه الجبهة الوطنية التقدمية، فقام بحل نقابة المحامين، وسجن حوالى60 من أعضائها.

كان من الأَولى أن يبدأ حافظ الأسد بالتنظيف أمام بابه الخاص. كيف يمكن ذلك؟ في الواقع -في 1990- ما زال سلفه صلاح جديد، ومحمد عيد عشاوي، ومحمد رباح الطويل، رفيق عرضي لجديد ووزير الداخلية السابق، وحديثه مراد وزير سابق، ونور الدين الأتاسي رئيس الجمهورية السابق، جميعهم معتقلين من دون محاكمة بعد مضي 20 سنة من السجن. وظل آخرون من مثل محمود فياض ومصطفى فلاح وحسين زيدان وجلال مرهج حكم عليهم في عام 1970 بالسجن لمدة 15 سنة لتعاطفهم مع العراق؛ محتجزين على الرغم من انقضاء مدة عقوبتهم. (حسين زيدان مات منهكًا في السجن في نيسان 1991). هكذا قرر الأمير أما بالنسبة ليوسف زعين، وجه آخر للبعث اليساري، تم إطلاق سراحه في 1985 ولكن في حال لا تمكنه من أن يشكل أي تهديد. لماذا هذا الغلو كله؟ من المحتمل أن يكون ذلك طريقة للانتقام من الرفاق القدامى في الحزب الذين يزدرون انتهازية الأسد، وغالبًا ما كانوا أكثر ثقافة منه بكثير. ولم يكنوا أي احترام للأسد، إلا أن هذا الأخير كان معجبًا بهم.

في عام 1977، في لحظة تتراكم خلالها الصعوبات في سورية بعد اتفاق كامب دافيد، أرسل الأسد أحد المعتدلين المقربين منه للحديث مع جديد. حيث أراد توسيع الحزب والجبهة الوطنية التقدمية. أقفل جديد وغيره من الذين تم الاتصال بهم الباب نهائيًا في وجهه: «إذا وصلت البلاد إلى ما وصلت إليه -قالوا له- فهذا بسببك. أنت أغرقتها في القذارة، فلا تعتمد علينا للمساعدة في الخروج من هذا الوضع».

بعد بضع سنوات من ذلك، قام بعض المبعوثين بزيارة رياض الترك، زعيم الحزب الشيوعي/المكتب السياسي (المنشق عن الحزب الشيوعي السوري لخالد بكداش) حيث قام الأسد أيضا بسجنه. من بين هؤلاء المبعوثين، يوجد علي دوبا. في بداية 1987، حاول الأسد القيام بعملية إرضاء جديدة وأرسل إلى الترك يوسف فيصل، عضو الحزب الشيوعي العريق الذي يعد «رجل الاستخبارات السوفياتية (ك ج ب). لم تنجح المحاولة. وطلب رياض الترك أحد المسؤولين السياسيين البارزين في سورية وفي العالم العربي، ضمانات جدية تتصل بالحريات الفردية، ثم أجاب زائره بازدراء: «علي دوبا قدم لي أكثر منك»[39].

وبمناسبة الحديث عن رياض الترك، انتشرت الحكاية التالية، حكاية حقيقية أم لا إلا أنها انتشرت سريعًا منذ مدة في دمشق. في الوقت الذي كان حافظ الأسد يتناول الغداء مع زوجته وأطفاله، أعلنت ابنته بشرى فجأة أن «غالبية الوزراء والضباط هم لصوص» رد الرئيس الغاضب بفظاظة: «وضعت رياض الترك في السجن وها أنا أسمع صوته (ما قالته بشرى) في داخل بيتي» .

[39] مقابلة مع مقربين من رياض الترك.

فشل حزب البعث

لا بد من الإشارة إلى بعض الملاحظات السريعة عن حزب البعث، الحزب الحاضر بقوة في هذا الكتاب. مع ضرورة التأكيد، في نهاية المطاف، على عدم المبالغة في أهميته. وبحسب ما أشارت إليزابيت بيكار، وهي متخصصة أخرى ممتازة في سورية المعاصرة، بأنه «أخفق في مهمته كصلة وصل بين القيادة والمجتمع»[40].

لن نتوسع هنا نحو معايير أخرى تتعلق بنظرية البعث التي وضعها ميشيل عفلق والتي تلخص بالشعار «وحدة حرية اشتراكية» هذا الشعار الفارغ لم يعد له أي تأثير على السوريين الذين، لكي ينتقموا من نظام يكرهونه كثيرًا، قاموا بإحلال كلمة «حرامية» محل حرية التي تعني لصوص. يسيطر مفهومان أساسيان على منطلقات حزب البعث: من جهة، العرب يشكلون أمة واحدة، موحدة سياسيًا واقتصاديًا؛ ومن جهة ثانية تشكل الإنسانية مجتمعًا واسعًا تكون فيه المصالح المتبادلة والقيم والحضارة مشتركة بين جميع الأمم. فالعرب يغتنون من الحضارة الإنسانية وبدورهم يساهمون بإغنائها. من هنا جاء التركيز على عظمة الماضي العربي، بما فيه بالطبع من عناصر إسلامية. ألح عفلق وهو مسيحي الديانة أرثوذكسي يوناني، ألح دائمًا على أهمية دور الإسلام في الحضارة العربية. حزب البعث مقتنع أيضًا بأن الاشتراكية «ضرورة ملحة وأساس للقومية العربية» ولكن كل ذلك عبارة عن كلمات وبإمكان اليزابيت بيكار، ومعها كل الحق، الاعتقاد أن أيديولوجية البعث، على الرغم من «ضعفها الداخلي»، لم ترفضها الجماهير العربية لأن هذه الشعارات «لا يمكن مهاجمتها ولا استهلاكها فهي خالدة لا تفنى»[41]. منذ 1970، شكل انتصار الجنرال أسد «بوضوح كبير انتصار رجل براغماتيي لا تشغله المناقشات النظرية» [42].

استنسخ التنظيم البعثي من الأحزاب الشيوعية إلى حد كبير نموذجًا من الديمقراطية الشعبية القديمة في أوروبا الشرقية. كل ما هو مهم وذو شأن مدو، ويتمتع البعثيون

---

[40] Elizabeth Picard, "Syrian politics : internal structure and process", in communication faite a la conférence annuelle de la MESA, novembre, 1986, p. 7.

[41] توفي في بغداد في عام 1989، وهو من مؤسسي البعث بالشراكة مع صلاح بيطار الذي اغتيل في باريس عام 1980

[42] Elizabeth Picard, Syrian politics..., op.cit., p. 21.

بامتيازات صارخة. وأصبح الحزب وسيلة للصعود، وهو أيضًا وسيلة للإقصاء لأنه لا يحب إطلاقًا العقل الإبداعي أو أصحاب المبادرات والأفكار الجديدة. حول هذه النقطة سنترك اليزابيت بيكار تخلص إلى ما يلي: «في ممارسته لمختلف الوظائف التي أوكلها إليه النظام الدكتاتوري أظهر البعث بأنه أداة متواضعة، بسبب ضعف مضامينه الأيديولوجية وضعف عملية انتقاء النخبة وعدم قدرتها على تحريك الجماهير (....). فالنظام السياسي الذي سيطر على سورية منذ الستينيات تطور إذن نحو الدكتاتورية الشخصية التي كانت تأمل بأن تكون شعبية. وهكذا فشل البعث في مهمته، في أن يكون صلة الوصل بين القيادة والشعب لأنه كان يتصرف على عكس مبادئه الخاصة، فأضعف شرعيته؛ لأنه لم يعد مقبولًا كجهاز للسلطة، ففقد وسائله. هذا التطور القاسي يشكل إشارة جدية لهشاشة النظام» [43].

[43] Elizabeth Picard, Syrian politics..., op.cit., p. 21.

الشعب السوري هو الضحية الأولى

كلما شعر النظام بهشاشته، تصاعد القمع. لقد تحدث كثيرون عن الوقاحة والوحشية التي أظهرها حافظ الأسد ومساعدوه نحو اللبنانيين والفلسطينيين، ولكن في حقيقة الأمر، حتى لو صب الرئيس السوري الزيت على النار، فهو ليس مسؤولًا عن المأساة الفلسطينية. والمسؤولون اللبنانيون عبر أنانيتهم واستخفافهم، عملوا الكثير ليسهّلوا له المهمة في لبنان. وفي المقابل، يتوجب عليه جيدًا في يوم ما أن يحاسب على ما فعله في المجتمع السوري. فمنذ 1970، وصل عدد ضحايا القمع في سورية إلى عشرات الآلاف. دفعت الطوائف جميعها بما فيها الطائفة العلوية التي خرج منها الأثمان، وقمع النظام التنظيمات السياسية جميعها، المسموح بها أو الممنوعة، بما فيها حزب البعث. وكان الإخوان المسلمون أكثر عرضة لوحشية النظام التي مارسها بلا رحمة، من بين المجموعات السياسية أو الإثنية أو الدينية جميعها، ولكن قبل المتابعة، من المناسب التذكير بأن حافظ الأسد لم يأت بجديد في هذا المجال، فمنذ بداية الستينيات، إذا لم نتذكر سوى ذلك، حدثت مواجهات عنيفة في اللاذقية بين طلاب بعثيين، علويين في غالبيتهم، والإخوان المسلمين غير المتسامحين تمامًا. إضافة إلى ذلك، ظهر تعصب بعض الأوساط السنية مطلع السبعينيات –ليس فقط في إطار تنظيم الإخوان- برفض التعديلات العلمانية بامتياز لدستور 1969بنوايا سيئة، تعديلات أضافها حافظ الأسد لتهدئة الغالبية السنية في البلاد. وهكذا يتوجب على رئيس الدولة أن يكون من جديد مسلمًا حتى لو لم يعد الإسلام دين للدولة. ولكن هذه التنازلات المقدمة للعلماء السنيين وغيرها[44] لم تكن كافية لتهدئة هذه الاضطرابات، فهؤلاء يرون أن الأسد اغتصب السلطة ببساطة لكونه علويًا. وينسون بذلك بحسب ما يذكر المؤرخ الأنتروبولوجي السوري هيثم مناع تاريخ بلدهم، او يتناسونه. ففي عام 1936، بعد إقامة دعوى من قبل سني أفاد من العالم الديني ابن تيمية، يريد بأن يتم الاعتراف بجواز قتل العلوي ومطابقته للشريعة (القانون الاسلامي)، صدرت فتوى –قانون ديني– من قبل شيخ سني عد النصيرية أو العلويين مسلمين

[44] لا توجد تراتبية دينية لدى السنّة السوريين. هذا العامل لم يكن، فيما بعد، في صالح الإخوان المسلمين بل وظف ضدهم.

كاملين[45]، وكذلك في التشريع السوري لشهر أيلول عام 1950، عد السنة والشيعة والدروز والعلويين والإسماعيليين مسلمين جميعهم[46]. وأخيرًا باالاستناد إلى قانون 17 كانون الأول 1953 المتعلق بالأحوال الشخصية، لا يوجد فرق بين المسلمين السنة والشيعة والعلويين والإسماعيليين، تم إعطاء الدروز والمسيحيين فقط وضعًا خاصًا.

انفجرت الأزمة انفجارا عنيفًا في آذار 1979، بعد أن كانت كامنة سنوات عدة، عند تعرض مدرسة المدفعية في حلب إلى حادث مروع، أدى إلى قتل 80 متدربًا، من العلويين جميعهم. دبر الحادث إبراهيم اليوسف ضابط مدرب في المدرسة، أوضح فيما بعد بأن ما فعله شكل من أشكال الاحتجاج على سياسة التمييز التي ينتهجها النظام: «أردت أن يتوجه اهتمام المجتمع إلى الواقع غير المقبول بوجود 267 علويًّا من أصل 300 طالب ضابط في هذه الأكاديمية في الوقت الذي لا تزيد نسبة هذه الطائفة عن 10 بالمئة من مجموع السكان» بحسب ما أكده لصحيفة النذير الإسلامية.

منذ ذلك الحين، بدأت حرب بلا رحمة بين النظام والأصولية الإسلامية، في الوقت الذي يقوم فيه الإخوان بتصفية بعض الشخصيات العلوية أو الكوادر البعثية، تقوم سرايا الدفاع وغيرها من المجموعات شبه العسكرية بتنفيذ مئات الإعدامات الميدانية واعتقال الآلاف، حيث عرفت حلب وتدمر وحماة –من قبل- وجسر الشغور في عامي 1980 و1981 محنة السيد المسيح عند صلبه. ولكن ما حدث في حماه في شباط-آذار 1982 كان الأكثر فظاعة ووحشية، ومنذ ذلك الحين عرفت مأساة أهل هذه المدينة الجميلة. إذا كان ما أكده الأسد لصحيفة اللوموند بعد ذلك دقيقًا، بأنه «قامت عصابات الإخوان المسلمين بمهاجمة بيوت أعداد كبيرة من أعضاء حزب البعث والقوى التقدمية الأخرى والعمال والمهنيين، وبعد ذلك تم قتلهم في منازلهم» ومن الخطأ القول -كما فعل- أن «الدولة أدت واجبها، وراعت تحديد الخسائر بالحد الأدنى»[47]. لا نجرؤ في الواقع على تخيل ماذا سيكون عدد الضحايا لولا أن الدولة،

---

[45] Manna (Haytham), Middel Eastern Studies, April 1987, p. 212.

[46] Ibidem, p. 213

[47] Bitterlin (Lucien), op. cit., pp. 216 et 217.

بنبلها وشهامتها، لم «تلتزم» بتقليص الخسائر. لا أحد يستطيع أبدًا إعطاء الرقم الدقيق لهذه الأسابيع المرعبة. وعلى الرغم من ذلك، تتحدث المعارضة الوطنية الديمقراطية -والممنوعة- لأكرم الحوراني اللاجئ إلى فرنسا في ملف مفصل عن 25 ألف قتيل. أكثر من ألفي اسم تم عدهم، وتحديد أحيائهم التي ينتمون إليها[48]، ولكن مئات العائلات رفضت الإدلاء بشهاداتها خوفًا من انتقام جديد.

عندما سئل في مناسبات عدة عن هذه المرحلة الدموية، أثار الأسد أسباب الدولة من دون أن يرمش له جفن، مع إلقاء اللوم على الولايات المتحدة الأميركية، وتحميلها الجزء الأكبرمن المسؤولية: «في الوقت الذي تتحدث فيه عن الدفاع عن الحريات والعدالة وحقوق الانسان والحرب على الإرهاب الدولي، تدعم أميركا الإخوان المسلمين، وتكلفهم بالقيام بتفجيرات في بلدنا. اعترافات بعض الإخوان والمعدات المصادرة من أصل أميركي، وتصريحات وزارة الخارجية تشكل برهانًا على هذا التحالف»، هذا ما أعلنه إلى باتريك سيل[49].

وأكد الأسد للوسيان بيترلان: «الأميركيون والإسرائيليون أرادوا إضعاف سورية بحيث لا تتمكن من أي مقاومة للاتفاق المزعوم (كامب دافيد) في حين إنها تشكل العمود الفقري للمعارضة المناضلة ضد هذه الاتفاقات، التي تعد رمز الإذلال للعالم العربي وانتهاك حقوقه»[50].

---

[48] منشورات المعارضة الوطنية الديمقراطية السورية، كتيب منشور في شباط 1985 بمناسبة الذكرى الثالثة لمجزرة حماة

[49] Bitterlin (Lucien), op. cit., pp. 214 et sqq.

[50] Ibidem.

أصيب العلمانيون في الصميم

لكن إذ لم يتوقف الإخوان المسلمون عن دفع أثمان باهظة، باقي المعارضة خاصة كل أولئك الذين يعارضون هذا النظام الذي لا يحكمه إيمان ولا قانون، هم أيضًا أصيبوا في الصميم عبر الحملات القمعية. في 31 آذار 1980، بعد أشهر عديدة من الاحتجاج والإضرابات أعلنوا خلالها مطالبهم خصوصًا في إنهاء حالة الطوارئ، قررت النقابات أي نقابات المحامين والأطباء والصيادلة والمهندسين المنضوين في اتحاداتهم الوطنية الإضراب احتجاجًا على اعتقال بعض قياداتهم. بعد بضع أيام من ذلك، تم اعتقال غالبية هؤلاء وإلقاؤهم في السجون، ثم أصدر النظام قرارًا أعلن بموجبه في 8 نيسان حلَّ النقابات والاتحادات المهنية كلها في المستويات المحلية والمناطقية والوطنية جميعها.

كانت الحجة التي قدمها النظام لتبرير حل هذه النقابات هي: «هذه الاتحادات مخترقة من قبل القوى الرجعية». وفي منتصف نيسان أقام النظام اتحادات جديدة يحكم السيطرة الكاملة عليها. وتعرض عدد كبير من الأطباء والمحامين والمهندسين للتعذيب في المعتقلات، وقتل بعضهم بطرق وحشية. مات الدكتور عمر الشيشكلي، الوجه البارز والمحترم من الجسم الطبي السوري، وهو رئيس الجمعية السورية لطب العيون؛ في ظروف مرعبة وسحلت جثته في شوارع حماة[51].

لا يمكن الانتهاء من عد حالات التعذيب والإعدامات الميدانية والاختفاء الذي استمر من دون تفسير طوال السنوات الأولى من الثمانينيات وحتى الآن.

تعرض المدير اللبناني لجريدة الحوادث سليم اللوزي للتعذيب البشع ثم القتل وتقطيع الأطراف، لأنه أبدى استقلالية فكرية مفرطة. كان لاجئًا في بريطانيا، اختطفه عملاء الاستخبارات السورية في لبنان عندما جاء للمشاركة في تشييع والدته، حدث ذلك في 4 آذار 1981. قبل ذلك بتسعة أشهر، تمت تصفية زميله رياض طه، رئيس

---

[51] Paul (James), Rapport sur les violations des droits de l`home en Syrie pour le compte de l`organization Middle East Watch. Il s`agissait d`un manuscrit non encore pagine que l`auteur a pu consulter.

نقابة الإعلاميين اللبنانية الذي تدخل في مناسبات عدة للدفاع عن زملاء لبنانيين أوقفتهم الأجهزة السورية، تمت تصفيته هو أيضًا في بيروت.

قام حافظ الأسد في نيسان 1975، لكي يضمن هدوء الجامعات عند انعقاد المؤتمر القطري السادس لحزب البعث، بالإيحاء للمؤتمرين بتسمية أخيه رفعت رئيسًا لمكتب التعليم العالي في القيادة القطرية. حينئذ أصبح رفعت الرئيس الحقيقي لكل الجامعات السورية. لكي يعطي بعض المصداقية لوظيفته الجديدة، حصل العريف السابق بالتواطؤ مع جامعة موسكو (التي منحته دكتوراه الدولة في العلوم الاقتصادية) على شهادة الدكتوراه. نشرت أطروحته -ويعرف الجميع أنه لم يكتب منها سطرًا واحدًا- بصورة كتاب في دمشق. بعد أن عزز الحضور الاستخباراتي في الحرم الجامعي، وتجنيد مئات المخبرين، مما مكنه من تكوين فكرة أكثر دقة عن المعارضين المحتملين، بدأ رفعت بطرد العناصر غير «الموثوقة». ثم تقديم كثير من الامتيازات –تسهيل الامتحانات وتسهيل الرحلات ومداخيل نقدية إلخ-. ومارس الضغط على الأساتذة وعلى الطلاب لإدخالهم في الحزب.

لم يمنع ذلك كله الطلاب من مضاعفة مسيرات الاحتجاج في بداية 1980. اعتقل أكثر من ألف منهم في جامعة حلب حيث دخل الجيش من دون أي احترام لحرم الجامعة. تكرر السيناريو نفسه في دمشق وفي اللاذقية. واتخذت قرارات غريبة. هكذا خلال عامين، لم يعد هناك أساتذة للتشريح في كليات الطب، على الرغم من أنه ليس ثمة نقص في الجثث، بحسب ما يشير ساخرًا جام بول[52]. في نهاية المطاف، بعد إخفاق رفعت في إسكات الجامعات استبدل في عام 1980 برئيس فرع أمني آخر هو أحمد دياب. تعمل الجامعات السورية بصورة حسنة أحيانًا وسيئة أحيانًا أخرى، وهي منذ تلك المرحلة محشوة بعملاء أجهزة الأمن بألبسة مدنية، وتسير الدراسة تحت مراقبة مشددة.

---

[52] Ibidem.

طبق الأسد «خليطًا من الإرهاب والأبوية والتسلط الجاف مع بعض إشارات الانفتاح»[53]، لم يتمكن النظام دائمًا من خنق الأصوات المطالبة بالحرية حتى نهاية الثمانينيات. ففي 24 مارس 1989، نشر حوالى خمسين مثقفًا –كتابًا ومخرجين، وشعراء ومبدعين وأساتذة جامعات– من ذوي الشهرة الرفيعة، يعيشون في سورية أو في المنافي بيانًا في صحيفة السفير اللبنانية اليومية، معبرين فيه عن مساندتهم لسلمان رشدي، باسم الحرية الفكرية، التي يدافع عنها كذلك حزب البعث نفسه. لسوء الحظ بالنسبة إليهم، قبل ذلك بأيام، انتقد أسد رشدي عند سؤاله من قبل مجلة التايم. سارعت الشرطة السرية على الفور إلى هؤلاء المشككين فيما إذا كان توقيع البيان تعمد معارضة رئيس الدولة. «أجاب جميعهم بالنفي، لأن البيان تم تداوله قبل تصريح رئيس الدولة بأسابيع» (الاستخبارات المسعورة توجب عليها تخصيص دراسة شاملة لاستعراض كل ما تم نشره في الصحافة الرسمية وعلى كل ما هو متوفر في المكتبات حول هذا الموضوع).

بكل تأكيد لا يمكن انتقاد الرئيس، ولا يمكن الإشادة بالنظام العراقي، ولا يمكن التعبير عن أدنى مديح لإسرائيل. ولا يمكن الخوض في نقاشات دينية، كما لا يمكن في سورية تعميق معارفنا عن الطائفة العلوية. وأخيرًا إذا بحث بعضهم في دمشق أو في حلب عن النصوص الأساسية التي كتبت عن حزب البعث من قبل ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، فلن يجد شيئًا؛ الأول اختار أن يعيش نهاية حياته في بغداد، حيث مات عام 1989، والثاني قتل من قبل جلاوزة النظام في باريس عام 1980، فهما غير موجودين بالنسبة للسلطات السورية الحالية.

وتجدر الإشارة إلى أن المراقبة التي تعمل بطريقة اعتباطية غير متماسكة – يمكن أن تعرض مسرحيتا ماكبث أو ريتشارد الثالث من دون مشكلات في سورية لأن طريقة معالجة هاتين المسرحيتين للاستبداد هي في غاية البراعة بحيث لا تفهمها أجهزة الاستخبارات– وهذا ما يؤكد الضعف الأيديولوجي للنظام، وعدم قدرته على الاحتواء الكامل للمعارضين المثقفين.

---

[53] Ibidem.

ولكن عندما ندقق في مليارات الليرات السورية التي يبددها النظام عندما يضعها من أجل تشديد القبضة على الشعب السوري، يمكننا القول مع إليزابيت بيكار إن جيشًا «يخصص هذا القدر من قدراته ونشاطاته في المماحكة الداخلية لم يعد بإمكانه القيام بمهمته في حماية نزاهة الدولة والمحافظة على الوحدة الوطنية» [54].

[54] Picard (Elizabeth), Syrian politics : internal structure and process, 25 years of ba`athist regime- The role of the Army revisited, Conférence annuelle de la MESA, novembre 1986 aux Etats Unis

رابعًا: خمسة عشر عامًا في لبنان

عندما سيطر حافظ الأسد على السلطة في تشرين الثاني 1970، وجد قبل ذلك الفرصة لإعلان الخطوط العريضة لما يتوجب أن تكون عليه السياسة السورية الجديدة. أعلن ذلك خلال المؤتمر الاستثنائي للحزب (تشرين أول/تشرين ثاني 1970) الذي طرده وصديقه طلاس من صفوفه، وكرر ذلك في خطابات عدة ألقاها في الأسابيع التي تلت الانقلاب. ما يبعث على الدهشة عند قراءة مداخلاته وخطاباته تشديده المستمر على «الحرية» أو «الكرامة» للمواطن. وتجاهل مفهوم الصراع الطبقي العزيز على قلوب سابقيه، ليحل محله كلام فضفاض عن الإنسانية لا يعني شيئًا[1].

إقامة التضامن العربي تشكل النقطة الأساسية الثانية في خطابه، كان يرمي إلى إنهاء عزلة سورية، وأول مبادراته هي الانضمام إلى اتحاد الجمهوريات العربية، ويشمل مصر وليبيا والسودان. في المستوى الاقتصادي، ترجمت هذه الثقة المعلنة بالفرد «بالانفتاح» الاقتصادي، لتمكين كل فرد من التعبير عن مهاراته من دون عرقلة ذلك بالعقبات التي تفرضها الدولة.

وأخيرًا، في المستوى السياسي، يوافق البعث على التخلي عن احتكاره لمصلحة الجبهة الوطنية التقدمية، ويمكن أن تنتسب إليها التشكيلات اليسارية الراغبة في ذلك كلها. بالتوازي مع ذلك، وفي سياق النظام الرئاسي الذي يريد تبنيه، يلتزم بإقرار دستور دائم.

أما المعارضة السورية التي كانت تعبر بصورة أساسية من خلال الجامعات، فكانت ترى أن خطاب الأسد واجهة دخانية واسعة، موجهة للتغطية على شهية الطاغية. تأخذ المعارضة على الأسد، الانفتاح على البورجوازية المحلية، وعلى الرجعية العربية، وإرادته في المصالحة مع «الإمبريالية العالمية»، وتحويل الحكومة أو السلطة إلى هدف نهائي بحد ذاته. باختصار إنهاء «الطليعة الثورية» للحزب بقطع صلاتها مع الجيش خاصة، حيث أصبح الأسد وحده سيد اللعبة.

---

[1] فيما يتعلق بأفكار حافظ الأسد بعد انقلابه في تشرين الثاني 1970، يمكن العودة إلى خطابه في 5 كانون الأول 1970 والتي نشر في جريدة البعث في 6 كانون الأول 1970.

على الصعيد العربي، مات ناصر من دون أن يترك وريثًا، على الرغم من أن السادات ظهر أقل غباء مما ظنه بعضهم. قام حافظ الأسد بالسيطرة على السلطة في 16 تشرين الثاني 1970، أي بعد شهر ونص من رحيل عبد الناصر.

ليس التخلص من ظل ناصر الكبير بالأمر اليسير، فبعد أن أزاح منافسيه، يركز الأسد -بصبر وبمنهجية- سلطته. لم يكن همه الأول أن يدير سورية بعناية -حيث لجأ إلى بعض الإجراءات التي تؤدي إلى الانفراج وتخفف التوتر الذي تركه سابقوه- فإن لم يتمكن من احتلال المكان الذي تركه «رجل السويس» خاويًا، فعليه الوجود على الأقل في الصفوف الأولى بين الرجال الذين يحسب حسابهم في هذه المنطقة من العالم.

يعد ديغول بالنسبة للأسد رجلًا مخلصًا، وأب «فرنسا الحرة»، الإدارة لا تثير اهتمامه، ولكنه بخلاف الجنرال ديغول، يرى الوسائل جميعها مشروعة وجيدة، ليتمكن من التفرغ للمهمة المشرفة الوحيدة بحسب رؤيته: أن يجعل من سورية قوة إقليمية لا يمكن تجاهلها.

يحضّر الرئيس السوري نفسه للحرب مع إسرائيل بالتعاون الكامل مع أنور السادات. مكنه السلوك المشرف لقواته في عام 1973، ومزاياه كمفاوض، من اكتساب بعد دولي كان يطمح إليه. إن تأثيره في كسب إعجاب هنري كيسينجر، الذي مدحه غير مرة، والزيارة التي قام بها ريتشارد نيكسون في 14 و15 حزيران 1974، في لحظة اقترابه من السقوط بسبب فضيحة ووتر غيت، ذلك كله أراح الأسد في دوره الإقليمي، وعزز منزلته رجل دولة ذي منزلة عالمية.

في هذه الظروف بدأت الأوضاع تتدهور في لبنان. وأصبح مصير رئيس الدولة السوري مرتبطًا بعمق بمصير هذا البلد البائس.

سورية تدخل إلى لبنان

انفجرت الحرب الأهلية اللبنانية في 13 من نيسان 1975، وقد كانت متوقعة منذ مدة طويلة. إن مقتل 27 فلسطينيًا من قبل حزب الكتائب، بعد 90 دقيقة من محاولة قتل بيير الجميل رئيس حزب الكتائب اللبناني، الذي أدى إلى مقتل 4 أشخاص؛ شكل الشرارة في البارود. استمر الجزء الأول من هذه الأزمة المخيفة في الوقت الحاضر بصيغ عدة، وسوف يمتد متقطعًا لمدة 18 شهرًا.

يتابع منذ البداية، حافظ الأسد في مقر الرئاسة في دمشق باستمرار تطور هذا الوضع. ومن دون مشاعر خاصة؛ شاهد الضربات الأولى التي تعرضت لها وحدة -ما كان يسميه بعضهم بمبالغة- سويسرا الشرق الأوسط. في أثناء 53 شهرًا في السلطة، اكتسب عبر امتحانات قاسية، مثل حرب تشرين، خبرة لا تقارن. وإذا كان بإمكانه التفاوض على اتفاق مشرف لفك الارتباط مع إسرائيل، فإنه يدرك أنه بذلك لم يحل أي مشكلة، وأن حل مشكلة الشرق الأوسط يبقى دائمًا بعيد المنال.

تصدر الفلسطينيون المشهد بالتأكيد، منذ خطاب زعيمهم ياسر عرفات في تشرين الثاني 1974 أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. ولم تكن قضيتهم في يوم من الأيام لهذا المستوى من الشعبية. وليست لدى الأسد أوهام عن الحماس الذي يثيره الفدائيون في العالم الثالث، وفي الأوساط التقدمية الغربية. أما بالنسبة للأميركيين وللإسرائيليين، تبقى القيادة الفلسطينية معلمًا خطرًا للإرهاب، من المستبعد الشروع معها في مفاوضات. الأسد أيضًا لديه كثير من التحفظات على عرفات وأصدقائه، فتكوينه البعثي ومهنته العسكرية ومزاجه كرجل منظم، جعلاه لا يميل كثيرًا إلى الفوضى الناعمة التي أثارها الفلسطينيون في لبنان منذ طردهم من الأردن في عامي 1970-1971. إضافة إلى ذلك، سجن أسد وأصدقاؤه السياسيون فلسطينيين كانوا مقلقين، ومن بينهم مسؤولون كبار مثل جورج حبش. كما إن شخصية عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، لا تعجبه إطلاقًا؛ زاهد ومتحفظ ومتجهم، وليس لدى الرئيس السوري أي حب للفلسطيني. فهو يرى أن هذا الكوميدي (عرفات) متزلف شديد العذوبة لدرجة لا يمكن أن يكون معها صادقًا.

وتجدر الإشارة إلى أن الأسد فهم في نهاية عام 1973، بأنه لم يعد ممكنًا انتظار أي شيء من مصر، حيث قرر رئيسها أنور السادات أن يمضي وحده بعد اختياره المعسكر الأمريكي بصورة حاسمة، لكن إذا لم يكن بإمكانه فعل الكثير ضد السياسة المصرية، فهو يطمح، بالمقابل، إلى توسيع نفوذه بما يعد مجاله الإقليمي، حيث يشكل لبنان المعضلة الأساسية. وعلى الرغم من أن هذه الخلافات مرت بصمت كامل، لم ينتظر الجنرال أسد حتى عام 1975 ليهتم بلبنان، فأغلق الحدود معه مدة طويلة بعد حرب تشرين 1973 وفي بداية عام 1974، ليضغط على حكومة بيروتن، ويضع بعض الأسلحة في جنوب لبنان. رفض سليمان فرنجية الرئيس اللبناني منذ 1970 وهو صديق شخصي لحافظ الأسد ذلك تحت ضغوط غالبية المسؤولين المارونيين، إلا أن أسد الاستراتيجي الجيد، فهم بأن مناوئيه ومنافسيه جميعهم سيركزون هجماتهم عبر البوابة اللبنانية الأضعف في العالم العربي.

في الواقع، بدأ البعد الدولي الذي اكتسبه الأسد يزعج الكثيرين: الاسرائيليين والفلسطينيين واللبنانيين من اليمين إلى اليسار والعراقيين .... ويجب أن ندرك أن كل تلك الأطراف وعملاءهم يعملون على أرض ملغومة بتناقضات خطرة تناقضات اجتماعية وسياسية، لفهم أفضل للتدهور السريع الذي أصاب الوضع اللبناني [2].

نظر الرئيس السوري آنذاك، وهو لا يملك أي وسيلة لمواجهة العمل التخريبي لإسرائيل أو للعراق، ومهتم اهتمًاما خاصًا بالتحالف الذي نشأ بين منظمة التحرير الفلسطينية وكمال جنبلاط، سيد الجبليين الدروز وزعيم اليسار اللبناني؛ نظر إلى هذا التحالف بدرجة عالية من الشك بقدر ما لدى الزعيم الدرزي من طموح، فهو يتمتع بشعبية كبيرة، تتجاوز بكثير معقله الأصلي في الشوف، ويحلم بسحق اليمين المسيحي ليصبح ملهم الدولة اللبنانية العلمانية الحديثة. في ربيع 1976، كاد أن يصبح الحلم حقيقة، حيث تراجعت القوات المسيحية في الجبهات جميعها، في حين بدأ الحزب التقدمي الاشتراكي مدعومًا بقوة من الفدائيين التوغل في الجبال المسيحية.

---

[2] كان لبنان حديقة بلا أسوار، هذا ما أفصح عنه شفيق الحوت، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة اللبنانية، في عام 1983.

اختار حافظ الأسد الاصطفاف إلى جانب اليمين المسيحي ضد اليسار اللبناني وحلفائه الفلسطينيين نتيجة الخوف من رؤية قوة تكبر وتتطور يمكنها أن ترفض نفوذه. كان الانفعال والغضب في سورية بلا حدود، حيث لم يفهم الناس كيف يمكن للرئيس أن يأتي لإنقاذ الميليشيات المسيحية التي استفادت من الدعم الإسرائيلي. في الواقع، بلا شك يخشى الأسد أن انتصار الفلسطينيين وحلفائهم قد يقود إسرائيل إلى التدخل المباشر في الأزمة اللبنانية من دون أن يتمكن جيشه من تحريك ساكن، لذلك قرر التحرك. في تحليله للوضع، ومن المحتمل أنه استخف بردود الفعل داخل سورية، فرأى الأسد أنه لا الولايات المتحدة الأميركية ولا إسرائيل يمكنهما القبول بهزيمة المعسكر المسيحي.

دخل الجنود السوريون إلى لبنان في 31 أيار 1976، وبلغ عدد القتلى عشرات الألوف، والجرحى مئات الألوف، والأضرار بمئات المليارات من الليرات اللبنانية، في مرحلة ما زالت الليرة اللبنانية تساوي 30 سنتًا أميركيًا[3]. انفجر التعايش الديني الحساس سريع العطب، وتطايرت شظاياه مدة طويلة. فكانت بعض المجازر المقززة، بمثل «السبت الأسود» في نهاية 1975، حيث دفع المئات من المسلمين حياتهم في بيروت الشرقية انتقامًا لمقتل ثلاثة شبان مسيحيين، هذه المجازر أكملت مشهد تقسيم شعب لم يكن يومًا موحدًا. وكان لمجازر أخرى طابع سياسي، إذا تجرأنا على التعبير، قسمت هذه المجازر البلد إلى قسمين: تدمير أحياء الفقر والصفيح في الكرنتينا، وهي جزيرة من البؤس الكردي مؤطرة بعناصر تقدمية في قلب القطاع المسيحي، تبعها بعد بعض الوقت تدمير مدينة الدامور المسيحية في قطاع يسمى قطاعًا «إسلاميًّا تقدميًّا». فيما يتصل في هذه المذبحة الأخيرة التي ذهب ضحيتها مئات من القتلى، يؤكد اللبنانيون أن عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السوري في ذلك الوقت ومكلف من قبل الأسد بالملف اللبناني، ترك الصاعقة -وهي منظمة فلسطينية تحت السيطرة السورية- تتصرف في الدامور، لأن الرجل القوي في الدامور كميل شمعون، ماروني

[3] في لحظة الهجوم السوري على المنطقة المسيحية التي يسيطر عليها ميشيل عون، كان الدولار يعادل أكثر من ألف ليرة لبنانية. بعد سقوط عون ارتفعت قليلا إلى 750-800 للدولار، قبل إن تنخفض من جديد بسبب حرب الخليج. في بداية آذار 1991، وصل الدولار إلى 1035 ليرة.

ورئيس حزب الوطنيين الأحرار (من اليمين المسيحي) سخر من خدام. شمعون سياسي عريق ماكر وفاسد، ولكن لا تنقصه لا الشجاعة ولا السخرية، في الواقع كان شمعون قد صرح أن خدام «حصل على شهاداته من جامعة سعسع»، (بلدة تقع في هضبة الجولان).

ولعل العامل الأخير الذي أدى إلى التدخل السوري هو الصداقة القديمة التي تربط الأسد بالرئيس اللبناني سليمان فرنجية، ماروني من شمال لبنان مقرب تقليديًّا من دمشق. وعندما حدثت قطيعة بعد سنتين بين الأسد والجبهة المسيحية، تخلى فرنجية عن كتائب بيير الجميل وعن «نمور» كميل شمعون، وحافَظَ دائمًا على علاقات جيدة مع رئيس الدولة السوري. لم يواجه جنود الأسد صعوبات تذكر لإعادة التوازن العسكري في لبنان، حيث وقع اتفاق بين النظام السوري والمقاومة الفلسطينية في دمشق، في 29 تموز 1976، في حين يستمر الحصار في بيروت على تل الزعتر من قبل الميليشيات المسيحية، هذا المخيم المؤلف من عشرة آلاف نسمة، نصفهم من الفلسطينيين والنصف الآخر من اللبنانيين، هو الجيب «المعادي» الأخير في القطاع المسيحي. لا السوريين الذين يخيمون بحذائه، ولا الإسرائيليين الذين لديهم بعض «المراقبين» حركوا إصبعًا صغيرًا للمحافظة على حياة مئات المدنيين في لحظة سقوط المخيم بأيدي الكتائب وحلفائهم بعد خمسين يومًا من المقاومة.

بين 16 و18 تشرين الأول التالي، نظمت العربية السعودية في الرياض قمة مصغرة بمشاركة مصر وسورية. وتم إقرار تشكيل قوة الردع العربية، التي اشتهرت باسم «الردع»، والمؤلفة من 30 ألف رجل معظمهم سوريون، ولكن تتضمن أيضًا كتائب سعودية وسودانية ومن الإمارات العربية المتحدة، ممولة من ممالك النفط، شكلت هذه القوة لتفصل بين المتحاربين. وبذلك انتهى الجزء الأول من الحرب الأهلية بصورة رسمية.

مستودع حقيقي

تركت الحرب في لبنان إلى جانب نتائجها المأسوية على البلد والشعب، كثيرًا من الإحباطات والصدمات. بعد أن أنقذتهم سورية في اللحظات الأخيرة، رغب المسيحيون بدفع مكاسبهم حتى النهاية، ولكن الأسد لا يريد أكثر من انتصار محدود لحلفائه الجدد الذين لم يرغب في هزيمتهم. شعر الفلسطينيون الذين كانوا قاب قوسين من سيادة لبنان بواسطة التقدميين اللبنانيين؛ بالمرارة حقًا، لقد فقدوا السيطرة على بيروت. انتشر الجيش السوري، الذي تعلم الفلسطينيون كراهيته على امتداد الطريق الساحلي حتى نهر الزهراني على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من صيدا. لا يمكن لجنود حافظ الأسد تجاوز هذا «الخط الأحمر» وذلك استنادًا إلى اتفاق غير مكتوب عقد مع إسرائيل بواسطة الولايات المتحدة، وكل خرق لهذا الاتفاق الذي أصبح واقعًا ملموسًا يعد من قبل الجيش الإسرائيلي دعوة للحرب.

عاش لبنان منذ 1976 وحتى 1982 اضطرابًا مزمنًا تحت السيطرة المزدوجة- بصورة مباشرة وغير مباشرة- لسورية وإسرائيل. كان لبنان سابقًا عرضة في الحقيقة للعبة القوى الكبرى وللقوى الإقليمية إلى حد بعيد، والآن يزداد اعتماده على القوى الخارجية باطراد يومًا بعد يوم. ولا يوجد تشكيل سياسي أو طائفة غير مرتبطة ماليًا وعسكريًا بالاتحاد السوفياتي أو بالولايات المتحدة أو بسورية أو بالعراق أو بالعربية السعودية أو بالأردن أو بليبيا أو بمصر أو بإسرائيل أو حتى بجهات أجنبية عدة. إذا كانت بعض المنظمات الفلسطينية مرتبطة عضويًا ببعض الدول، بمثل الصاعقة المرتبطة بدمشق، وجبهة التحرير العربية المرتبطة ببغداد، وإذا كانت بعض الميليشيات تتلقى السلاح من بعض أو من آخرين، بشكل تلقائي أو استنادًا إلى التحالفات أو استنادًا إلى التوتر المحلي أو الإقليمي، فهذا التهريب الكبير للسلاح الذي ينتج عن هذه العلاقات الغريبة كان يحدث بوجه عام بأكبر قدر من السرية. يكلف هذا كله ثروات ضخمة بالتأكيد، ولا يكفي إسهام بعض أصحاب المليارات لإدارة الآلة[4].

---

[4] كما يمكن أن نتخيل، حيث لا يوجد احصاءات رسمية عن الإمكانات المالية لهذه الجماعة أو تلك. يقدر الخبراء ب 250 مليون دولار المساعدة السنوية التي تتلقاها فتح وزعيمها ياسر عرفات من المملكة العربية السعودية وحدها في المدة بين 1973 و1982 . وكذلك الأمر بالنسبة للجنرال عون الذي تلقى أكثر من مليار دولار مساعدات وذخائر من العراق بين 1988-1990 .

فالدولة اللبنانية إذًا هي التي تدفع أولًا ثمن هذه العمليات المشكوك بها. في هذا الصدد، تقتطع الميليشيا المسيحية التي تسيطر على نصف مرفأ بيروت وعدد من الموانئ السرية الواقعة بين العاصمة والمدينة الساحلية البترون التي تبعد 60 كيلومترًا إلى الشمال، تقتطع هذه الميليشيا حصة الأسد.

ومن الغريب أنّه ربما يكون أكثر العناصر التي تحمل السلاح فقرًا هم الجنود السوريون. في بيروت حيث ما زالت مظاهر الثروة والازدهار مستمرة، والحياة الليلية تحتفظ ببعض سحرها على الرغم من الفوضى الواسعة، يمكن أن نتخيل بسهولة الإحباط الذي يصيب القوات السورية، مع مرتب يعادل 300 فرنك فرنسي شهريًا، فالمتع التي تقدمها المدينة ليست في متناول اليد. سيكون صعبًا الوصول إلى آخر الشهر من دون اللجوء إلى النصب والاحتيال للحصول على صغائر الأشياء، وبإرهاب البسطاء من الشعب اللبناني، لقد فهم الضباط بسرعة الفوائد التي يمكن جنيها من هذه الأوضاع.

وصل زهير محسن إلى حد من الفساد جعل رفاقه الفلسطينيين الذين يزدرونه يلقبونه بزهير «العجمي» نظرًا لولعه الشديد بالسجاد الإيراني. قضى محسن مقتولًا في (فرنسا) في 25 تموز 1979 عند خروجه من بناء فاخر في المدينة.

وصادر آخرون أقل شهرة شققًا فخمة، ليؤجروها فيما بعد بأسعار عالية، أو يقوموا أحيانًا بتنظيم طريق سرقات السيارات التي يعثر عليها بعد أيام في قرية نائية في سهل البقاع. إما أن تذعن وتشتري سيارتك بسعر مرتفع جدًا، أو أن يتم تغيير ملامحها لتتجاوز الحدود السوري، ويتمتع بها عقيد أو لواء في الجيش. لا يأكل الرئيس السوري الأسد من هذا الخبز، ولكنه يغمض عينيه عن هذا النهب المنظم، وكان من أعلامه أخوه رفعت وعدد كبير ممن هم في خدمة هذا النظام الغريب.

كامب دايفيد والنصر الدبلوماسي لإسرائيل

في الواقع، الرجل الأول في سورية لديه الكثير من المتاعب الأخرى غير تلك المتعلقة بتجاوزات قواته في بلد لا يمثل سوى مصدر للمشكلات. فور تخلصه من كمال جنبلاط، الذي قتل في الشوف موطنه الأصلي في 16 آذار 1977 من قبل عملاء سوريين [5]، استقبل حافظ الأسد أنور السادات، وعلم بغضب شديد أن الريس ينوي زيارة القدس في الأيام القادمة، بهدف خلق «صدمة سيكولوجية»، يمكن أن تدفع ديناميكية السلام[6]. في 19 تشرين الثاني 1977، ذهب السادات فعليًا إلى القدس حيث ألقى خطابًا أثر بعمق في الرأي العام الغربي. هذه «الفعلة التاريخية» بالنسبة للبعض، أو «تنازل غير مجدي» لكي نأخذ التعابير الأقل قسوة من الانتقادات العربية. إذ لم يعرف مناحيم بيغن، ولا في أيّ لحظة، الارتقاء إلى مستوى ضيفه. شعرنا قبل توقيع اتفاق كامب دايفيد بعشرة أشهر، بأن المراهنة خاسرة، بيغن يريد الزبدة إضافة إلى ثمن الزبدة، وسيحصل عليهما فعلًا.

لم يفاجأ كثيرًا بمبادرة السادات الذي تعلم ازدراءه في أثناء حرب تشرين 1973 [7]. فهم الأسد مباشرة إلى أي مدى تشكل الهزيمة المصرية ضربة قاسية. فهي لا تقسم العالم العربي فقط، بل تضعفه إلى درجة مروعة على المستوى العسكري. قبل ذهابه في أيلول إلى كامب دايفيد، توجب على السادات أن يقبل من دون أن ينبس بكلمة، في آذار 1978 رؤية 35000 جندي اسرائيلي يجتاحون لبنان وصولًا إلى نهر الليطاني، مما أدى إلى نزوح مئات الآلاف من اللبنانيين والفلسطينيين من جنوب لبنان نحو بيروت ليسكنوا الشقق الفارغة [8].

---

[5] أدى هذا الاغتيال إلى مقتل أكثر من مئة مسيحي من سكان الشوف من قبل الدروز الذين صعقهم الألم. لم يفض التحقيق إلى أية نتيجة.

[6] Karim Bakradouni, op. cit., pp. 126 a 129. استنادا إلى هذا المؤلف، أفصح الأسد بأن هناك من اقترح عليه اسقاط طائرة السادات، إلا أنه رفض ذلك.

[7] Patrick Seale, op. cit., p. 304. أفصح الأسد إلى محادثيه بأنه ضاق ذرعًا بتسرع السادات: كان يستعجل وقف المعركة في حرب اكتوبر 1973، ويستعجل الذهاب إلى القدس من دون أن يناقش ذلك. هذا ما ذكره سيل بعد محادثاته مع الأسد.

[8] تم طرد مدير احدى وكالات الأنباء العالمية من لبنان، لانتقاده اللاذع الإذن بالذهاب لمسؤولين لبنانيين، في مقال بعنوان: «احزر من سيأتي للعشاء هذا المساء».

تأجل حلم الأسد بموقع سياسي إقليمي كبير، يكون هو مؤسسه إلى أمد مجهول، لأن مصر قررت أن تمضي وحدها. منذ الآن يجب أن يتحول إلى الدفاع والتراجع عن اتخاذ المبادرة. وينتظر على الأقل الاستفادة من ذلك الحدث إلى الحد الأقصى.

عندما ينظر المؤرخون في القرن الحادي والعشرين إلى العلاقات الدولية في النصف الثاني من القرن العشرين، سيرون بلا شك أن توقيع اتفاق كامب دايفيد، ليس فقط من حيث أهميته الكبرى التي أثرت في هذه المرحلة، ولكن بوجه خاص انتصارًا دبلوماسيًّا لإسرائيل وانكسارًا للعالم العربي بما فيه مصر [9].

منذ عام 1972 بعد طرد 15000 خبير عسكري سوفياتي، أظهر السادات الطريق الذي التزم اتباعه، قلب التحالف رأسًا على عقب لمصلحة الولايات المتحدة. في مسار حرب تشرين نفسها، برفضه الدفع إلى الأمام بالمكاسب التي تحققت على الأرض في الأيام الأولى، أظهر بجلاء قلقه في تجنب الاصطدام بواشنطن وجهًا لوجه. وفي عام 1975 قطع خطوة جديدة بتبني سياسة الانفتاح الاقتصادي، الانفتاح الشهير الذي يحقق أمنيات أصدقائه الأميركيين الجدد. لقد أخرجت المبادرة لنيل إعجاب الرأي العام الغربي الجاهز للاشتعال دائمًا من أجل مبادرات لا يدرك أبعادها الحقيقية، فالذهاب إلى القدس يشكل النقطة القوية في هذه المسرحية التي لن تتوقف أصداؤها، لم يبق لخليفة جمال عبد الناصر سوى الذهاب إلى كامب دايفيد ليوقع فيه «الاتفاق المخزي» [10]، أو على العكس من ذلك، الاعتراف أمام الشعب بأنه سلك طريقًا خاطئة. لا يغير استرداد مصر شبه جزيرة سيناء شيئًا في القضية. في الواقع، السيادة التي تمارسها في هذه المنطقة هي سيادة محدودة بموجب هذا الاتفاق، حيث تتضمن بنودها تحييد مصر عسكريًا في سيناء.

---

[9] الجمعية الدولية للقضاة الديمقراطيين والقضاة الفلسطينيين، رأت في اتفاقية كامب ديفيد تحديًا للقانون الدولي. حيث تم تحليل بنية هذا الاتفاق وتناقضاته مع المبادئ القانونية ومع الالتزامات الدولية.

[10] اتفاق كامب دافيد هكذا سمته وسائل الإعلام العربية معظمها.

يمكن لسورية أن تعتقد -وهي محقة- أن إسرائيل التي يمكنها الاعتماد على الولايات المتحدة للمراقبة الدائمة، لمدى التزام مصر بالبنود العسكرية لهذا الاتفاق[11]، يمكنها الآن أن تتفرغ بصورة تامة للجبهتين مصدر المخاوف: الجبهة الشمالية اللبنانية السورية والجبهة الداخلية في الأرض المحتلة الضفة الغربية وقطاع غزة. إلا أن الفوائد (بالنسبة لإسرائيل) لا تتوقف هنا. فالسلام المنفصل مع مصر مكّن إسرائيل من اللعب على الانقسامات العربية التي أخذت حجمًا غير مسبوق، فوزن وادي النيل كان قويًا في العالم العربي لدرجة أن بلدان المشرق وبلدان المغرب لم يكونوا في وضع يمكنهم من القطيعة التامة مع القاهرة. فالعرب في معظمهم، من دون أن ننسى منظمة التحرير الفلسطينية، أعادوا تدريجيًا علاقاتهم المعتادة -على الأقل حتى غزو الكويت من قبل العراق في آب 1990– مع الدولة العربية الوحيدة التي تقيم سفارة لها في تل أبيب، وتستقبل في عاصمتها بعثة دبلوماسية إسرائيلية[12].

ويمكن التوقع، فإن زيارة السادات للقدس لم تؤد، بالنسبة لسورية، سوى إلى مشكلات متلاحقة. تقوم إسرائيل، بعد اجتياح آذار 1979، باحتلال شريط حدودي تمنع القبعات الزرق –من القوات الدولية التابعة للأمم المتحدة في لبنان- من الدخول إليه، كما إن وضع الجنود السوريين من قوات الردع في بيروت الشرقية تتدهور بسرعة إلى درجة وجدوا أنفسهم مضطرين لإخلاء هذا القطاع في مطلع عام 1979. بالتوازي مع ذلك، يتطور إقامة المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة من دون توقف وبسرعة، حملت الرئيس كارتر على إبداء قلقه من تأثيرات ذلك في عملية السلام، والاحتجاج علنًا في 18 كانون ثاني 1979.

---

[11] أكثر من ألف أميركي مزودين بأجهزة مراقبة متطورة جدًا، ينتشرون في الجزء الشرقي من سيناء.

[12] بعد القمة العربية المنعقدة في عمان، في تشرين الثاني عام 1987، تم تسريع التطبيع بسبب الحرب العراقية –الإيرانية، وبسبب المساعدة القوية التي قدمتها مصر للعراق في ذلك الحين.

في الوقت الذي تصالح العراق وسورية لوقت قصير في معمعة كامب دايفيد بتوقيع وثيقة العمل القومي في 26 تشرين الأول 1978 التي لم تدخل أبدًا حيز التطبيق، في هذا الوقت يدخل آية الله الخميني من نوفل لوشاتو –فرنسا- إلى طهران منتصرًا في بداية شباط 1979.

الخميني والثأر من كامب دايفيد

في أقل من خمسة أشهر بعد انتهاء حال الحرب بين إسرائيل ومصر، شكل سقوط الشاه انقلابًا من جديد في معطيات وتوازنات الشرق الأوسط. إذا كان انتصار آية الله الخميني قد قوبل بحماس في العالم العربي-الإسلامي، الذي رأى فيه ثأرًا من كامب دايفيد، فإن عددًا من زعماء الدول العربية ساورهم شعور بالقلق من جراء ذلك، خصوصًا في ممالك النفط في الخليج، حيث الحذر الدائم من الفرس، متدينين كانوا أم لا. إلا أن الأكثر قلقًا، من بين الزعماء العرب جميعهم، هو صدام حسين. فالخميني الذي طرده صدام من منفاه في النجف قبل بضع سنوات، لأنه أصبح مصدرًا للقلاقل؛ يُكِنُّ له عداءً مستحكمًا. فالعلاقات بين البلدين تدهورت بسرعة. وتحت حجة متأرجحة لوضع حد للاستفزاز المتصاعد لعملاء الخميني في العراق، ولكن في الحقيقة مع الأمل الخفي بتحطيم نظام الملالي، حيث الجيش الإيراني لم يعد سوى ظل لنفسه، اجتاح صدام حسين إيران في أيلول 1980.

في الوقت الذي يبدو أن كل شيء يجري بعكس ما يتمناه، فالمشكلات الداخلية، بحسب ما رأينا، تتفاقم لدرجة خطرة، وتزداد الهزائم في لبنان، في هذه اللحظة يختار حافظ الأسد أن يأخذ موقفًا داعمًا لإيران ضد العراق. في حين يغرق في صراع بلا رحمة ضد الإخوان المسلمين في بلده، لم يتردد لحظة واحدة في دعم آية الله الخميني، في الوقت الذي أدى اتفاق كامب دايفيد إلى عزله بدرجة خطرة على الساحة الدولية، فلم يتردد الأسد لحظة واحدة أيضًا، في المخاطرة بزيادة عزلته، والمخاطرة بعلاقاته مع مموليه الخليجيين، بسبب دعمه لملالي طهران.

وسيشرح الأسد، فيما بعد لأحد سفرائه في أميركا اللاتينية الذي يأمل أن يفهم بوضوح أهداف الرئيس، ليعمل على الترويج للرسالة في أوساط الجاليات العربية، العراق في هذه الأزمة هو المعتدي بوضوح. كما إن سورية وجدت الفرصة للتحالف مع قوى جديدة معادية للامبريالية وللصهيونية. ظهر موقف مميز جليًا بعد عشر سنوات، أي في مرحلة المصالحة التاريخية بين بغداد وطهران. لعب حافظ الأسد في هذه المناسبة أروع خطواته الدبلوماسية، ووجد مزية أخرى بطرح نفسه وسيطًا بين إيران وممالك النفط في الخليج.

كانت نتائج هذا التحالف الغريب السوري-الإيراني مرة أخرى سلبية على لبنان، مع التطور الفظيع لحزب الله.

آرييل شارون في بيروت

جاء الاجتياح الإسرائيلي للبنان في حزيران 1982، من جديد ليهدد التوازن الهش الذي كان قائمًا. خلال أيام قليلة استقبل مئة ألف عسكري إسرائيلي تقريبًا استقبلوا -يجب التذكير بذلك- بذرّ الأرز من قبل عدد كبير من الشيعة، وطردوا الفدائيين من جنوب لبنان. لم يتمكن الجيش السوري المنتشر على الساحل من بيروت إلى الزهراني، سوى من تحضير أشيائه فقط، والانسحاب تكتيكيًا انسحابًا غير مشرف. لم تقدم أي مساعدة ولا في أي لحظة للمقاتلين الفلسطينيين، لا من قبل المدفعية ولا من قبل المشاة. فقط تدخل الطيران السوري بشكل كثيف، ولكن التقدم التكنولوجي تجاوزه بالكامل فتعرض لخسائر كبرى؛ أسقطت أكثر من 80 طائرة (الزج بهذا العدد من الطائرات التي تساقطت من دون جدوى عسكرية، يحمل على الاعتقاد بأن الأسد أراد التخلص من الطيارين المشكوك بولائهم معظمهم-المترجم).

فهم الفلسطينيون بسرعة بأنه يجب ألا ينتظروا شيئًا لا من «حلفائهم» اللبنانيين، ولا من «حماتهم» السوريين. فأخلوا مواقعهم معظمها بطريقة منظمة، لينسحبوا إلى بيروت حيث بدأ حصارها المروع. تم تركيز مدرعات آرييل شارون ومدفعياته على

المرتفعات المشرفة بالعاصمة اللبنانية جميعها، وبدأت بقصف المخيمات الفلسطينية، وعدد من أحياء بيروت الغربية.

في أثناء ذلك، خلقت سيطرة البحرية الإسرائيلية على شواطئ بيروت انطباعًا عند الناس بأنهم أخذوا في حصار محكم، الكتائب وزعيمها بشير الجميل مرشح لرئاسة الجمهورية، كان ينظر إلى المستقبل، لذا امتنع عن التدخل، وخاطر بإغضاب قيادة الأركان الإسرائيلية.

بالنسبة للأسد، الذي فقد السيطرة بضربة واحدة على ثلث لبنان، كانت الجرعة مريرة. ولكن الدوافع غير المعلنة للشعور بالرضا ليست بالقليلة. ما لم يتمكن جيشه من فعله خلال ست سنوات من وجوده في لبنان، من 1976 إلى 1982، نجح بفعله الاسرائيليون بأقل من ثلاثة أشهر: تصفية أي وجود فلسطيني مسلح بين بيروت وصور. سينهي الأسد خلال 15 شهرًا من أيلول 1982 إلى كانون الأول 1983 فيما تبقى من لبنان العمل الذي بدأته إسرائيل.

بعد ثمانية أيام من مغادرة ياسر عرفات ورجاله تحت وابل من الهتافات، في 22 آب 1982، غادر ما تبقى من القوات السورية من قوات الردع العربية بيروت إلى سهل البقاع، بناء على طلب الرئيس سركيس. حسنًا، كانت تلك المرة الأولى التي يحقق فيها الرئيس السوري طلبًا لرئيس الدولة اللبنانية، وحقيقة الأمر أن المبعوث الأميركي فيليب حبيب مرّ قبل ذلك من دمشق.

انتخب بشير الجميل رئيسًا في 23 آب 1982، بعد أن ضمن صوتين اثنين من بين ثلاثة برلمانيين بموجب التشريع اللبناني «الطريقة اللبنانية» [13]، وأكد غسان تويني في صحيفة النهار، أن بشير يعيش صراعًا بين موجبات تحالفه مع إسرائيل وتصميمه على متابعة سياسة الانفتاح على العالم العربي وعلى الإسلام اللبناني، خصوصًا أن سركيس والأميركيين يوصون بذلك من دون توقف[14]. وفي 2 من أيلول، التقى بشير «سرًا» في نهاريا شمالي إسرائيل؛ مناحم بيغن، وبمثل ما كتب تويني أيضًا، إن الخطاب الذي أملاه عليه رئيس الأرغون السابق «جعله يدرك فجأة التعارض بين

[13] بحسب النصاب القانوني يجب موافقة ثلثي النواب، يمكن أن نتخيل الضغط الذي يتعرض له النواب المترددون.

[14] Ghassan Tueni, Une guerre pour les autres, (Paris, J.-C. Lattes, 1985), p. 248.

مهمته الجديدة وصداقاته القديمة». بعد عودته إلى بيروت، اشتكى بشير إلى أصدقائه من أن بيغن عامله بازدراء[15].

على الرغم من الرضا المشروع الذي جناه من تقاربه مع إيران والضربات المروعة التي تلقاها منافسه ياسر عرفات؛ يبقى لبنان شوكة مؤلمة بالنسبة للأسد. إن صعود نجم الشاب بشير الجميل، الرجل الذي يقول له منذ سنوات «لا»، يعرقل مشاريعه على المدى المتوسط التي تمر عبر لبنان ضعيف يسهل التحكم به. يشعر الرئيس السوري أيضًا بالقلق من الشعبية الواسعة التي يتمتع بها الابن البكر لمؤسس الكتائب اللبنانية، شعبية حقيقية عند كثير من اللبنانيين، ومن بينهم المسلمون. إضافة إلى ذلك، لقد تعب الشعب اللبناني بعد سبع سنوات من الحرب الأهلية، فهو مقيد بالحضور المزدوج الفلسطيني والسوري –يشعر به مثل الاحتلال–. يأمل الشعب الصغير أن يحكمه رجل مناسب قوي قادر على استعادة الثقة بين الطوائف والازدهار الذي عرفته البلاد سابقًا. وحافظت الليرة اللبنانية على قوتها دائمًا. هناك بعض التفاؤل يلوح في الأفق.

في هذه الأوضاع في منتصف أيلول، قتل بشير. جاء بشير ليقول وداعًا لأصدقائه القدامى من الميليشيا، لكن يبدو أن خمسين كيلو من المتفجرات الشديدة وضعت من قبل حبيب الشرتوني[16] -لبناني عضو في تنظيم مقرب من سورية- حولت القيادة العامة للقوات اللبنانية إلى كومة من الحطام. دفع بشير الجميل حياته ثمن الكراهية لعقيدته التي لم تتزعزع، بعد ثلاث سنوات من مقتل ابنته الصغيرة مايا في سيارة، على يد عملاء ظنوا انهم يستهدفون الأب. كانت سورية في طليعة المتهمين، ولكن يشير بعضهم إلى إسرائيل أيضًا، إسرائيل الغاضبة من تطور الشاب الجميل.

---

[15] Ibidem, p. 249.

[16] تم إطلاق سراحه في تشرين الأول عام 1990، لحظة سقوط ميشيل عون. ويبدو أن الشرتوني لم يتصرف لحساب السوريين، بل لحساب نبيل العلم، عضو المكتب السياسي للحزب القومي الاجتماعي السوري (المقرب من سورية)، الذي دبر العملية من دون أن يعلم قيادة الحزب. والعلم ماروني من جبيل، يكره بشير الجميل.

كان لموت بشير نتائج مهمة، إذ وجد الجيش الإسرائيلي على الفور الحجة لدخول بيروت بهدف تجنب حمام الدم بحسب زعمهم. وفي أثناء نهبه مركز الأبحاث وغيرها من المؤسسات الفلسطينية، قام حلفاؤه اللبنانيون وعلى رأسهم إيلي حبيقة - تحالف مع السوريين منذ ذلك الحين- بارتكاب المجازر الشهيرة باسم صبرا وشاتيلا، تحت بصر وسمع ضباط اسرائيليين كبار من دون أن يرف لهم جفن. إلا أن الصدمة كانت قوية في إسرائيل بحيث أدت بضغط من العلمانيين إلى انسحاب تدريجي للجيش الإسرائيلي من لبنان. وإن كان عدد كبير من الإسرائيليين غير مرحبين «من هذه الحرب القذرة»، فإنهم على الرغم من ذلك غير قادرين على منع مسؤوليهم المدنيين والعسكريين من متابعة سياسة فظة وعقيمة، مع تواطؤ نشط لدبلوماسية أميركية بعيدة عن الواقع المحلي.

في 17 أيار 1983، تم توقيع اتفاق إسرائيلي-لبناني برعاية واشنطن. وصف بأنه «كامب دافيد مصغر» من قبل المعارضة اللبنانية، تم رفضه بقوة من قبل الوطنيين المعتدلين من مثل ريمون إده، هذا الاتفاق لا ينتهك السيادة اللبنانية فقط، بل يعرقل كليّا حظوظ أمين الجميل بصورة خاصة بتقديم نفسه موحدًا للبنانيين. إضافة إلى ذلك، أيقظ هذا الاتفاق الغرائز، وكان السبب المباشر أو غير المباشر في المأساة المزدوجة التي يعيشها 90000 مسيحي في الشوف أرغموا على المنفى. وكذلك كان الأمر بالنسبة للجنود الأميركيين والفرنسيين من القوة متعددة الجنسيات[17] ، حيث تعرضوا لضربة مروعة.

أمين الجميل، الذي استفاد في البداية من أوراق قوة كثيرة مقارنة بأخيه، لم يظهر منذ تلك المرحلة كما لو كان ينفذ -من دون وسائل حقيقية- سياسة أميركية غير متماسكة. بداية 1984، تزداد حالة الرئيس اللبناني خطورة، بإعطاء الأوامر لمن تبقى من الجند المخلصين له، بتحييد حركة أمل الشيعية التي تسيطر على الضاحية الجنوبية من بيروت. هزم الجميل من قبل الميليشيات الشيعية والدرزية، وتوجب على الكتائب

[17] في تشرين الثاني 1983، اخترقت شاحنتان مفخختان مركز القيادة الأمريكي والفرنسي في بيروت، مما تسبب في مقتل أكثر من 300 شخص، معظمهم من البحرية الأميركية.

المسيحية الانسحاب إلى المناطق المسيحية، في الوقت الذي تعرض فيه الجيش اللبناني للتشظي مرة جديدة.

ثأر حافظ الأسد

عام 1983 هو عام الثأر بالنسبة لحافظ الأسد، إذ طُرد سنة كاملة إلى سهل البقاع، أما الفلسطينيون فقد اعتكفوا في طرابلس، ثم أُخرجوا من ثاني مدن لبنان من قبل السوريين بعد إخراجهم من بيروت من قبل الإسرائيليين قبل ستة عشر شهرًا. حلفاء السوريين، دروز الحزب التقدمي الاشتراكي (حزب وليد جنبلاط)، وشيعة حركة أمل، هم شركاء يسيطرون على بيروت. وأخيرًا القوة متعددة الجنسيات، التي عانت كثيرًا، وإسرائيل تحضر لمغادرة بلد لم تعد الحياة فيه جميلة منذ زمن بعيد. استخلص أمين الجميل الدرس من إخفاقاته، ولكن بعد فوات الأوان، وألغى في 5 آذار 1984 الاتفاق اللبناني–الإسرائيلي. استُبعد الأسد القابع في دمشق من المناقشات المتعلقة بلبنان، كان عليه في أقل من عشرة أشهر أن يثأر ثأرًا مدويًا بالسيطرة، من جديد على «محميته».

ومهما كان الرجل صلبًا ومقاومًا، فلذلك حدود لا يمكن تجاوزها. حافظ الأسد الذي يحمل سورية بين ذراعيه منذ ثلاثة عشر عاماً «يعمل كحمار»[18] ، ويدخن من علبتين إلى ثلاث علب من السجائر في اليوم، تمكن من القضاء على أعدائه ومناوئيه معظمهم، إلا أنه لم يتمكن من هزيمة المرض. انهار القلب مع سكر خفيف، مما زاد الوضع تعقيدًا. بقي ذلك كله قيد الكتمان، في أثناء تلك المرحلة تختلط الوقائع بالشائعات الأكثر جنونًا، وتنتشر في طول البلاد وعرضها.

ساعدته الأخبار الجيدة التي تأتي من لبنان على تجاوز هذا الأمر الصعب، وظهر الأسد خلال الربع الأول من عام 1984، بعد تسوية أخطر أزمة عرفها نظامه. تتابعت الزيارات في أيلول؛ الرئيس الإيراني علي خامنئي، ثم رئيس الدولة الفرنسية في تشرين

[18] هذا ما يقوله الناس العاديون في دمشق عن رئيسهم.

الثاني، وساعدت هذه الزيارات في استكمال استعادته نشاطه. وتجدر الإشارة إلى إلحاح فرانسوا ميتيران على الدور الخاص لسورية في هذه المنطقة، ولا سيما في لبنان.

ثقل الإسلاميين

على الرغم من هذا النهوض غير المتوقع، بدأت الآلة السورية تتعثر. وبدأ أنصار عرفات ببناء قوتهم ببطء، ولكن بثقة، فبعض مستودعات الأسلحة لم تصلها اليد الإسرائيلية أو ميليشيا أمل. وعاد كثير من الكوادر الفلسطينية بأسماء مزورة عبر مطار بيروت، ليجدوا أنفسهم بسرعة كالأسماك في الماء في مخيمات اللاجئين في الضاحية الجنوبية في بيروت أو في صيدا أو صور. بعد ذلك، وصلوا بالمئات عبر جونيه، الميناء «المسيحي» الرئيسي الذي يبعد مسافة 20 كيلومترًا شمالي بيروت. لكي يضعفوا السوريين، فالميليشيات المسيحية جاهزة لفعل أي شيء، بما في ذلك تسهيل عودة هؤلاء الذين يكرهونهم.

يجد «المستشارون» الإيرانيون آذانًا صاغية أكثر فأكثر في الأوساط الشيعية اللبنانية الذين يتطرفون لأسباب تعود للمال أو للدين أو للأيديولوجيا. منذ 1982، وقع النظام السوري أسيرًا لتحالفه مع طهران -كثيرًا أو قليلًا- وتغاضى عن دخول آلاف عدة من حراس الثورة الإيرانيين إلى لبنان؛ مناضلين إسلاميين، أو من مشارب مختلفة، ماركسية أحيانًا أو وصولية بلا أخلاق أحيانًا[19]، هؤلاء الباسداران الذين يتم انتقاؤهم غالبًا ما يكونون دعاة مميزين للجمهورية الإسلامية. من بينهم كثير من الأطباء، والمدرسين، والمهندسين، فهم يتولون إدخال المستضعفين من أبناء المجتمع في سهل البقاع إلى المدارس، وأسسوا المستوصفات، وشاركوا في الأعمال الحقلية. أصبح تأثيرهم على درجة كبيرة من الأهمية، وعدد أتباعهم من اللبنانيين، مخلصين أم لا، في تضاعف مستمر. إن لا مبالاة بعضهم، وانتهازية الآخرين لا يساويها سوى عدم اهتمام كثير من الضباط السوريين وقسوتهم وفسادهم، وهؤلاء ليس لديهم القدرة إطلاقًا على فهم الطريقة الغريبة في عمل أولئك المجانين الجدد، فهم معتادون نهب

[19] فضل بعض الإيرانيين الذهاب إلى لبنان تفرغًا للدعاية لنظام الملالي، على الذهاب إلى الحرب مع العراقيين.

لبنان بهدوء منذ سنوات، ولا يمكن للمرتبية العسكرية السورية أن تتخيل وجود هذا النموذج الجديد من العلاقات بين الأفراد.

عند انسحاب الإسرائيليين من نصف جنوب لبنان، بدأ كثير من الباسداران بالدخول إلى صفوف الشيعة اللبنانيين، مما أسهم في نمو حزب الله على حساب حركة أمل المقربة من سورية، وألقت هذه الأوضاع ظلالها على العلاقات السورية الإيرانية. وتضاعف في هذه المرحلة عدد المختطفين الأوائل من الغربيين: تيري أندرسون في 16 آذار 1985، مراسل الوكالة الأمريكية أسوشيتد برس[20]، ومارسيل كارتون ومارسيل فونتان، ديبلوماسيان فرنسيان، في 22 آذار 1985، والباحث ميشيل سورا، والصحفي جان بول كوفمان، في 22 أيار 1985[21] .

إذا كانت الفوضى من المعطيات الثابتة في الحياة اللبنانية منذ 1975، تأخذ إضافة إلى ذلك، حجمًا يجعلها مصدرًا جديًا للتهديد منذ 1985 بالنسبة لسورية. إذا كانت عمليات الاختطاف تشكل الجزء الظاهر من المسألة، فالأوضاع هي أكثر خطورة بالنسبة للشعب اللبناني. ترى دمشق حلفاءها يتمزقون ويتقاتلون في حين إن مناوئيها الأبديين في اليمين المسيحي والفلسطينيين أصبحوا قوة معارضة أكثر تأثيرًا. جهد أسد ورفيقه المخلص عبد الحليم خدام، «المتخصص» القديم بالملف اللبناني طوال عام 1985 في إقامة تحالف بين الميليشيات اللبنانية الثلاث الأساسية، تلك الخاصة بالحزب التقدمي الاشتراكي (PSP-دروز وليد جنبلاط)، وحركة أمل الشيعية للمحامي نبيه بري، والقوات اللبنانية لإيلي حبيقة.

إلا أن هذا الاتفاق أدين بعد توقيعه بقليل في 28 كانون الأول، من قبل الرئيس أمين الجميل، بضغوط من متطرفيه وبضمانات أمريكية على الأرجح. بالتزامن مع ذلك تقريبًا، تم طرد حبيقة وأنصاره من المناطق المسيحية. ارتكب الأسد في هذه

---

[20] أقدم رهينة غربية في لبنان. كان ما يزال محتجزًا في حزيران 1991

[21] كارتون وفونتان وكوفمان (رهائن فرنسيون) تم تحريرهم بعد ذلك بثلاث سنوات، حيث أفصحوا عن الظروف المأسوية التي أدت إلى وفاة ميشيل سورا بعد مضي 7 أشهر على اختطافه. يبدو أن جيمس بول أقر بأن سورية هي المسؤولة عن اختطاف سورا، هذا الرأي غير مقبول من قبل المقربين منه الذين اعترفوا بأنهم غير متأكدين من ذلك على الرغم من مناهضة سورا النظام السوري وأساليبه البربرية.

المسألة خطيئة نفسية إضافية. في الواقع، لا يمكن الزعم بإعادة تأهيل المؤسسات اللبنانية وإقامة العلاقات الأخوية بين الطوائف بالاعتماد على شخص ساقط إلى هذا الحد مثل إيلي حبيقة أو على قادة يعترض عليهم كثير من اللبنانيين مثل نبيه بري ووليد جنبلاط اللذين ارتبط اسمهما بسنوات طويلة من الحرب الأهلية، لم يعد كثير من اللبنانيين على استعداد لقبول قوانين الزعماء الخاضعين لسيطرة دمشق.

عدم قدرة الحركة الشيعية أمل على تحطيم المقاومة العنيدة للمخيمات الفلسطينية، والحساسية المتصاعدة لحزب الله الخاضع لإيران الذي يجذب عددًا كبيرًا من ميليشيا أمل، إضافة إلى الغموض الشامل الذي يحيط بلبنان في عام 1986. سيصبح لبنان على هذا المنوال بسرعة خارج السيطرة بالكامل. في بداية 1987، دخل أكثر من عشرة آلاف جندي سوري بيروت، بعد أقل من خمس سنوات من طردهم. واستقبلوا بكثير من التهليل من حوالى مليون بيروتي أرهقهم العنف شبه المستمر، وفرحوا برؤية «الملتحين» الخمينيين وقد اختفوا في الضاحية الجنوبية من العاصمة. كان الرضا كبيرًا في البداية، إذ أعطى القائد العسكري السوري اللواء غازي كنعان، أوامر مشددة لرجاله، لكي يتصرفوا بطريقة ودية مع السكان المدنيين[22]. ولكن بسبب تعرضهم للكثير من الاستفزازات، والتحرش الدائم من عدو غير مرئي، استعاد الجنود السوريون بسرعة عاداتهم السيئة حيث عدم الثقة والقسوة طغت على المودة والسلوك الصحيح.

من المحتمل أن يكون حافظ الأسد قد أنقذ الأساسي، فالحصيلة ليست قليلة. إذ تمكن من الاحتفاظ بالورقة اللبنانية بشكل جيد أو سيئ، إلا أنه فقد الورقة الفلسطينية. في لحظة تعيد منظمة التحرير تنظيم صفوفها في نيسان 1987 في الجزائر، لا يمكن لحافظ الأسد أن يعتمد سوى على بعض المنظمات الهامشية المنبوذة من الشعب الفلسطيني. في حين إن علاقاته مع الشعب اللبناني هي أفضل بقليل (ومع الشعب السوري بأقل من القليل: المترجم). باستثناء الميليشيا الشيعية أمل التي أنقذها

[22] لا يمكننا أن نرى في غازي كنعان ممثلًا قنصليًّا لسورية في لبنان، كنموذج للضابط السوري، فدوره القمعي الداخلي في سورية، جعل منه رجل ثقة عند الأسد، وهذا ما يغني عن أي قول. يمكننا أن نضيف، بأن لديه الحس في العلاقات العامة، وأنه نجح إلى حد ما في إرضاء بعض الصحفيين الغربيين.

من الكارثة، لا تأخذ عليه التشكيلات الأخرى موقفه من الفلسطينيين فحسب، ولكن أيضًا سماحه بظهور الأصولية التي تسيطر عليها إيران –«القوى الظلامية» بحسب تعبير الحزب الشيوعي اللبناني– من دون أن يكون قادرًا على ضبطها.

«القوات السورية لا تقاتل أحدًا في لبنان. فهي هناك، منذ دخولها، من أجل إنقاذ اللبنانيين والفلسطينيين من التدمير ومن مستنقع الدم الذي لا يمكنهم تجنبه من دون مساعدة القوات السورية. نحن سعداء، لأننا نجحنا في تقديم هذه المساعدة للأطفال اللبنانيين والفلسطينيين» [23]. (المساعدة نفسها يقدمها ابنه الوريث اليوم للأطفال السوريين-المترجم).

كم مرة تحدث حافظ الأسد بهذه العبارات بخلاف ما هو واضح كالشمس، باستخدامه الميليشيات، كل بدوره، المسيحية ضد الفدائيين الفلسطينيين، والميليشيات الدرزية ضد الكتائب، ومن جديد حركة أمل الشيعية ضد المخيمات الفلسطينية «الخارجة عن سلطته» أو لتحييد أنصار حزب الله، لم يتوقف الأسد عن وضع الواحد ضد الآخر، خدمة لمصالحه، وإظهار لامبالاته التامة بمعاناة المدنيين اللبنانيين.

إذا تمكن أحيانًا من إعطاء الانطباع بأنه يسير في «الاتجاه الصحيح»، مثلًا بإغلاقه في بداية صيف 1987 مكاتب الإرهابي «أبو نضال» في دمشق، فلم يكن ذلك بهدف إنهاء منظمة خطرة أو إرضاء للأميركيين –حتى اللحظة لا فائدة منهم ولو صغيرة – لكن ليدفع الزعيم الارهابي ثمن دعمه لمنظمات فلسطينية أخرى دخلت مع دمشق طوال شتاء 1986-1987 في مواجهة مفتوحة، من أجل المحافظة على الوجود السياسي للشعب الفلسطيني.

ولا يجد الأسد حرجًا في القول بأنه «في لبنان، نتابع عملنا من أجل ضمان التفاهم بين اللبنانيين. ونعمل جاهدين لكي تستعيد هذه الدولة الشقيقة عافيتها، وتستعيد مؤسساتها، ومن أجل المحافظة على السلام وتأخذ دورها إلى جانبنا في المنطقة العربية....) [24]. بالتعارض مع ذلك، هذه المهنة الإيمانية مكررة ألف مرة بطريقة

[23] حافظ أسد، هكذا قال الأسد، ص. 387.

[24] المرجع السابق، ص. 389

منفرة، إنها بصراحة منافقة، ومن الممكن أن تكون في طور التبلور بعد ستة عشر عامًا من الحرب الأهلية، لقد وصل الوضع إلى ما هو عليه، بسبب الانقسام في المعسكر المسيحي بصورة أساسية.

سورية تدخل إلى بيروت ثانية

عاد السوريون إلى بيروت، وسيعيش اللبنانيون حتى انتخابات خلف لأمين الجميل في أيلول 1988 مرحلة من الهدوء النسبي. وكتب لوسيان جورج في اللوموند، «ما تبقى من السلطة بين يدي السيد الجميل بعد تلك التقلبات كلها، لم يكن موضع تساؤل، دخلت الحرب اللبنانية في مرحلة فتور، وانفرجت خطوط الجبهات، وأصبحت أكثر مرونة؛ وحدث نوع من التوازن بين سلطة الدولة وسلطة الميليشيا»[25] .

لكن الرئيس اللبناني الذي سيغادر، أسهم بشدة في تقسيم البلاد أكثر فأكثر خلال ست سنوات من رئاسته (1982-1988)، بسبب الضعف وانعدام الرؤية، وتبين أنه غير قادر على التحضير لانتقال السلطة. وتمترس خلف حرفية التشريع، لكنه لم يهتم بروح النص، فسمى عسكريًا الجنرال ميشيل عون رئيسًا للحكومة. رفض الجزء المسلم هذا الخيار، ليجد لبنان نفسه بحكومتين وبلا رئيس. ستة الأشهر الأولى التالية لم تكن لها آثار عسكرية، لكن اللبنانيين لم يفقدوا شيئا من جراء هذا الانتظار. في منتصف آذار 1989 بإطلاقه «حرب التحرير» ضد القوات السورية وحلفائها، أدخل الجنرال عون البلاد من جديد، وقبل كل شيء المنطقة المسيحية، في حمام من الدم. على الرغم من ذلك، كان خطابه متماسكًا، ووجد تعاطفًا في الغرب، وبين كثير من اللبنانيين غير المسيحيين، خصوصًا أن الجيش السوري يتصرف مرة أخرى بقسوته المعهودة.

في 22 أيلول 1989، توصلت الجامعة العربية إلى وقف إطلاق النار، وبعد ثلاثة أسابيع، وُقِّع اتفاق في الطائف في العربية السعودية، واتفق النواب اللبنانيون بحيث يكون التمثيل البرلماني متساويًا اعتبارًا من الآن بين المسيحيين والمسلمين، مع

[25] Lucien Georges, Le Monde,27/9/1988.

الإشارة لا إلى جدول زمني، ولكن إلى مبدأ انسحاب القوات السورية من لبنان، إلا أن الجنرال عون رفض الاتفاق، في حين أظهر حلفاؤه من الميليشيات المسيحية انفتاحًا أكثر.

بعد ذلك ببضعة أشهر، في بداية 1990، قرر الجنرال عون الذي لا يتزحزح عن موقفه، إنهاء الميليشيات المسيحية التي كان يكن لها الكراهية دومًا. ونسي المعركة المشتركة ضد العدو السوري، وألقى بوحداته في هجوم على معاقل القوات اللبنانية. لم تعرف بيروت الشرقية وضواحيها على الإطلاق مثل هذا العنف، فذاكرة المسيحيين اللبنانيين الذين شهدوا الكثير منذ عام 1975، لم تعهد ذلك من قبل. هذه الحرب الأهلية المصغرة لا شيء تحسد عليه من الأخرى، «الحقيقة، الكبيرة» فالمعارك على درجة من الضراوة، والدمار مروع لدرجة أن عشرات الآلاف من المسيحيين هربوا من بيروت الشرقية، ولجؤوا إلى الغربية في القطاع الإسلامي حيث حسن استقبالهم.

فقد الجنرال عون في هذا الأمر قدرًا غير يسير من صدقيته وكان لرفضه اتفاق الطائق أثر سلبي. من المؤكد أن المجتمع المسيحي لم يحب الميليشيات أبدًا، وقدر عاليًا الانضباط العسكري، وما من شك بأن الجنرال أوحى لهم بعزمه على إنهاء الحسم العسكري مع منافسيه في أيام، لكن المسيحيين غير مستعدين ليوقعوا له شيكًا على بياض. عندما تنفجر الأزمة داخل الطائفة نفسها في لبنان، يصل الرعب مداه الأقصى دائمًا. لم يعمل الجنرال عون على زيادة تدمير أبناء دينه فحسب، بل فقد الحق بأن يزعم تمثيلهم والدفاع عنهم، إذ تصرف كرئيس عصابة فظ.

حافظ الأسد والورقة اللبنانية

المأساة اللبنانية والملاحظة اليقظة لتتابع الأحداث منذ عام 1975 في وطن جبران خليل جبران تلقي الضوء بقوة على كثير من الجوانب، ويمكن أن تساعد في فهم طريقة عمل الرئيس السوري، وفهم نظامه. إذا ما حاولنا بداية استعادة التاريخ وتتابع الأحداث في الشرق الأوسط، يجب أن نذكر أن الحرب الأهلية في لبنان بدأت حقًا في ربيع 1975، بعد سنة تقريبًا من الاتفاق السوري-الإسرائيلي للفصل بين القوات

الذي حدث في 31 أيار 1974. بعد هذا التاريخ بسنتين في 31 أيار 1976، دخل الجيش السوري إلى لبنان. لا نريد التأكيد هنا أن سورية تقف وراء الحرب الأهلية اللبنانية، مما سيكون شكلًا من الغباء. فكل الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية اجتمعت في الواقع لكي ينفجر الصراع والعنف، وإذا قامت دمشق، كغيرها من الأطراف الأخرى، بوضع بعض الزيت على النار، إلا أن هذه الأزمة تتفاعل في لبنان منذ مدة طويلة. لم تسهم حرب 1973 في شيء في تسوية القضية الفلسطينية، فكان من غير الممكن إلا أن تظهر هذه القضية في الدولة الأضعف في المنطقة.

في الواقع، ثمة ثلاثة أسباب دفعت حافظ الأسد إلى التدخل في لبنان. الأول في نظرنا من بعيد الأكثر أهمية، ألا وهو الخوف من رؤية الوضع يفلت من يديه مع تصاعد القوة الفلسطينية وحلفائها اللبنانيين. يكره الأسد الأوضاع التي لا يتمكن من التحكم بها -مثله مثل صدام حسين- حتى لو كان من الممكن الاختلاف في طرق معالجتها. السبب الثاني يعود إلى رغبة الرئيس بامتلاك مواقع أفضل للدفاع عن حدود بلاده، فهو مهتم بإقامة توازن استراتيجي مع إسرائيل، وقد وجد الأسد مميزات بنشر خطوط من الصواريخ على بعد عشرات الكيلومترات فقط من «إصبع الجليل» في أقصى الشمال الإسرائيلي. أما السبب الأخير فهو يرتبط بقلقه في «إشغال» جيشه، فوجود جيش قوي يطرح عند زعماء المنطقة جميعهم المشكلات دائمًا، ولكن في سورية وفي العراق تطرح هذه المشكلات أكثر من غيرها، فكان ينبغي توخي اليقظة دومًا بحيث لا يهتم كبار الضباط من قريب بأسلوب عمل حكوماتهم الخاصة. ومن أجل الوصول إلى ذلك، ليس لدى الدكتاتورية وسيلة أخرى سوى مضاعفة التصفيات والتنقلات أو استخدام الجيش لحفظ النظام وقمع الشعب. الضباط الكبار معظمهم مدللون، ولكنهم في الوقت نفسه يعيشون تحت التهديد، وسرعان ما يجدون أنفسهم من دون أدنى هامش للمناورة. بالنسبة إلى الأسد، يشكل دخول جيشه إلى لبنان ميزة مزدوجة تتمثل في إشغال عدد كبير من جنوده، وتمكين ضباطهم من الاستفادة إلى الحد الأقصى من إقامتهم في هذا البلد الغني والجميل.

https://facebook.com/groups/abuab/

في المقابل، فإن الزعم بأن القوات السورية دخلت إلى لبنان، بطلب من القادة المسيحيين[26] –وبما ينسجم وأيديولوجية البعث التي تغمر فكر رئيس الدولة السوري– هذا الزعم هو زعم سخيف. الأسد الذي استعمل حزب البعث للوصول وللبقاء في السلطة، هو يناقض أي أيديولوجي. «إذا كان صدام حسين مدني يحاول لعب دور العسكري، فإن حافظ الأسد عسكري يحاول التصرف كمدني» يكتب ساخرًا بقدر ما هو محق هيثم مناع[27]؛ ويضيف المناع، «الأسد ليس لديه إحساس بالشارع، لا يفهمه أبدًا ويرتاب من حماس الحشود أو غضبها». هذا التخشب العسكري بامتياز يمنعه من تقدير السخط العميق الذي ضرب سورية بعد إرسال الجنود إلى لبنان في أيار 1976. لم يهاجم الأسد القضية الفلسطينية المقدسة فقط، لكنه يتجرأ على إنقاذ «الانعزاليين المسيحيين حلفاء إسرائيل». لم يغير الضوء الأخضر الأميركي لتدخله في لبنان شيئًا. في الواقع، بدأ في عام 1976 قلق الرئيس السوري فعلًا، وليس في السنة التالية في مرحلة زيارة أنور السادات للقدس. فلا القطيعة مع القوات اللبنانية (اليمين المسيحي) ولا حتى إعادة العلاقات العادية تقريبًا مع المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني كانتا كافتين لاستعادة مصداقية النظام في سورية. كما لو أن الشعب السوري أخذ فجأة المقدار الحقيقي لجنراله- الرئيس. وهكذا تحول الاستراتيجي الرفيع، الذي تحطمت آذاننا بسمعته تدريجيًا إلى تكتيكي لا يتجاوز بعد نظره أسبوعًا صغيرًا. بعض المحللين التافهين أرادوا مقارنته ببسمارك، ولا شيء يقربه من ذلك سوى ما يتمتع به من قسوة وبربرية. فمؤسس الإمبراطورية الألمانية لا شيء يشبه فيه رجلًا قسم العرب، وشق صفوفهم، ودمر المجتمع المدني السوري.

منذ 1977، لم يبق فعليًا أي شيء من الأهداف الكبرى التي تحدث عنها في البداية، وغرق الأسد في الوحول اللبنانية، وانتقل إلى خطوط الدفاع. طُرد جنوده من القطاع المسيحي في بيروت بالقوة العسكرية. فانتقم الأسد بتكليف أجهزته الاستخباراتية بتدبير التفجيرات في الجهة المسيحية كما في الجهة الإسلامية مع هدف

---

[26] الزعماء المسيحيون هم من طلبوا من سورية إن تأتي لنجدتهم، مع أنهم لا يحبوا تذكيرهم بذلك. في نيسان 1977، أكد بيير الجميل أن سورية هي البلد الوحيد الذي عرف كيف يميز بين العروبة والطائفية ويتفهم جيدا المشكلة اللبنانية. (Bitterlin L., op. cit., p. 174)

[27] محادثة مع المؤلف.

وحيد هو «فرق تسد». فوضى ناعمة كثيرًا أو قليلًا، يتم التحكم بها إلى حد ما، أخذت تتموضع في أنحاء البلاد كافة. في لحظة الاجتياح الإسرائيلي في صيف 1982، توجب على آلاف الجنود السوريين مغادرة بيروت الغربية والمنطقة الساحلية التي تمتد من العاصمة حتى نهر الزهراني في جنوب صيدا، مغادرة حدثت على عجل. دمرت منصات الصواريخ الموجودة في سهل البقاع بواسطة الطيران الإسرائيلي. هذه الإهانات، التي تأتي بعد بضعة أشهر فقط من مجازر حماة المروعة، تعطي الجيش السوري صورة تافهة، في حين إن إرادة الأسد في الوصول إلى التوازن الاستراتيجي بدت أمنية بعيدة المنال، وأصبحت خصائص نظامه الشرسة والحاقدة تقفز بقوة إلى عيون الناظرين.

سيقدم الأسد مرة أخرى البرهان على ميكيافيليته بوصفه في حال دفاع، كما في عام 1974 حيث نجح بمساعدة لطيفة من هنري كيسينجر في تحويل وضع عسكري كارثي إلى نصف نجاح دبلوماسي[28]، أصبح الأسد الذي جعله الإسرائيليون أضحوكة في عام 1982؛ كمًا مهملًا من قبل الأميركيين والفرنسيين الذين شاركوا في القوة متعددة الجنسيات، وتمكن من أن يثأر بوضوح بعد أقل من ثلاث سنوات. أُرغمت إسرائيل بضغط مقاومة لبنانية مسلحة وموجهة إلى حد كبير من قبل دمشق على مغادرة لبنان في حزيران 1985 بعد أن فقدت مئات الرجال. قبل ذلك، قام لبنان بإلغاء اتفاق السلام مع إسرائيل، وانسحبت القوة متعددة الجنسيات، لكن ردة الفعل العنيفة تلك لا تشكل سياسة ثابتة، فهي موجهة لتذكير الأطراف المعنية جميعها بدور سورية الذي لا يمكن تجاهله.

في هذه المرحلة، حيث يتضاعف عدد حالات خطف الغربيين من قبل مجموعات تسيطر عليها إيران، أصيبت فرنسا بسلسلة من التفجيرات أثارت رعبًا حقيقيًا، واحتضنت سورية أنواع المنظمات الإرهابية كلها، بدءًا بأبي نضال حتى القيادة العامة لأحمد جبريل، وأقامت صلات مع عدد كبير من أجهزة الاستخبارات المرتبطة مع كل ما يملكه الشرق الأوسط من متطرفين من المشاربجميعها. وعملت على تسهيل صعود الحضور الإسلامي الإيراني وتطوره في لبنان، وهكذا تحتل سورية منزلة من

[28] هزم من قبل الإسرائيليين، إلا أنه نجح بمساعدة كيسنجر باستعادة القنيطرة التي احتلت عام 1967.

الدرجة الأولى في رعاية الإرهاب، تساوت عمليًّا مع إيران والعراق. ويستمر حافظ الأسد المكروه من شعبه ومن الغالبية العظمى من اللبنانيين والفلسطينيين في إيهام أوروبا والولايات المتحدة بحجة زائفة، وهي أن خلفه «يمكن أن يكون أسوأ». لذا أعلن الأميركيون والفرنسيون على الملأ عن غبطتهم لعودة الجيش السوري إلى بيروت في شباط من عام 1987 وإعادة الهدوء إليها.

أن يسلح حافظ الأسد ميليشيا حركة أمل منذ أشهر لإنهاء أي وجود عسكري فلسطيني في المخيمات حول بيروت وفي صيدا، أمر لا يهم الطبقة السياسية الحاكمة في باريس أو واشنطن، فهذه الطبقة نصف معجبة ونصف مطمئنة، تستمر على الأقل في تقدير دعمها هذا الإطفائي العريق، الإطفائي–المشعل للنيران ألا وهو حافظ الأسد، أدرك بأنه دفع بسدادة الزجاجة قليلًا، خصوصًا أنه يواجه أزمة اقتصادية مخيفة، وضع الرئيس السوري بدءًا من هذه اللحظة «الماء في نبيذه» أي خفف من غلوه. حاولت دمشق جاهدة، مع نجاح قليل أو كثير، تسهيل تحرير الرهائن الغربيين، لكن النظام السوري وجد مساعدة لم يكن يحلم بها في السلوك الانتحاري للمسيحيين اللبنانيين.

منذ اختفاء كميل شمعون الذي لم يعد له الكثير من النفوذ، حرم الموارنة إلا من قيادات ينقصهم بعد النظر السياسي على المدى المتوسط أو البعيد، فأمين الجميل العنيد الفاسد، كان كارثة للطائفة. «خلفه» الجنرال ميشيل عون، شجاع لكنه قصير النظر، شكل دمية نموذجية بالنسبة للاختصاصي بتوجيه الدمى حافظ الأسد. أخيرًا، ثالث من يلعب على حبلي سابقيه من هذا الفريق التافه وآخره؛ سمير جعجع رئيس القوات اللبنانية، ومتطرف مسيحي يثير القلق. بعد مراكمته الأخطاء المأسوية –مقتل طوني فرنجية، واستفزازات معادية للدروز أدت إلى نزوح عشرات الآلاف من مسيحيي الشوف– انتهى جعجع إلى الالتحاق عام 1990 بالشرعية اللبنانية. هذا الثلاثي قليل الذكاء بوضوح لم يشكل وزنًا يذكر مقابل حافظ الأسد. اصطدم الأسد ممتهن التخريب والتدمير وجهًا لوجه عام 1976 بشكل من أشكال التماسك الطائفي المعادي لسورية المتمثل في بشير الجميل (من الموارنة)، وكمال جنبلاط (من الدروز)، وياسر عرفات (من الفلسطينيين/السنة) والإمام موسى الصدر (من الشيعة). انتهى الأسد إلى القضاء على هذا التحالف غير المتجانس. باستثناء الدروز، تفسخت الطوائف اللبنانية

جميعها، على الأقل الثلاث الكبرى منها، لتلد فيما بعد فرعًا منها يخضع للسيطرة السورية: موارنة الشمال مع سليمان فرنجية، وأمل بالنسبة للحركة الشيعية، والبرجوازية السنية ويمثلها سليم الحص.

من الواضح، أن حافظ الأسد فهم جيدًا في 1990 أن هذا التيار وكذلك المنظمات الفلسطينية الصغيرة التي تسيطر عليها سورية، لا تمثل شيئًا يذكر. لا يمكنه الاعتماد على قادة حقيقيين حيث عمل كل ما بوسعه، في إطار كل طائفة، للتخلص منهم، ولعب الأسد من جديد ورقة الشرعية اللبنانية التي يجسدها المطواع إلياس سركيس خلف سيئ الحظ رينيه معوض الذي قتل بعد أسابيع من حكمه. لعب ذلك بسهولة أكثر لأن الولايات المتحدة بعد الدعم الذي قدمته دمشق إلى الكويت والعربية السعودية في تموز 1990؛ توافق منذ الآن علنًا على الوصاية السورية على لبنان. إضافة إلى ذلك، من مصلحة الأسد الذي لا يعرف حتى منتصف تشرين الأول كيف ستتطور الأوضاع في الخليج؛ ترسيخ فريق في السلطة في بيروت لا يرفض له شيئًا. ماذا سيفعل، في الواقع، إذا طلبت منه الأمم المتحدة سحب جنوده من لبنان عندما يتم إخراج العراق من الكويت؟

هكذا بعد مضي أربع عشرة سنة على دخول الجيش السوري إلى لبنان، هل يمكن للجنرال أسد أخيرًا أن يلامس حلمه بإنجاز سيطرته على لبنان معظمه؟ بعد أن ألحق هزيمة بلا أمجاد بالجنرال ميشيل عون. لكي يصل إلى هذه النتيجة، 150000 لبناني وفلسطيني وسوري قتلوا[29]، ومئات الآلاف غيرهم جرحوا أو أصبحوا معوقين أو منفيين. ودمرت البلاد، حيث تقدر الخسائر بمليارات الدولارات. الكراهية بين الطوائف وبين المذاهب ليست جاهزة للانطفاء، وتبقى البلاد تحت رحمة الاضطرابات. على الرغم من أن إسرائيل تتحمل مسؤولية كبيرة جدًا في تدمير لبنان متعدد الطوائف[30]، فهي تقوم بقصفه بانتظام منذ 1970، واجتاحته مرتين في 1978

---

[29] تقديرات بعض المنظمات الإنسانية مثل الصليب الأحمر، وأطباء العالم، إلخ.

[30] من المحتمل أن يكونوا أكثر قدرة على تقديم شهادات هم ضباط قوات الأمم المتحدة في لبنان، يمكنهم الشهادة إلى أي مدى تمكنت إسرائيل من اختراق الحركات اللبنانية والفلسطينية. استنادًا لضباط فرنسيين، من هذه القوات، يتمكن الإسرائيليون من إثارة الاضطراب بواسطة عملائهم في لبنان. بافتعال إطلاق قذيفة كاتيوشا على شمال إسرائيل مثلًا، لتكون لقصف جنوب لبنان ليوم كامل

و1982، واحتلت أجزاء منه منذ 1978، فإن سورية البلد الشقيق، لم تفعل أفضل من ذلك.

جاءت سورية الأسد -استنادًا إلى خطابات رئيسها- «لضمان التفاهم بين اللبنانيين»[31]، لكنها في الحقيقة، أمضت الوقت في تعميق الانقسام بين الطوائف وداخل الطوائف ذاتها. في الوقت الذي يقوم جيشها بنهب البلاد، وفرض الأتاوات على شعبها، وتضاعف أجهزتها الاستخباراتية العمليات الإرهابية، وتصفية المعارضين. بالتأكيد، استفادت سورية دومًا من ظروف مخففة نظرًا لكون ممثليها في لبنان هدفًا للاستفزاز من قبل مجموعات لديها مصلحة واضحة في إفشال مهامهم. لكن أليست هذه المعارضات بدورها مرتبطة بطبيعة النظام السوري نفسه؟ سيمكننا الحديث مطولًا بلا نهاية حول هذه المسألة.

في هذه الصحراء الأيديولوجية التي تخيم على سورية وعلى لبنان، حيث القوى الحاضرة في البلدين لا يهمها سوى المحافظة على سلطتها أو على تعزيزها بالوسائل كلها، فالتحالفات المتلاحقة التي تكون ضد الطبيعة تمكن الناس من التفرج عليها بشك وريبة منذ 1975. فوق هذه التيارات كلها تسيطر شخصية حافظ الأسد الساحقة، «قائد يركز السلطة بمجملها في شخصه الوحيد من دون أن يرتبط بأقل إطار دستوري»، بحسب ما كتب توماس فريدمان[32]. ليس لدى أسد في الواقع أي مشروع للبنان، سوى تجنب انتصار فئة على أخرى، مما سيعرضه لطرح مشكلات على المستوى الإقليمي. فالتدخل ضد الفلسطينيين في عام 1976 ليس له تفسير آخر، لكن يكتشف حينئذ أن لبنان يمثل منذ الآن أهمية إقليمية، وورقة مهمة يلعب بها، حيث سيتحول بسرعة إلى منطقة نفوذ، ولدى الأسد بعض الأنصار المقتنعين قليلًا أو كثيرًا بهذا البلد.

(هذا إذا كانوا بحاجة إلى حجة). كما قام الإسرائيليون بتحريض الدروز ضد المسيحيين في الشوف عام 1983 بإطلاق القذائف على الدروز حينًا وعلى المسيحيين حينًا آخر بالتناوب.

[31] حافظ أسد، هكذا قال الأسد، ص، 323.

[32] Thomas Friedman, op., cit., p. 144

بعد أن توجه الأسد لمدة طويلة إلى الميليشيات التي تتمتع بنظره ببعض المشروعية، ولم يقم وزنًا حقيقيًا مرة أخرى لملل اللبنانيين من هؤلاء المقاتلين غير المنضبطين والفاسدين والوحشيين؛ وقف منذ 1989 ومنذ الطائف في معسكر الشرعية، ودعاة «لبنانية الحد الأدنى»، حيث تتساءل عن ذلك نادين بيكودو[33]. لماذا؟ لأن اللبنانيين أعرضوا عن كل شيء خصوصًا عن ميليشياتهم، آملين أن تبعث دولتهم التي شارفت على الموت؛ من جديد، من دون أن يجرؤوا على التصريح بذلك. لماذا لا؟ يرى الجنرال أسد، إذا كان المخلص الطيب إلياس الهراوي يجسد «لبنان الجديد». علمًا بأن اللبنانيين معظمهم يعرفون أن الأمر يتعلق هنا بالمرسل، وأن حل الأزمة اللبنانية يمر أولًا عبر إقامة دولة فلسطينية، وعبر اتفاق سلام شامل بين إسرائيل وجيرانها.

منذ خمسة عشر عامًا، تركت أحداث الشرق الأوسط المهمة جميعها آثارها السلبية والمأسوية في الساحة اللبنانية، وذلك عندما انقسم العالم العربي، ودخل في حروب مع إسرائيل، ولا سيما بعد حرب 1967، إذ وصل عدد كبير من الفدائيين إلى لبنان، وحدثت الحرب الأهلية بعد حرب تشرين 1973، وفاضت حمامات الدم بعد زيارة السادات القدس، وبعد اتفاق كامب دايفيد، واتفاق السلام الإسرائيلي-المصري، وسقوط شاه إيران، ونهاية الحرب العراقية-الإيرانية.

إن انعقاد مؤتمر دولي يجتمع في نهاية المطاف من أجل حل مشكلات المنطقة جميعها كما طلب ببراعة قبل هزيمته المؤلمة دكتاتور بغداد -أثيرت حول هذه النقطة إجابات إيجابية مدهشة من جهة الأميركيين والأوروبيين- إذ يمكن أن نرى نهاية للكابوس اللبناني.

---

[33] Nadine Picaudou, La Déchirure Libanaise, Paris/ Bruxelles, Editions Complexe ; p : 223.

في الحالات جميعها، ليس لدى حافظ الأسد حلول لكل من هذه المشكلات. فلبنان لم يكن أبدًا موضع اهتمام الرئيس السوري. ما كان يهمه هو أن يتمكن من البقاء طرفًا في أي مفاوضات شاملة حول مستقبل الشرق الأوسط. ففي هذا المستوى الواقعي الفظ فقط، لم يفشل حافظ الأسد دائمًا في لبنان، إذ تمكن في نهاية شهر أيار1991، من إنجاز اتفاق «الأخوة والتعاون والتنسيق» بين بيروت ودمشق، لكن الفريق في السلطة في بيروت فاسد إلى حد أن انتهاك حقوق الإنسان أصبح على درجة من الفظاظة، ودولة القانون تقلصت لدرجة خطيرة، حيث بدا لبنان غير مؤهل لصعود المرتفع، لأن ذلك يشبه طلبنا من منحرف معالجة مدمن.

خامسًا: المحيط العربي الإسلامي

منذ بداية الإسلام في العالم العربي، لعبت ثلاث مدن دورًا أساسيًا: دمشق وبغداد حيث اتضحت أهميتهما في زمن الأمويين والعباسيين، ثم القاهرة (أسست في عام 969 م) من قبل الفاطميين، وخصوصًا بعد ذلك بكثير، خضعت للحكم المملوكي حيث سيطر المماليك على جزء كبير من العالم العربي، في حين إن بغداد ودمشق كانتا موضع طمع الفرس أو الترك.

عندما تم الحصول على الاستقلال في القرن العشرين بعد مدة طويلة من الانحطاط وعشرات السنوات من النضال ضد المستعمر البريطاني أو الفرنسي؛ استيقظت المنافسات القديمة. خلال أكثر من 20 سنة، في الخمسينيات وفي الستينيات، سيطر المصري جمال عبد الناصر بطغيان شخصيته على العالم العربي. وعند موته، توجب على خلفه أنور السادات أن يأخذ في الحسبان الوزن المتصاعد لنظامي البعث المتنافسين في دمشق وفي بغداد، فحافظ الأسد وصدام حسين –من قبل- يبدوان رجلين قويين في المنطقة المسماة بالهلال الخصيب، ويطرحان نفسيهما منافسين لبطل وادي النيل.

تزداد المسألة تعقيدًا بوضوح من واقع وجود «الدخيل» - إسرائيل منذ 1948 التي تشكل قوة عسكرية عظمى، وتتسلى بانتظام بخلط الأوراق. أصبحت الدولة اليهودية موضعًا لسجالات كلامية أسهمت في تقسيم أعمق للبلدان العربية التي تقدّر -كل بطريقتها المختلفة- أفضل الوسائل لإنهاء «العدو الصهيوني». إذا أضفنا إلى ذلك وجود القوة القديمة العثمانية في الشمال التي تحولت إلى جمهورية تركيا، لكنها، على الرغم من ذلك ليست مستعدة لتحمل أثر الاضطرابات عند جيرانها المشكلين، وتلك في الشرق بلاد فارس التي تشكل قوة إقليمية تتمتع بماض مجيد، سنفهم الفائدة من تحليل السياسة الخارجية السورية في هذا الإطار الإقليمي، ولكن سنفهم أيضًا الصعوبة بالنسبة للقادة الدمشقيين، خصوصًا بالنسبة إلى حافظ الأسد، صعوبة قيادة سياسة مستقلة، ومتماسكة، ودائمة.

يختلف كل من سورية والعراق عن مصر المطلة على وادي النيل، فهي بلد طور شخصيته خاصة منذ زمن بعيد، بينما سورية والعراق البلدان الشابان كانا دائمًا في حال حرب أو محتلين من جيرانيهما، بلدان غير منسجمين دينيًّا أو عرقيًّا، وليس بمستغرب مضاعفتهما التحالفات الإقليمة اليوم، لإحراق ما كانا يعبدانه أمس.

اخترنا لهذا الفصل عنوان «سورية ومحيطها العربي-الإسلامي» –مما يستبعد بالتعريف إسرائيل التي ستكون موضوعًا خاصًا للمعالجة-، سنتحدث قليلًا عن تركيا وممالك النفط؛ عن تركيا لأنه لا يوجد الكثير لقوله في ضوء أن حافظ الأسد كان أول زعيم سوري أقام علاقات جيدة مع أنقرة منذ فقدان لواء إسكندرون عام 1939، فالعلاقات الثنائية كانت عادية دائمًا إلا أنها لم تكن حارة؛ ونتحدث عن ممالك النفط، لأنها منذ حوالى عشرين سنة، يعني منذ بداية تصاعد ثرواتهم لم يلعبوا سوى دور سياسي ثانوي. وبخلاف الأفكار المسبقة، فالعربية السعودية التي تملك بلا أدنى شك ثروة هائلة، ليس لها سوى تأثير ثانوي في الشرق الأوسط. فإذا تفحصنا عن كثب تاريخ المملكة الوهابية منذ الحرب العالمية الثانية، سنجد صعوبة في إيجاد فكرة واحدة أصيلة عند جميع هؤلاء القادة، باستثناء الملك فيصل، فهم محافظون متشددون، يكتفون بإعطاء المليارات من الدولارات، للمحافظة على توافق - جيد أو سيئ- في العالم العربي.

وبدلًا من استثمار ثرواتهم الهائلة عند جيرانهم الأكثر حرمانًا، فضلوا تمويل كل نوع من أنواع الحركات الأصولية؛ في السودان كما في الجزائر، وفي فرنسا كما في بريطانيا. عندما شاع أن الكويت تم اجتياحها من قبل العراق، تكشف بعض الصحف أن أحد أقارب الملك فهد خسر 65 مليون فرنك فرنسي في كازينو في الشاطئ الذهبي. لكي ننتهي حول هذه النقطة، سنكتفي بالقول إن الرئيس السوري فهم بسرعة كل ما يمكن الحصول عليه من الضعف السعودي، وأنه من بين جميع الدول العربية –إذا لم نأخذ في الحسبان المساعدات التي تلقاها العراق في أثناء حربه مع إيران– كانت سورية أكثر استفادة من دون جدل من «السخاء» السعودي.

في ضوء العلاقات المعقدة والغامضة التي أقامتها سورية في محيطها الإسلامي، لم تعط أهمية حقة إلا للعراق وإيران ومصر؛ ثلاثة بلاد كان لها تأثير في مراحل مختلفة، على مسار الأحداث الدولية؛ فشأن ناصر شأنَ السادات كل بدوره أو بالتزامن كان موضع عشق أو كراهية، وشاه إيران الذي كان أفضل أصدقاء الغرب قبل أن يطرده آية الله الخميني ألد أعدائه، وعد صدام حسين لمدة طويلة أفضل سور يحمي من التطرف الإسلامي قبل أن يصبح الحيوان الأسود بالنسبة لأوروبا ولأميركا. لم يكن لسورية وزن هؤلاء المنافسين الكبار باستثناء وزنها في لبنان، فهي أقل قوة من هذه البلدان الثلاثة، لأنها أقل سكانًا ولديها احتياط نفطي متواضعة جدًا، وكانت أكثر اعتمادًا على المساعدات المالية للأمراء. تحدث الفلسطينيون عن حكاية ظريفة تتعلق بالتنافس السوري-العراقي، ففي مناسبات عدة، في مخاصماتهم التي لا تحصى، يختال صدام حسين إعجابًا بنفسه عندما يشتم علنًا حافظ الأسد، بأن يلقي عليه قوله: «أي من الأمراء يمكنه أن يخرسك»[1]. لكن على الرغم من محدودية وسائلها وطموحاتها، لم تكن سورية كمًا مهملًا.

المنافسة الأبدية

منذ عام 750 ميلادية سُحق آخر خلفاء بني أمية من قبل العباسيين، وسيكون من الجيد الحديث عن تنافس انقسامي بين دمشق وبغداد. لم يجد البلدان بعد مرحلة طويلة من الكمون، والتحرر من الكابوس العثماني ثم التحرر من سيطرة الانتداب؛ أفضل من بعث التقاليد القديمة، ناسيين أن التاريخ العربي لم يكن أبدًا بأمجاده وبتألقه بمثل ما كان عندتوحيد العاصمتين، فالأخوة الأعداء البعثيون لم يتوقفوا عن التناحر منذ ربع قرن. على الرغم من أنهما يعدان إسرائيل «الكيان الصهيوني»، حادثًا عابرًا في التاريخ، ومرحلة مؤسفة بالتأكيد لكنها موعودة بمصير -كما الصليبيون- إلى فناء. يأسف القوميون العرب الحقيقيون بعمق لهذا التناحر الأبدي السوري-العراقي. يجب أيضًا أن نذكر أنه باستثناءات نادرة، كانت سورية متهمة «بالانحراف» دائمًا.

[1] رواية نقلها إلى المؤلف شاهد فلسطيني، كان حاضرًا عند تبادل المحادثة على هامش القمة العربية.

فالتضامن العربي لدى القوميين واجب أساسي لا يستطيع أحد تجاوزه، وعندما وقف الأسد مع طهران ضد بغداد في حرب الخليج، اخترق قدسية هذا الواجب، وصدم بعمق الشعور العربي[2].

من منفاه في ضواحي باريس، لا يهدأ غضب السياسي السوري العريق أكرم الحوراني من هذه «الجريمة»: «يمارس الأسد السلطة منذ عام 1970 باسم العروبة. لكن ماذا فعل من أجل الوحدة العربية؟ عقد تحالفًا مع إيران في الوقت الذي يعد العراق البلد العربي الوحيد الذي تستطيع سورية معه إقامة التوازن الاستراتيجي في مواجهة إسرائيل. اتخاذ هذا الموقف لمصلحة إيران كان أحد الأسباب الجوهرية لاستمرار هذه الحرب مع مليارات الدولارات المهدورة ومئات الآلاف من القتلى. آيات الله استغل الأسد بذكاء في محاولة إسقاط صدام حسين»[3].

«من أجل ماذا؟ -يتابع الحوراني- يقوم الصهاينة بمساعدة إيران، ودفع ريغان لدعم طهران ضد بغداد». خسرت سورية كثيرًا بتحالفها مع إيران، إذ حرمت من خطوط التابلاين العراقية التي تمر عبر أراضيها وتزودها بعائدات مهمة، وأغلق طريق الترانزيت بين المتوسط والخليج عبر العراق. واستغلت تركيا هذا الوضع بتعزيز مواقفها على حساب سورية، لا لأن العراق يصدر -الآن- جزءًا من نفطه عبر تركيا فحسب، لكن لأن تركيا، أمام انقسام جيرانها، لم تتردد بتسوية مشكلة المياه لمصلحتها، المياه التي تعد أهم من النفط، لأن الشرق الأوسط بلا ماء، عبارة عن صحراء، والحضارات التي نشأت في المنطقة قامت على الأنهار جميعها. «الأخطر أيضًا، التكامل الاقتصادي والسياسي للبلدين كليهما، المثال الحي للوحدة العربية، أصيب في الصميم عبر هذه القطيعة، المناقضة تمامًا لمبادئ البعث نفسها»[4].

المسألة بصراحة أكثر تعقيدًا مما يريد السيد أكرم الحوراني التسليم به. عندما انفجرت الحرب بين العراق وإيران في أيلول 1980، بمبادرة من بغداد، لم يكن ثمة لحافظ الأسد يحمله على تقديم الهدايا لنظيره العراقي، فالوحدة المتوقعة بين البلدين

---

[2] أكرم الحوراني، محادثة مع المؤلف.

[3] المرجع السابق

[4] المرجع السابق

بعد تبني ميثاق العمل القومي المشترك في عام 1978، أُجهضت، وفشل توحيد فرعي البعث. وتم «اكتشاف مؤامرة» مصادفة من قبل صدام حسين، في لحظة تسلمه السلطة في تموز 1979 رئيسًا للدولة من أحمد حسن البكر، مما أدى إلى توقف تحقيق المشروع. تتعلق المسألة في الواقع بسلطة الرجلين، فهي على المحك وكل منهما غير مستعد لإلغاء نفسه.

تمثل الأزمة العراقية-الإيرانية ميزات أخرى مباشرة في نظر الأسد، فهي تضعف المنافس العراقي عسكريًا واقتصاديًا، وتسمح له بوسائل مالية أن يلعب دور الوسيط بين إيران وممالك النفط المذعورة من دخول الإمام الخميني مسرح الشرق الأوسط. الأمير الطيب، الأسد يدفع بلطف حتى التوعد بأن بلاده ستقف عسكريًا إلى جانب أي بلد عربي تهاجمه إيران[5].

بدأ الرئيس السوري بمرور الزمن يشعر بالقلق الجدي من تغير مجرى الأحداث، حيث قام سرًا في 28 نيسان1987، بلقاء صدام حسين على الحدود الأردنية العراقية[6].

لم تعط المقابلة -على ما يبدو- شيئًا ملموسًا، لكن تكمن أهميتها بأنها حدثت. تطلب حدوث ذلك اللقاء ذلك سنة من الجهود التي بذلها الملك حسين، وفي درجة أقل العربية السعودية. يشعر الملك حسين كغيره من الزعماء العرب بالقلق من نمو التطرف الإسلامي، وهو مقتنع بأن تطبيع العلاقات السورية-العراقية هو «حتمي لا مفر منه»[7]. لكن إذا أثبتت الأحداث صواب رأيه في مستوى تقدير الظاهرة الدينية، فإن العاهل الأردني قلل من تقدير حجم المعضلة. في هذه المرحلة أيضًا، أعلن نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام لصحيفة سعودية[8] أن الشروط لم تكتمل بعد لحل المشكلات بين سورية والعراق التي «سبقت» انطلاق الحرب العراقية-الإيرانية بحسب رأيه.

---

[5] حافظ أسد، مرجع سابق، ص. 388.

[6] مقابلة من عشر ساعات تم تحضيرها من قبل الملك الأردني حسين، وسيتم تأكيدها من الجانبين بعد أشهر عدة. لم تفض إلى أي نتائج ملموسة، سوى محادثتين في القمة العربية في عمان في 1986/7/12

[7] خطاب الملك حسين في 1986/7/12.

[8] مقابلة مع صحيفة الشرق الأوسط في 1986/7/12.

حل المشكلة هو أكثر صعوبة أيضًا، لأن العراق ليس لديه الكثير ليقدمه لسورية ثمنًا ماليًّا، فمنذ 25 حزيران 1986، أكد نائب رئيس الوزراء العراقي طه ياسين رمضان في الواقع أن فتح خط أنابيب النفط الذي يمر عبر سورية والمقفول من قبل دمشق في نيسان 1982 «لم يعد في مصلحة العراق»[9]، فالمخططات التي وضعت من قبل المسؤولين في قطاع النفط العراقي -بحسب رمضان- أخذت في الحسبان الإغلاق «التام والنهائي» لهذا الخط، حيث كان العراق يصدر عبره، قبل عام 1982، أكثر من 60 في المئة من صادراته النفطية، لكن رمضان -متوخيًا الحذر- لم يستبعد مع ذلك دراسة احتمال فتحه من أجل «فعل شيء ما» نحو سورية.

في الواقع، الإشارة كثيرة الأهمية لتقارب البلدين المحدق بلا شك؛ هي الحد من حجم المعارضتين السورية في بغداد والعراقية في دمشق، بينما تتم التضحية بالحركات الكردية المختلفة في البداية غالبًا[10]. وبعد حرب الخليج لم تعد هذه المسألة على جدول الأعمال.

«مشكلة معقدة»

في مطلع عام 1988، كان لدى حافظ الأسد أسباب عدة ليشعر بالقلق، سوف تتوقف المواجهة العراقية-الإيرانية عاجلًا أو آجلًا، ويتضح أكثر فأكثر أنه ليس ثمة منتصر حقًّا ومهزوم حقًّا. وعلى الرغم من ذلك، أعطت إيران العراق باتخاذها قرار وقف الحرب في 20 آب 1988؛ مزية سيكولوجية، حيث أعلن العراق النصر مباشرة. ولعل نصرًا من هذا النوع بمثل ما يأمل الأسد، هو مخرج أقل سوءًا، لأن نصرًا واضحًا لإيران كان من الممكن أن يؤدي إلى سقوط النظام العراقي، وإقامة دولة إسلامية في بغداد، مع النتائج التي يمكن أن نتخيلها لسورية. وبخلاف ذلك، فإن نجاحًا واضحًا

---

[9] مقابلة مع صحيفة «السياسة» الكويتية في 1986/6/25.

[10] عشرات الآلاف من العراقيين، من أصول فارسية أو كردية غالبًا، يعيشون في سورية في ظل الخوف الدائم من أن يكونوا ضحية أي اتفاق بين دمشق وبغداد.

للعراق سيحمل للرئيس السوري نتائج كارثية، ومع ذلك فإن نصف النجاح لصدام حسين ليس سارًا.

دخل العراقيون بسرعة كبيرة في اتصال مع المسيحيين اللبنانيين، لإعلان عودتهم إلى المسرح العربي، ثم بدؤوا إرسال الأسلحة والذخائر إليهم على نطاق واسع. ضاعف المسؤولون العراقيون هجماتهم على دمشق، مع تأكيدهم ضرورة إعطاء الأولوية لتسوية المسألة اللبنانية، وبعد شهرين من توقف المواجهة مع إيران، يتهم وزير الخارجية طارق عزيز في 20 تشرين الأول 1988 سورية بأنها «المسؤولة الأولى عن تفكك المؤسسات اللبنانية». يتعلق الأمر بالنسبة لصدام حسين باستعادة نفوذه في لبنان ببساطة، نفوذ فقدته بلاده منذ عام 1980 لمصلحة سورية ثم لمصلحة إيران، وبكل تأكيد يرفض الدور السوري كلاعب رئيس. بينما يمثل الدعم العراقي للقوى المسيحية بما يمثله ضمانًا عربيًا، سيكون بمنتهى الفائدة في حال تدخل الجامعة العربية.

الوضع على درجة من التعقيد أيضًا بالنسبة للأسد لأن عدوه القديم ياسر عرفات يستعيد عافيته السياسية بفضل الانتفاضة، الانتفاضة الشعبية الفلسطينية التي تزلزل الأراضي المحتلة منذ 9 كانون الأول 1987، مما يجعل التنظيمات الفلسطينية الصغيرة الموجودة تحت العباءة السورية أكثر تهميشًا، ولا دور يذكر لها. ذلك كله خبز مقدس بالنسبة للعراق، لدرجة أن قادة البعث السوري لم يستبعدوا اجتياح سورية من قبل جنود صدام حسين «غير المشغولين». «من خلال ما نعرفه من سيكولوجية صدام حسين، يؤكد ذلك أحمد ضرغام، وهو أحد قادة البعث السوري الأساسيين، لدايفيد هيرش مراسل صحيفة الغارديان، نحن نقدر أن الحرب ممكنة، لأن صدام يريد أن يصبح بطل المنطقة كلها، وسورية هي العقبة الأساسية في طريقه». يعترف ضرغام[11] أن الرئيس العراقي لا يتصرف على هذا النحو إلا كخيار أخير ويخشى أكثر في هذه المرحلة، كغيره منكثير من قادة دمشق، أن حشد القوات على الحدود العراقية السورية يمكن أن يؤدي إلى انفصال المنطقة الشرقية من البلاد، مثل دير الزور، أو حدوث انفجار شعبي في العاصمة أيضًا، لأنه على الرغم من وحشيته الاستثنائية،

[11] صحيفة الغارديان البريطانية 12 أكتوبر 1988.

يكون صدام حسين بلا شك، بعد ياسر عرفات، إحدى الشخصيات العربية الأكثر شعبية في سورية منذ 1980. وكذلك وفي الوقت نفسه ومن مبدأ «أعداء أعدائي هم أصدقائي»، ولأن الكثير من السوريين يعترفون له بقيادة حرب صعبة ضد الجمهورية الإسلامية غير المرغوبة أبدًا في سورية. تراجع صدام حسين، -مؤقتًا على الأقل- عن مهاجمة سورية لأنه وقع فريسة صعوبات مالية هائلة، ولكنه ركز ضغوطه على لبنان.

في بداية عام 1990، أرسل صدام رسالة إلى رئيس البرلمان الأردني، سليمان عرار، يطلب فيها قبل أي مصالحة مع سورية سحب قواتها من لبنان. تدخل الرئيس المصري حسني مبارك وبذل جهده لتخفيض التوتر بين البلدين، جهود أدت إلى انفراج طفيف حيث توقف الإعلام العراقي والسوري طوال شهر أيار 1990 عن توجيه أي انتقاد للطرف الآخر، ما زال الخلاف تامًا بين الرجلين. ويفضي الرئيس السوري، ببساطة إلى مجموعة من الصحفيين المصريين الذين يرافقون رئيسهم إلى دمشق في 5 أيار «مسألة تحسين العلاقات بين سورية والعراق مسألة معقدة وتحتاج إلى وقت». وبعد ثلاثة أشهر من ذلك، وفرت أزمة الخليج لحافظ الأسد فرصة توظيف الوضع الذي بدا هشًا لمصلحته مرة جديدة.

لا للشاه، نعم للخميني

طوال الحرب العراقية-الإيرانية، كتبت أطنان المقالات لتوضيح، وغالبًا لإدانة، دعم دمشق لطهران. بالنسبة لمؤلفي هذه الأدبيات الغزيرة معظمهم، وجد حافظ الأسد الفرصة ليطعن منافسه العراقي القديم في الظهر، مع القيام بنوع من التقارب «الروحي» مع أبناء عمومته البعيدين، وهم بالنسبة للعلويين شيعة إيران. على الرغم من ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن الوقائع مختلفة تمامًا، يجب أولًا أن نتذكر أنه في زمن الشاه، لم تكن العلاقات السورية-الإيرانية جيدة. ففي ربيع 1975، بعد أسابيع من توقيع اتفاق الحدود بين طهران وبغداد، الموقع في الجزائر في 6 آذار السابق، دان المؤتمر القطري السادس لحزب البعث في دمشق هذا الاتفاق، ورأى أن الأمر يتعلق هنا «بخيانة نحو الأمة العربية، ويكشف تصميم اليمين العراقي على تصفية الثورة في

عربستان»[12]. بعد خمس سنوات، يمكن أن يشعر الأسد بالدهشة من رفض «أشقائه العراقيين» اتفاقًا وقعوه بأنفسهم في عام 1975: «عندما تم توقيع هذا الاتفاق -يقول- تم الاحتفال به في أنحاء العراق جميعها، وعد نصرًا كبيرًا. إذًا، هم الآن يلغون هذا الاتفاق. من الممكن أنهم لم يكونوا جديين»[13].

إن دعم الشاه لإسرائيل أكثر من عربستان التي أصبحت في ميزان الربح والخسارة، منذ أن بدأت دمشق تدعم طهران؛ لم يكن في الواقع مقبولًا بالنسبة إلى سورية في هذه الظروف، «هذا الطامع في الأرض العراقية، هذا عدو لنهضة الأمة العربية، هذا صديق لاسرائيل»[14]، لذا لا يمكن إلا أن يستقبل سقوطه بفرح من قبل النظام السوري.

في تلك المرحلة –نحن في شباط 1979- حدث منسي من الجميع، ولكن ليس من الجنرال أسد، حدث سيلقي بثقله على أجواء المنطقة. فالأسد قلق جدًا من الغليان الذي يخيم عند جاره القوي، ويشكل تهديدًا أكثر خطرًا من اتفاق كامب دايفيد. وضع صدام حسين ضمن قوسين الميثاق السوري العراقي الذي تم التوصل إليه بصعوبة بالغة في شهر تشرين الأول الماضي، سيد بغداد، الذي لم يكلف نفسه إيجاد حجة مقبولة، عاقب حافظ الأسد بمفاجأة سيئة لن ينساها أبدًا: «النظام العراقي، يذكر ذلك في مناسبات عدة، خرب جهود الأمة العربية لهزيمة إسرائيل بإجهاضه عملية الوحدة التي كانت على وشك التحقّق بين سورية والعراق».

على الرغم من كل شيء، أسد لا يمكنه قطع كل الجسور مع بغداد من دون أن يؤمن ظهره. حتى بداية ربيع 1982، على الرغم من العلاقات المضطربة بين النظامين، استمر نحو ثلثي صادرات العراق من النفط -800000 برميل/في اليوم من مجموع مليون ونصف– بالتدفق عبر سورية، وهذه المداخيل بالنسبة للخزينة السورية ذات أهمية كبيرة.

---

[12] Hafez al Assad, op. cit., p. 399.

[13] Ibidem, p. 400.

[14] Ibidem. P. 402.

جاءت المعجزة من طهران، فالإيرانيون الذين أخرجوا العدو العراقي خارج أراضيهم في تلك المرحلة، يبحثون بالوسائل كلها في سبل خنق اقتصاد الحرب العراقي بحرمانه من مصدره الرئيس: البترودولار. منذ الآن، لدى سورية دور حاسم تلعبه. تعرضت سورية لمغازلة من قبل المسؤولين في طهران الذين وعدوا السوريين بتزويدهم بخمسة ملايين طن من النفط سنويًا، منها مليون مجاني، والباقي يباع أقل بكثير من الأسعار العالمية. في الواقع، إذا كانت المبادرة الإيرانية قد أسهمت في تضخم الديون العراقية، فهي لم تؤد إلى تركيع العراق الذي وجد المخرج بسرعة، في مضاعفة صادراته عن طريق تركيا، وتصدير مئة ألف برميل نحو الأردن وميناء العقبة بواسطة صهاريج ضخمة.

لكن دمشق اتخذت موقفًا دائمًا لمصلحة طهران. على الرغم من ذلك كله، كان شهر العسل بين الإيرانيين والسوريين قصيرًا، فمنذ صيف 1982، عند اجتياح جنود أرييل شارون لبنان، اقترح الإيرانيون إرسال بضعة آلاف من المتطوعين إلى بيروت. تمكن بعضهم من الدخول إلى لبنان، وآخرون احتجزتهم دمشق وأعادتهم إلى إيران، من مثل 600 من أنصار ابن آية الله منتظري وكتيبته الإسلامية.

على الرغم من ذلك، «الحسابات الدقيقة تحافظ على الأصدقاء الجيدين»، عدم قدرة السوريين على سداد ديونهم أو نواياهم السيئة أثارت غضب الإيرانيين. في منتصف عام 1983 أي في لحظة إعادة المفاوضات حول الاتفاق الإيراني-السوري، أذاع مدير البنك المركزي الإيراني في كل مكان القول بأنه قد «طفح الكيل»؛ لم يدفع السوريون أول قرش من قيمة الـ 4 ملايين طن التي استلموها. زيارات وزارية عدة أرغمت هذا المصرفي على الصمت، في حين إن الديون خضعت للجدولة، واستؤنف التصدير على الوجه الأكمل. على الرغم من ذلك، لا يبدو أن السوريين أفضل الدافعين. ودفعوا بالغضب الإيراني إلى مداه الأقصى عندما علم هؤلاء بأن جزءًا من نفطهم المسلم للسوريين من دون أن يسدد ثمنه يعاد بيعه من قبل السوريين في سوق روتردام. في هذه المرحلة من نهاية 1983، حصلت طهران، بعد أن وضعت على الطاولة المشكلات كلها، على الضوء الأخضر من دمشق للسماح بدخول دفعة جديدة من حراس الثورة إلى سهل البقاع من أجل «مقاتلة العدو الصهيوني».

بعد ذلك بقليل، مطلع عام 1984، تم عقد اتفاق بين البلدين يسمح من خلاله بدخول 2000 حاج إيراني أسبوعيًا إلى دمشق على متن 4 طائرات جيت-جامبو للطيران الإيراني. يبدأ الحجاج بزيارة الجامع الأموي، حيث يوجد قبر النبي يحيى المقدس عند المسلمين[15]. هؤلاء الحجاج يقودهم دليل ديني ومرافق مسؤول للجوانب المختلفة المتعلقة بالإقامة، ويذهب الحجاج حوالى عشرة كيلومترات إلى الجنوب من العاصمة السورية، إلى جامع السيدة زينب، وهو مكان مهم في العبادات الشيعية[16]. تبلغ نفقات الإقامة الكاملة 1000 دولار، ويؤكد المنظمون بعد بضع أشهر من بداية العملية أن الأماكن محجوزة لمدة خمس سنوات، أي إن هناك 500000 شخص على قائمة الانتظار[17]. تتضمن الرحلة جانبًا سياسيًا بالتأكيد مع زيارة مدينة القنيطرة التي دمرت ببربرية من قبل إسرائيل بعد حرب 1973[18]. يكمل الحجاج الذين لديهم بعض النقود جولتهم بتنظيم مبيعات صغيرة على الأرصفة الدمشقية، حيث يجد الهواة السجاد والكافيار والفستق بأسعار منخفضة. وبالمقابل يشترون الأقمشة والملابس الداخلية وبعض الأدوات المنزلية الكهربائية.

بالنسبة للملالي الإيرانيين، الفوائد مؤكدة: «عبر ذلك السفر، استنادًا الى صحفي أوروبي أمضى سنوات عدة في إيران الإمام خميني، ففي ذلك نوع من المحافظة على الحراك الداخلي، ويتم تمويل راتب سنة بفضل هذه السوق السوداء، وإرضاء أنصار النظام إلى حد بعيد». بالمقابل، قلق حمل رسالة الجمهورية الإسلامية إلى سورية تعرقله جديًا سلطات دمشق التي لا ترغب في تطوير علاقات قوية على المستوى الفردي. لكن مخاوف السلطات بلا أساس، إذا صدقنا السوريين رد فعل على السياسة المتبعة من قبل قادتهم، وهم ليس لديهم أي تعاطف مع الإيرانيين ويأملون جميعهم تقريبًا منذ زمن طويل بانتصار العراق.

---

[15] استنادا إلى الرواية، فإن رأس الحسين بن علي يوجد أيضا في الجامع الأموي زاوية خاصة بالشيعة.

[16] هنا استقر العراقيون من أصول فارسية معظمهم.

[17] الأرقام هنا مأخوذة من برنامج وكالة الأنباء الفرنسية .AFP

[18] جن جنونهم لاضطرارهم إلى إعادة القنيطرة تحت الضغط الأمريكي، قام الإسرائيليون بتسوية المدينة بالأرض بواسطة البلدوزرات، التي لم تكن مأهولة منذ عام 1967.

زواج عقلي

لكن إذا توجب على الأسد دفاعًا عن نفسه؛ تقديم بعض التنازلات إلى حلفائه الجدد، فهو لم يفقد أبدًا النظر إلى مصالحه على المدى البعيد. على الرغم من أنه - كما رأينا- قلل كثيرًا من تقديره للصعود القوي لحزب الله الذي حدث بسبب مهارة الإيرانيين أنصار الإمام الخميني، وقدرتهم على الإقناع، عارض رئيس الدولة السوري، بالمقابل، دائمًا توسيع المحور دمشق-طهران الذي يطلبه الإيرانيون. إذ لم يتمكنوا من الانضمام إلى جبهة الصمود والتصدي[19] بمثل ما كانوا يطمحون.

بعد ذلك، في عام 1984، عند زيارة حجة الإسلام رفسنجاني والرئيس علي خامنئي، بدأ التفكير في خليفة صدام حسين الذي كان -استنادًا إليهم- على وشك الانهيار. تطمح إيران إلى إقامة جمهورية إسلامية في العراق باستدعاء الحركة الشيعية العراقية صنيعة إيران «حزب الدعوة» بصورة خاصة، ومنظمة العمل الإسلامي المنضوية في إطار المجلس الإسلامي الأعلى. لكن الأسد صم أذنيه وشرع على العكس بإقامة جبهة تقدمية يوجد في إطارها خاصة البعثيون صنيعة دمشق (من أهم جوانب ضعفه الاعتقاد بوجودهم).

على الرغم من ذلك، ظهر الاختلاف في التقدير، إذا لم نتحدث عن سوء التفاهم أو التوتر، إلى العلن في العلاقات بين البلدين. ففي لحظة حصار طرابلس، في شمال لبنان، حيث لجأ عرفات في كانون أول 1983، بعد أن طرد أنصاره من بقية الأراضي اللبنانية، اقتصرت الصحافة الإيرانية على إعادة برقيات وكالات الإعلام، خصوصًا وكالة الأنباء الفلسطينية وفا، مما أثار برم السوريين واحتجاجهم على ذلك. ونلاحظ أيضًا أن طهران لم تقطع الجسور أبدًا مع منظمة التحرير الفلسطينية. وبالمقابل، لم يتمكن أبو موسى المنشق الأساسي عن فتح الذي أصبح رجل دمشق، من فتح مكتب في العاصمة الإيرانية كما كان يأمل.

لم تكن العلاقات بين دمشق وحزب الله أفضل أيضًا، فالعلاقة بين الميليشيا الشيعية التابعة لسورية أمل وحزب الله تشهد منذ سنوات برودًا يطبع في الواقع التحالف

[19] تضم هذه الجبهة بعض البلاد العربية مثل سورية وليبيا واليمن الجنوبي والجزائر.

السوري-الإيراني. بعد طرد نظام الأسد في عامي 1986 و1987 الجزء الأكبر من الباسداران الإيرانيين الذين أصبحوا مزعجين بالتأكيد، يهاجم النظام السوري حلفاءهم اللبنانيين من حزب الله في سهل البقاع، وتم أيضًا تقييد نشاطاتهم بشدة. وفي الأماكن الأخرى جميعها، في بيروت وضواحيها أو في جنوب لبنان، دفعت أمل سرًا لتصفيتهم، لكن من دون نجاح يذكر. في لحظة دخول الجيش السوري إلى بيروت من جديد في شباط 1987 لإنهاء الفوضى التي أسهم قادة دمشق إلى حد كبير في خلقها، أمر الجنرال غازي كنعان، الحاكم السوري في لبنان، رجاله بإعدام حوالى 20 عضوًا من حزب الله لكي يتضح جيدًا أنّ سورية لن تسمح بتقاسم السلطة مع أطراف أخرى. وانكفأ حزب الله بصورة كاملة على الضاحية الجنوبية متخليًا عن بيروت لحركة أمل.

ذلك كله أفهم إيران بوضوح بأنه لا يمكنها أن تأخذ إلا دورًا هامشيًا في لبنان، والنظام السوري لا يقبل بأقل من الدفاع عن طهران في كل مرة تسنح الفرصة فيها لذلك. في أثناء زيارة وزير الخارجية الفرنسي جان-برنار ريمون إلى دمشق، في 10 و11 تشرين أول 1987؛ دعا القادة السوريون إلى الحوار بين الغرب وإيران. وفي 30 كانون الثاني 1989، على الرغم من الكراهية القوية التي تتبادلها الميليشيا الشيعية اللبنانية ذات الوصاية السورية مع تلك الميليشيا ذات الوصاية الإيرانية، توصل المسؤولون في دمشق وفي طهران إلى فرض اتفاق لوقف إطلاق النار على أتباعهم. فأسباب الدولة هي التي تتقدم، بالرغم من أنها لا تكفي أبدًا لتجنب كثير من سوء التفاهم بين الطرفين الذي يكون مميتًا في أغلب الأحيان فيما بعد.

إن الفحص المتأني لخطابات حافظ الأسد المتعلقة بالجمهورية الإسلامية –وأكثر دقة الحديث عن «إشارات قصيرة» نحو إيران– يكون بوجه خاص ذا معنى، إذا استثنينا بعض الصيغ الفارغة مثل «الثورة الإيرانية حررت الشعب الإيراني الصديق من الاضطهاد، ومكنته من إيجاد مكانه الطبيعي بتأكيد سلوكه كطليعة ثورية»[20]، صيغة تناسب المزاح الأسود لولا أن الموضوع لم يكن على درجة من الخطورة، لا نشعر أبدًا باهتمام لدى الأسد نحو الجمهورية الإسلامية. «نتناقش مع قادتها، إلا أننا نتجنب أي تدخل في شؤونهم. كذلك أكدت لنا إيران بأنه ليس لديها أي نية لمهاجمة دول

[20] Hafez al Assad, op. cit., p. 387.

الخليج»[21]، هذا ما أكده الرئيس السوري. يبقى العراق دومًا في محور اهتماماته ويوليه انتقاداته الأكثر قسوة. وإذا كان لديه نفور غريزي من صدام حسين، إلا أنه على الرغم من ذلك غير مستعد أن يشعر بالسعادة لسقوطه؛ فهو يرغب في تهيئة خلفه مع تفضيل بقائه في السلطة على رؤية إقامة جمهورية إسلامية عراقية، كما يحلم آيات الله منذ وقت طويل. وليس من المؤكد أن تكون حرب الخليج قد حملته على تغيير رأيه[22].

العلويون والشيعة والإخوان المسلمون

ثمة تفسيرات كثيرة لاهتمام حافظ الأسد بالاعتماد على دعم الإسلام الشيعي الإيراني، وهو الذي ينتمي إلى الطائفة العلوية، الطائفة نفسها التي خرجت من الشيعة. في الواقع، حقيقة منذ 1980، تبين بعض المبادرات البسيطة ولكنها محملة بالمعاني أن النظام السوري يولي بعض الاهتمام للثورة الإيرانية. كذلك في 1980، في القرداحة القرية حيث ولد الرئيس، ربما اتخذ القرار خلال اجتماع وجهاء العلويين المقربين من الأسد بإرسال 200 طالب إلى المدينة المقدسة قم، بهدف التخصص بالعبادات الشيعية الجعفرية. يرى جيرار ميشو الذي نقل هذه القصة[23] -المؤكدة جزئيًا فقط- في ذلك كله مشروع النظام «بإقامة محور شيعي في المنطقة يمتد من لبنان إلى إيران»[24].

---

[21] Ibidem, p.389.

[22] حاول الأسد دائمًا إقامة علاقات جيدة مع السعودية ومع إيران للتخفيف من حدة وزن العراق. الجميع يجد مصلحته.

[23] Carre O. et Michaud G,op. cit. ,p. 139.

[24] Ibidem, p. 145.

بالنسبة إلى الإخوان المسلمين السوريين، يطرح الحلف المنعقد بين دمشق وطهران مشكلات نظرية، يستشهد ميشو كذلك بمقابلة مع مجلة الوطن العربي لعدنان سعد الدين، أحد مسؤولي الإخوان:

«فيما يتعلق بالثورة الإيرانية، يمكنني القول إنه في بداياتها، في مرحلة الشاه، كنا نتعاطف معها من دون تحفظ. (....) لكن الخميني عندما وصل إلى السلطة، لم يحقق وعوده التي أعلنها. النصوص التشريعية والبلاغات والمقالات تبين جيدًا أنه اتبع طريقًا عكسيًا بطابع مذهبي شديد الوضوح. لقد أثبتنا منذ زمن طويل التحلي بالصبر، وأرسلنا الوفد تلو الآخر لحرصنا على المحافظة على علاقات جيدة. وفي مناسبات عدة، وعدنا من محادثينا بتصحيح مواقفهم، مبررين شطحاتهم بتعدد التيارات داخل النظام الإيراني، أو بنقص المعلومات أو بالظروف الصعبة التي يعيشونها، إلخ. ثم لاحظنا شروعهم بالتقارب مع نظام حافظ الأسد. قالوا لنا حينئذ: نحن لا نستطيع الاستمرار في متابعة العلاقات معكم إذا تابعتم هجماتكم ضد حزب السلطة في سورية. متى تتوقفون عن غلوكم في المسألة المذهبية؟ (....) والمعلومات التي تصلنا تشير إلى أن الحالة في إيران متفجرة. والمعتدلون الذين يمكن التفاهم معهم محاصرون. (....) نحن لسنا جاهزين للالتزام سلفًا بحوار مع نظام كهذا محكوم عليه بالفشل، حيث تهيمن اعتبارات انقسامية في ذهن قادته أكثر من قيم الحس السليم البسيط»[25]. أجريت في نيسان 1982، هذه المقابلة غنية بالمعلومات. تبين أولًا أن الإخوان المسلمين السوريين لم يقدروا حق تقدير قدرة القادة الإيرانيين على تثبيت سلطتهم. لكنهم، وهذه حقيقة، ليسوا الوحيدين الذين وقعوا في هذا الخطأ. تبين أيضًا، أن آيات الله وملالي آخرين في السلطة، أبعد من أن يكونوا مسلمين. فهم متعصبون غير آبهين بالحلول الوسط، وتبين منذ تلك المرحلة، أنهم محنكون في «السياسة الواقعية». ومن دون أوهام حول النظام السوري، فهمت طهران جيدًا أين توجد مصالحها، وأن باب الدخول إلى لبنان يمر بالضرورة عبر إرادة حافظ الأسد.

---

[25] Ibidem, p. 145 في الأوساط العلوية ، يتم التأكيد على أن اجتماعًا مثل هذا الاجتماع لم يحصل أبدًا. ولكن يتم الاعتراف بأن العشرات من الشباب العلويين ذهبوا للدراسة في إيران.

الخروج من العزلة

ثمة قطيعة دائمة وعميقة مع العراق، وإقامة علاقات صحيحة لكن غير حارة مع إيران، وقطيعة كاملة مع مصر حيث قطعت أشكال العلاقات الدبلوماسية كلها منذ زيارة أنور السادات الشهيرة إلى القدس في 1977، في لحظة انتهاء المواجهة العراقية-الإيرانية؛ وجدت سورية نفسها في عزلة كبيرة في الساحة العربية. فالعلاقات التي تربطها بمنظمة التحرير الفلسطينية ما زالت كريهة؛ مما ينطوي على تناقض صارخ بالنسبة لبلد يعلن أنه أفضل من يدافع عن القضية الفلسطينية. أخيرًا، في لبنان، يتعرض النظام السوري يتعرض للتحدي العلني من قبل الجنرال ميشيل عون، الذي يقول بصوت عال ما يفكر فيه اللبنانيين معظمهم[26].إن تشكيل مجلس التعاون العربي، في شباط 1989 الذي يضم العراق والأردن ومصر واليمن الشمالي، يأتي بعد ثماني سنوات من تكوين مجلس التعاون الخليجي، الذي يضم ممالك النفط كلها، ليؤكد أكثر عزلة دمشق.

يضاف إلى ذلك، التفكك السياسي لأوروبا الشرقية، وفي المقام الأول الاتحاد السوفياتي. هذا الانقلاب، لا يترجم فقط بإقامة ديمقراطيات حقيقية، أعادت علاقاتها بإسرائيل الواحدة تلو الأخرى، ولكن يؤكد بوجه خاص فقدان دمشق الدعم الرئيسي الذي كانت تقدمه دول المعسكر الاشتراكي. ولم يعد بإمكان سورية مواجهة التحالف الإسرائيلي-الأميركي، بالتحالف مع موسكو. وصلت الأمور إلى درجة من الخطورة، بحيث يعلن السفير الجديد للاتحاد السوفياتي في سورية ألكسندر زوتوف بعد وصوله إلى دمشق بقليل، يعلن إلى مجموعة من الصحافيين الأميركيين: أن حكومته تدفع الرئيس الأسد إلى التراجع عن هدفه في إقامة التوازن الاستراتيجي مع الدولة اليهودية. وتكذيب ذلك، الذي جاء بعد بضعة أيام في آذار 1989، لم يقنع أحدًا. ومما يبعث على الدهشة، أنه في المرحلة نفسها، في نيسان 1989، تعبر صحيفة البعث، في افتتاحيتها المستوحاة من علٍ، عن الأمل باستعادة التحالف مع القاهرة، كما كان قبل أن توقع مصر اتفاق السلام مع إسرائيل.

---

[26] وعند السوريين حيث ترتفع شعبية عون

في الواقع، تحسنت العلاقات قليلًا منذ شباط 1987، بعد شهر من القمة الإسلامية في الكويت، حيث قام الرئيس حسني مبارك بمبادرة نحو الرجل الذي كان مثله طيارًا في قاعدة جوية بالقرب من القاهرة في زمن الوحدة المصرية–السورية. عندما صافحه فجأة وتحدث دقائق مع حافظ الأسد على الرغم من العدائية التي طبعت علاقات بلديهما، فتح حسني مبارك بهذا التصرف آفاق المصالحة. ومنذ شباط 1987، التزم الإعلام المصري والسوري الصمت حول خلافاتهما. في تشرين الثاني 1987، في القمة العربية في عمان، لم يعترض الأسد على القرار الذي يترك لكل بلد عربي إمكانية الدخول في محادثات مع القاهرة.

في أيار 1989، في قمة الدار البيضاء، قدمت سورية تنازلًا أكثر أهمية في عدم الاعتراض على إعادة مصر إلى جامعة الدول العربية. ويرد حسني مبارك الجميل بالابتعاد عن المواقف العراقية المعادية لسورية فيما يتعلق بلبنان؛ وذهب حتى منع الأسلحة العراقية المرسلة إلى الجنرال عون من المرور عبر مصر، مما أثار غضب العراقيين، الذين ردوا باتخاذ إجراءات ثأرية ضد مليون ونصف مصري يعملون في العراق. بعد ذلك سارت الأمور بسرعة، فالبلدان يعيدان علاقتهما الدبلوماسية في 27 كانون الأول 1989.

يشكل تاريخ العلاقات السورية-المصرية، منذ 1977 حتى 1989، نموذجًا يبين براغماتية السوري رقم واحد، على الرغم من اللغة الخشبية وممتهني العقائدية، هو على العكس تمامًا من الأيديولوجي. فالمصالحة بين البلدين، ليست ثمرة توافق أو حلول وسط –لم تغير مصر في شيء موقفها نحو إسرائيل- ولكن نتيجة التغيرات التي حدثت في الساحتين الدولية والإقليمية. لم تتوقف الصحافة الدمشقية لمدة سنوات عن شتم «الخائن السادات» ودين السياسة المصرية التي بيعت «للإمبريالية الأميركية» وإلى «حلفائها الصهاينة»، لم يتأخر أسد في اتخاذ الخطوة، مثل أقرانه العرب جميعهم تقريبًا، وانتهى بإقامة الجسور مع القاهرة.

على الرغم من ذلك، لم يمكن ذوبان الجليد في العلاقات مع القاهرة، سورية من الخروج من عزلتها فقط، بل سيعطيها أيضًا، إمكان استعادة النادي المغلق نسبيًا للبلدان التي تطمح إلى عقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط، مؤتمر ستكون

بالطبع جزءًا لا يتجزأ منه. يقع الأسد، حيث يقول بعضهم بفظاظة، تحت سيطرة أمرين؛ إسرائيل، واستمرار شخصه في الحكم، لم ينس أبدًا ذل 1967، وإذا كان مستعدًا للقيام بتنازلات كبيرة، سيكون من أجل استعادة الجولان. لكن الأسد يعرف أيضًا أن العرب لن يتمكنوا من ذلك بقوة السلاح فقط. لذلك السبب وافق دائمًا -وعلى الأقل بسرعة- على مبدأ مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط. ولذلك وافق بسرعة مدهشة بعد بعد وصوله إلى السلطة على القرار 242 لمجلس الأمن، ثم على القرار 338 بعد تشرين الأول 1973.

تزامن تحسن العلاقات مع مصر مع بعض الانفراج في العلاقات مع الولايات المتحدة. في عامي 1989 و1990، ضاعفت سورية من جهودها من أجل تحرير الرهائن الأميركيين، فالمجموعات الإرهابية الصغيرة المعادية لأميركا مراقبة عن كثب. وعلى العكس، لا يتردد الدبلوماسيون الأميركيون في لبنان في دعم الدور الذي تلعبه سورية، وفي انتقاد التحركات المغامرة للجنرال عون. وكذلك اتخذت واشنطن موقفًا واضحًا لدعم اتفاق الطائف في تشرين الأول 1989.

اجتياح الكويت، ضربة حظ بالنسبة للأسد

يرى حافظ الأسد أنه لا يمكن أن يحدث أفضل من الاجتياح المفاجئ للكويت من قبل العراق، ويدرك مدى شعبية منافسه العراقي في سورية، ويعرف بأنه يلامس هنا الديناميت. ومما يبدو متناقضًا، أظهرت وسائل الإعلام السورية تحفظًا غير معتاد على العراق. فإذا لم يتردد الأسد بوصف اجتياح الكويت وضمها، بـ «غلطة لا تغتفر» وبـ «مصيبة مرعبة» للأمة العربية كلها، ويضيف على الفور أنه «لا يدعم وجود القوات الأجنبية في الخليج»[27] ويتابع القول، على العكس، الوجود الأجنبي يشكل سببًا إضافيًا لكي يرسل العرب قواتهم إلى الخليج، وإلى العربية السعودية، والى دول أخرى في الخليج، «إذا قامت هذه الدول بطلب ذلك».

[27] يمكن مراجعة الصحافة السورية الرسمية في: 13 تموز و6 أيلول 1990.

إن أساس المشكلة بالنسبة للأسد هو احتلال الكويت من قبل العراق، وليس وجود القوات الغربية، لكن عندما مرت العواطف الانفعالية، وتم التعامل مع مثيري المشكلات حيث وضعوا في مكانهم[28]، ذهب الأسد إلى الجوهر. يتوجب عليه أولًا أن يضمن بأن تلتزم إيران العقوبات التي قررها مجلس الأمن. خاصة أن العراق قام بمغازلتها –لكي يضمن حياد جارته الكبرى، أعطاها ما يرضيها فيما يتعلق بالخلاف الحدودي الذي يفرق البلدين. وتتلاحق زيارات الوزراء الإيرانيين والسوريين حتى قيام الأسد وللمرة الأولى في حياته، من 22 إلى 25 أيلول 1990 بزيارة طهران. هو الذي لم تطأ قدماه أبدًا العاصمة الإيرانية، طوال مدة المواجهة بين العراق وإيران، كان يخشى جدًا انقلابًا مفاجئًا في التحالف، لكن إذا اختلف الأسد ومضيفيه حول الأولوية في هذه الأزمة –إذ يطلب الإيرانيون الرحيل الفوري للجيوش الأجنبية– إلا أنهم جميعًا يتفقون على انسحاب العراق من الكويت دون شروط. عاد الأسد إلى دمشق مطمئنًا نسبيًا. قال لنفسه: الإيرانيون، لديهم مصلحة حقيقية باحترام الحصار، إذا أرادوا متابعة تحسين علاقاتهم بالغرب. كذلك يقول رفسنجاني، الرئيس الإيراني: إن غالبية الشعب لن تفهم أن عدو الأمس الشرس تحول إلى حليف خلال أسابيع في مواجهة «الشيطان الأكبر الأميركي».

أخيرًا، وفرت حرب الخليج على الأقل ميزتين اثنتين بالنسبة لحافظ الأسد:

تحسن ملحوظ في الأوضاع المالية لسورية التي انهالت عليها الأعطيات والقروض من العالم العربي كما من العالم الغربي من جهة. وهكذا، في شهري كانون الثاني وشباط 1991، قرر كل من اليابان والمجموعة الاقتصادية الأوروبية ثم ألمانيا إعطاء سورية بالترتيب 250، و75 ثم 200 مليون دولار. وقبل ذلك، استأنفت ممالك النفط في الخليج بقوة مساعداتها، ويقدر الخبراء في آذار 1991 المبلغ الذي تلقته دمشق من هذه الدول خلال سبعة الأشهر السابقة بملياري دولار[29].

---

[28] بعد أيام عدة من اجتياح الكويت، انطلقت إشاعات واسعة تتعلق باضطرابات قوية في شرق البلاد خصوصًا في دير الزور، وكذلك حركات غير معتادة في سلاح الجو.

[29] Le Monde, 15 mars 1991.

ومن جهة أخرى، انتصر الأسد على المستوى السياسي-الدبلوماسي، فتحذيراته المتكررة ضد خطر التوسع، المتمثل بالعراق بالنسبة لإمارات النفط الصغيرة، تظهر صدقيتها. وكذلك، يحدد برضى عميق أنه لم يكن من الممكن الطلب من بغداد تطبيق قرارات مجلس الأمن جميعها من دون الطلب منطقيًا من إسرائيل إبداء «الإرادة الطيبة» نفسها. بالتأكيد هذه اللعبة الصغيرة، يمكن أن تنطوي على مخاطر؛ لأن كثيرين يظنون أن سورية هي قوة احتلال في لبنان أيضًا، مقارنة ليست محقة تمامًا، والأسد يمكنه الرد بأن بلده لم تفعل سوى الاستجابة لطلب السلطات اللبنانية. مع ذلك، إن صمت قادة الغربمعظمهم، ولامبالاة الإعلام الأنجلو-سكسوني هي أيضًا مؤشرات مطمئنة بالنسبة للرئيس السوري.

تتزامن كتابة هذه السطور مع وجود وزير الخارجية الأميركية جيمس بيكر في دمشق، يمكن للرئيس السوري، بحسب تعبير صحيفة «اللوموند»، أن يستمتع سرًا بما بعد الحرب»[30]. وبخلاف مصر التي حصلت على جزء كبير من المنافع لموقفها المذعن للغرب مع إلغاء الديون العسكرية المتوجبة للولايات المتحدة – حوالى 7 مليارات دولار-، فإن سورية تنتظر الآن أن يرد لها التحالف الغربي الجميل. لأنها لم ترسل فقط عشرين ألف جندي إلى العربية السعودية الذين نجحوا في استعراض القوة، بعدم جعل الآخرين يتحدثون عنهم إطلاقًا، بل إن حافظ الأسد وضع شخصيًا ثقله في الأحداث. هو الذي لم يذهب أبدًا إلى إيران، طوال ثماني سنوات من الحرب مع العراق، أخذ طريق طهران ليضمن «حياد» حليفه القديم.

كذلك، أوضح بطريقة متشددة لجميع ممثلي المنظمات الفلسطينية الموجودة في دمشق، بأنه لا يتحمل أبدًا، طوال هذه المدة، عمليات معادية للغرب في الشرق الأوسط أو في باقي أنحاء العالم. ثمنت جهوده عاليًا من قبل واشنطن ولندن وباريس.

---

[30] Ibidem.

لكن تحت أي صيغة سيتمكن الغرب من تسديد ديونه؟

لن يكون الأسد فارسًا وحيدًا، حتى لا يتهم بأنه أراد عقد اتفاق منفصل، على الرغم من رغبته القوية باستعادة هضبة الجولان، حيث لم يتمكن أبدًا من هضم فقدانها. لا يمكن أن يعود الجولان إلى السيادة السورية -من وجهة نظره- إلا في إطار اتفاق شامل، يتضمن بوجه خاص حلًا للمسألة الفلسطينية. إذا صدقنا بعض الكتاب السوريين، الموقعين على نص يدعم العراق في أثناء حرب الخليج، حافظ الأسد لديه أمل كبير في أن يسمعه الجميع. ألم يقل لأحد مستشاريه، جبران كورية، إن هؤلاء الكتاب «سيندمون» لوضع تواقيعهم تحت نص كهذا، يفهم من ذلك أن ما بعد الأحداث سيكشف خطأهم وأن سورية ستستفيد على جميع المستويات من سياسة قائدها[31]. هذا الأخير إذا سلمنا بصحة الأقوال التي ينسبها محيطه إليه التي جاءت في صحيفة يومية تحت الهيمنة السعودية، وتصدر في لندن «الحياة» في آذار 1991، لا يهتم أبدًا بعمق مشاعر الشعب السوري نحو العراق؛ مع صعود الليرة السورية بفضل أموال الخليج، سيتوقف السوريون بسرعة عن بكاء مأساة العراقيين.

[31] محادثة المؤلف مع أحد هؤلاء الكتاب.

سادسًا: دمشق وموسكو وواشنطن وباريس

«الصديق السوفياتي»

«تتميز الدبلوماسية الأميركية بغباء نادر فهي لا تفهم شيئًا من شيء. تنظر إلى سورية على أنها تدور في الفلك السوفياتي مثل بولندا. لم تلتفت إلى البعد القومي للسلطة السورية». هذه الأقوال لدبلوماسي فرنسي يتناول أمام حفنة من الصحفيين، نتائج احتمال اختفاء السوري رقم واحد، بعد أسابيع من مرض حافظ الأسد طوال شتاء 84/1983. دان هذا الدبلوماسي بشدة الخطأ المرتكب من قبل الغربيين جميعهم تقريبًا، الذين لا يتخيلون -أو لم يتخيلوا خلال وقت طويل- سورية سوى رأس جسر روسي في الشرق الأوسط. يبتعد بالتأكيد -منذ غورباتشوف- هذا الرأي يبتعد أيضًا أكثر عن الحقيقة، وبمثل ما رأينا في الصفحات السابقة أن التلاقي مع مصر والانفراج مع الولايات المتحدة، يجد إلى حد كبير تفسيره في فقدان صدقية الاتحاد السوفياتي في نظر حافظ الأسد.

لكن، حتى منذ 1970 إلى 1986، حيث عمل ميخائيل غورباتشوف بقوة ووضوح، خلال هذه السنة الأخيرة ولآخر مرة، على الدفاع عن النظام السوري، ضد محاولات الإذلال الإسرائيلي، إلا أن هذه المظاهر كانت مخادعة. بكل تأكيد، الإعلام الرسمي السوري لم يتوقف، خلال خمس عشرة سنة سابقة عن تملق «الصديق السوفياتي» ومدحه. فالخطابات الرئاسية مليئة بالتفاهة المملة والباعثة على الشفقة: «الصداقة العربية-السوفياتية تنمو باستمرار. يضاف إلى تلك الصداقة، التعاون الصحيح والإخلاص، والاحترام والثقة المتبادلة، التي تشكل القاعدة الثابتة التي تستند إليها العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وسورية»[1].

كان الأسد أقل طموحًا وأقل ذكاء فيما يتعلق باستشراف المستقبل، فلم يتردد في القول لجمهوره الكبير: «سنطور أيضًا علاقاتنا وتعاوننا مع البلدان الاشتراكية الأخرى. هذا هو قرارنا». لكن كل ذلك لم يكن يهدف سوى إلى طمأنة الإعلام

[1] حافظ أسد، هكذا قال الأسد، ص 107.

الضخم الخاص بالسفارة السوفياتية في دمشق، إعلام لا يفوته التأكيد –وذلك لا يدانيه أي شك- على محبة الشعب السوري نحو «الشعب السوفياتي الشجاع». لأن حافظ الأسد وضع دائمًا أصدقاءه السوفيات تقريبًا أمام الأمر الواقع. في تشرين الأول 1973، السوفيات الذين ليس عندهم ثقة في الجيشين المصري والسوري، ربما فوجئوا كالأميركيين بوقوع الحرب. وفي حزيران 1976، أدخل الأسد قواته إلى لبنان من دون إعلام الكرملين. علمًا بأنه من المحتمل جدًا أن هذا الأخير عارض عملية موجهة ضد المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني. وفي 1981، أعطى الرئيس السوري الأمر لبعض الوحدات بإقامة صواريخ أرض-جو في سهل البقاع، مما أدى إلى مغادرة سفير الاتحاد السوفياتي في دمشق على وجه السرعة إلى موسكو، وإلى حدوث مناقشات حادة بين الجانبين.

على الرغم من ذلك، بعد هزيمة 1982، إذ لم تكن القوات السورية قادرة على تنظيم مقاومة جدية للمحتل الإسرائيلي، أدرك السوفيات ضرورة «بذل الجهد» في محاولة لترميم هيبتهم التي أصيبت. فموت ليونيد بريجنيف، ووصول أندروبوف الذي كان أكثر استعدادًا من سلفه نحو دمشق، غير معطيات الوضع بصورة كاملة. استنادًا إلى الجنرال مصطفى طلاس، الذي أورده باتريك سيل، أن السوفياتي رقم واحد، تجاوز عقبات وزير الخارجية أندريه غروميكو ووزير الدفاع استينوف، التي بموجبها لا توجد أسلحة متطورة جدًا يمكن تزويدها لسورية، تجاوز تلك العقبات قائلًا: «خذوها من مخازن الجيش الأحمر. لن أسمح لأي قوة في العالم بتهديد سورية»[2].

وهكذا، استنادًا إلى باتريك سيل، انتقلت القوات المسلحة السورية بين 1982 و1986 من 225000 إلى 400000 رجل، وعدد المدرعات من 3200 إلى 4400 والطائرات الحربية من 440 إلى 650 وأخيرًا في زيادة مراكز الدفاع الجوي من 100 إلى 180 مركزًا في بداية 1983، تم بناء مواقع صواريخ أرض–أرض SS-21 لأول مرة في بلدان العالم الثالث، ونشرت قبل سنة واحدة فقط، في بلدان حلف وارسو. وكذلك أيضًا بالنسبة لنظام الصواريخ المضادة للسفن، SSC-1، حيث أرسل تقريبًا

---

(2) Patrick Seale, op.cit, p. 398

في المدة نفسها، ولأول مرة أيضًا إلى النظام السوري، وهو دفاع ساحلي حقيقي. أخيرًا قام السوفيات ببناء نظام كامل للدفاع الجوي، يتضمن خاصة بطاريات سام-5 -وهي تنشر لأول مرة أيضًا خارج أوروبا والاتحاد السوفياتي-، ورادارات وأنظمة كشف ألكترونية أخرى متطورة جدًا.

كانت إحدى النتائج المباشرة لهذا الاتفاق العسكري، إجبار دمشق على شراء ثلاث طائرات توبولوف 154 س، وإلغاء طلب ثلاث طائرات بوينغ 757 الغالية على الرئيس، ولكن بوجه خاص، وللمرة الأولى منذ وصوله إلى السلطة، يتوجب على الأسد أن يأخذ في الحسبان وجود الخبراء السوفيات، حيث تضاعف عددهم من عام 1982 إلى عام 1985 ليصل تقريبًا إلى ستة آلاف. فلم يعد ممكنًا بالنسبة إليه، إعلان الحرب على أي كان من جيرانه من دون أن يعير أي اهتمام لوجهة نظر موسكو.

بعد سنوات من التردد الذي استوجبته بشكل أساسي العلاقات الجيدة، بعد حرب تشرين 1973 التي عرف هنري كيسينجر وحافظ الأسد كيف يقيمانها. تلك العلاقات التي أصابها البرود بعد زيارة القدس من قبل أنور السادات، وتوقيع اتفاق كامب دايفيد في أيلول 1978. في حين توجب استئناف العلاقات السوفياتية-السورية بقوة عام 1978. إذ تشكل هذه الاتفاقات –كامب دايفيد- بالنسبة للرئيس السوري، تحديًا حقيقيًا للقانون الدولي واستفزازًا حقيقيًا من قبل الولايات المتحدة نحو سورية. وكتب زهير ميداني نقيب المحامين -مكتب دمشق- حينذاك، «الاتفاقات المزعومة تتعارض والفقرة الثالثة من القرار 338 لمجلس الأمن التي تقترح دعوة الأطراف المعنية في أزمة الشرق الأوسط جميعها إلى محادثات السلام التي ستعقد تحت رعاية الأمم المتحدة برئاسة مشتركة للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي».

بالنسبة لحافظ الأسد، هذه «الاتفاقات المخجلة» تتناقض تمامًا، ولعل اتفاق الدفاع العربي واحد من هذه الاتفاقات، إضافة إلى قوانين اتحاد البلدان العربية، والاتفاقيات الثقافية والعسكرية والاقتصادية الموقعة بين مصر وسورية. هذه الأخيرة قامت منذ 1978 بإعادة علاقات مناسبة مع المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني، ولا يوجد شيء يعارض تطبيع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي. حيث وصل

الانفراج، في تشرين الأول 1980، إلى درجة تم معها توقيع معاهدة صداقة وتعاون بين البلدين.

وخلال سنوات الثمانينيات، وصلت العلاقات الثنائية بين البلدين إلى قمة ازدهارها. إذ أصبح التعاون الاقتصادي في قمة تألقه. فالكرملين الذي بنى السدود الصغيرة المنتجة للكهرباء على الفرات التي افتتحت في تشرين الأول 1986، قام بتمديد مئات الكيلومترات من الخطوط الحديدية، وهو يستثمر حقول النفط، ويستصلح الأرض ويوسع ميناء اللاذقية ويهيئ كذلك، لاستثمار مناجم الفوسفات.

يتابع آلاف الطلاب السوريين دراستهم في بلد لينين أو في الديمقراطيات الشعبية، إلى جانب كثير من العسكريين، وأخيرًا وليس آخرًا في هذه القائمة غير الشاملة، طيار سوري هو محمد فارس، كان العربي الثاني الذي ذهب إلى الفضاء بعد الأمير السعودي سلطان بن سلمان بن عبد العزيز (الذي قام بالرحلة في مركبة أميركية). وذلك في تموز 1987 على متن سيوز ت م[3].

من غير المفيد القول إن الشعب السوري فسر على طريقته الخاصة هذا «التعبير الرائع للصداقة»، وتوضح ذلك النكتة الآتية:

بعد أن استقبل محمد الفارس استقبال الفاتحين عند عودته إلى دمشق، دعي من قبل الأسد لكي يسأله فيما إذا كان كل شيء على ما يرام:

- كل شيء على ما يرام، سيدي الرئيس.
- لكن لماذا هذه الضمادة الكبيرة على اليد اليمنى؟
- أوه هذا لا شيء.
- لكن ماذا؟
- أوه، في كل مرة أردت الضغط على الزر، يضربني الروس على الأصابع.

[3] Ibidem.

لم يجد النظام آنئذ على الرغم من الذوق الرفيع الذي يتميز به، أفضل من التعليق بأحرف عملاقة على نيون كهربائي في جبل قاسيون المطل على دمشق: «الفضاء عرين الأسد» (مع اللعب على الكلمات). حينذاك -كما الآن- كانت تتكرر أعطال الكهرباء، لكن يتمكن الدمشقيون من إيجاد العزاء بأن هذا الشعار لا ينطفئ أبدًا.

لا أوهام لدى السوريين

على الرغم من ذلك كله، فإن هذا التعاون في المجالات جميعها، يجب ألا يوقعنا في الأوهام. السوفيات الذين لا يمتلكون إلا فقرهم لتصديره، بحسب كلمات قاسية لوزير الخارجية المصري بطرس غالي، فهم ليسوا محبوبين في سورية أكثر من غيرها من البلدان العربية. كان اختلاطهم قليلًا في المجتمع المحلي، والتعامل معهم يتم بحذر، لأسباب يصعب كثيرًا أو قليلًا البوح بها، «الروس» كانوا يتوخون الدقة في حساباتهم المتعلقة بالمساعدات دائمًا، وفي الوقت معظمه ينتظرون أن يدفع لهم بالعملات الصعبة. ويلتزم السوفيات قواعدهم، ويتجنبون أي عمل سياسي أو دعائي، قواعدهم الأكثر شهرة هي تلك الموجودة في حمص وفي الضمير. هي القواعد الشهيرة سام 5 المتطورة جدًا بحسب ما رأينا. لكن، بالنسبة للخبراء الغربيين، ردع إسرائيل يتطلب أكثر من ذلك بكثير. في الواقع الردع يأتي من شيء آخر، يأتي ببساطة من حضور السوفيات في سورية. ويعلن بفجاجة ضابط سوري لدبلوماسي سبقت الإشارة إليه: «إذا أراد الإسرائيليون مهاجمتنا الآن، يجب أن يقتلوا من الروس».

في الوضع الحالي، الانفراج هو الذي قاد الكثير من البلدان من قدامى أتباع موسكو لإقامة علاقات دبلوماسية مع الدولة العبرية. ويعيد الاتحاد السوفياتي نفسه النظر بصورة كاملة في خلافاته مع القدس. فالإسرائيليون، في الواقع، ليس لديهم إلا أن يهنئوا أنفسهم من موقف ميخائيل غورباتشوف الذي يمكنهم - بفتحه من جديد سبل هجرة اليهود السوفيات- من تعويض هجرة كثير من الإسرائيليين خارج إسرائيل، ممن أصيبوا بخيبة أمل من ظروف الحياة اليومية، وخاصة يمكنهم من مواجهة

أفضل في صراعهم الديموغرافي، حيث نسبة النمو الديموغرافي مرتفعة جدًا لدى الفلسطينيين.

بالتأكيد، عمق المسألة ليس مشرقًا، فإذا عرفنا أن الغالبية العظمى من يهود الاتحاد السوفياتي -أكثر من مئة ألف وصلوا خلال تسعة الأشهر الأولى من عام 1990- وجدوا في إسرائيل، فذلك يعود لسببين:

-من جهة، لأن الولايات المتحدة مارست ضغوطًا قوية على الكرملين، لكي يترك حرية الحركة للطائفة اليهودية.

-ومن جهة أخرى، لأنها (الولايات المتحدة) خفضت بطريقة متشددة نسبة اليهود السوفيات المقبولين على الأرض الأميركية.

هذه الهجرة الإجبارية نحو إسرائيل، بقدر ما هي فظيعة بالنسبة للعرب، حيث يستمر رفض حق العودة لمئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في مخيمات بائسة في الأردن وفي لبنان، إلا أنها هجرة تسهم إلى حد كبير في تسمم العلاقات بين موسكو ودمشق. في 7 آذار 1990، في خطاب متلفز ألقي بمناسبة الذكرى 27 لوصول البعث إلى السلطة، بعد أن أكد الأسد أن إسرائيل هي «المستفيد الكبير» من التغييرات التي حدثت في البلدان الاشتراكية، دق ناقوس الخطر فيما يتعلق باليهود السوفيات. اتهم الأسد الولايات المتحدة قائلًا: «كرست جهودًا مكثفة منذ وقت طويل لتسهيل هجرة اليهود السوفيات»، و«لعبت دورًا أساسيًا في هذا المجال بممارسة، وبالوسائل الممكنة كلها، الضغوط الضرورية لتحديد نسبة اليهود الذين ستستقبلهم على أراضيها». بالنسبة للأسد، «الحق والحرية في الهجرة تعني، في هذه الحال تحديدًا، العدوان وكذلك حرية احتلال أرض الآخرين وطردهم من منازلهم».

حاول الرئيس السوري إخفاء مخاوفه بتأكيده -على الرغم من ذلك كله- على ثبات العلاقات بين البلدين. قال: «نحن لن نسمح أبدًا أن تترهل علاقاتنا الثنائية، فنحن لسنا شعبًا ينكر الجميل نحو الاتحاد السوفياتي الذي قدم لنا دعمًا جوهريًا في مواجهة العدوان». شهر ونصف بعد ذلك، أي بعد عودته من زيارة رسمية في

موسكو، هنأ حافظ الأسد نفسه في إعلانه إلى صحفيين مصريين[4] بأن الاتحاد السوفياتي يستمر في تزويد بلاده بالسلاح. لكنه يضيف على الفور: «من الطبيعي أن تظهر اختلافات حول الكمية والنوعية المتعلقة بالأسلحة المطلوبة، لكن الدعم السوفياتي لن يتوقف». هل يلمح رئيس الدولة السوري إلى رفض الاتحاد السوفياتي تزويده بصواريخ أرض-أرض س س 23 التي تتمتع بدقة عالية تتراوح بين 200 الى 300 متر، ويصل مداها إلى 500 كم؟ لا أحد يعرف. يبدو في المقابل، أن الكرملين، القلق ليكون طرفًا كاملًا في مؤتمرات السلام الدولية المحتملة، قرر منذ سنوات الاهتمام بالقدرات الدفاعية لسورية. ردد ألكسندر زوتوف السفير السوفياتي في دمشق؛ في مناسبات عدة، أن بلاده مستعدة «لضمان أمن سورية، لأن هذا البلد يجب أن يمتلك قدرة دفاعية صلبة طالما أنه لم يتم التوصل إلى حل في المنطقة»[5].

يجب التأكيد في هذا الخصوص على أن الاتفاقات الثنائية المعقودة، والضمانات السوفياتية لا تطبق إلا داخل الأراضي السورية. بقول آخر ليس لدى موسكو النية أبدًا للتدخل في إسرائيل أو في لبنان أو غيرها.

حول ضرورة إقامة علاقات جيدة أو صحيحة على الأقل مع الاتحاد السوفياتي، يوجد في سورية إجماع حقيقي، ومن المستبعد أن نرى على المدى القريب أو المتوسط إعادة استنساخ ما حدث في مصر عام 1972 عندما طرد السادات 15000 «مستشار» سوفياتي. ترغب المكونات السياسية السورية جميعها في إقامة علاقات جيدة مع موسكو، وهي في الواقع مع استمرار هذه العلاقات، بما فيها الإخوان المسلمون، إذا صدقنا الحكاية التالية: في بداية 1986، تم تنظيم لقاء في إحدى العواصم الأوروبية بين ممثلين لأحزاب علمانية عدة من المعارضة السورية مع الأمين العام لحركة الإخوان المسلمين في سورية عدنان سعد الدين، هذا الأخير، طلب ألاّ يظهر في نص مشترك الفقرة المتعلقة بالصداقة السورية-السوفياتية «لكي لا يزعج الدولة الوهابية لآل سعود بحسب قوله»، وقام بعد ذلك بالتوضيح الآتي: «على أي

---

[4] الصحافة السورية في 1990/4/26.

[5] AFP 5/4/1990.

حال، ليس لدينا خيار آخر، ماذا سيحل بنا إذا لم يزودنا السوفيات بالأسلحة؟ يجب ألا تتمكن إسرائيل من السيطرة على كامل المنطقة»[6]، وهكذا حتى الإخوان المسلمون توصلوا إلى تلك الخلاصة.

تعد القضية الفلسطينية مصدرًا آخر للخلاف المهم بين البلدين منذ وقت طويل، من دون العودة إلى خلق إسرائيل، التي تم الاعتراف بها مباشرة من قبل موسكو. حدثت الخلافات الأولى بين الأسد والقادة السوفيات، في لحظة دخول الجنود السوريين إلى لبنان في حزيران 1976، لدحر الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين. كان الكرملين الذي لم يتم التشاور معه -كما رأينا- غاضبًا جدًا، لكنه لم يقل شيئًا. ولن يقول شيئًا في عشر سنوات، خصوصًا بعد محاصرة طرابلس المروعة، في شمال لبنان، في كانون الأول 1983. قامت موسكو في عام 1986، بعد سنوات من الصمت، تحت ضغوط من المنظمات الفلسطينية القريبة منها، بمثل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين لنايف حواتمة؛ بالتدخل لدى الجنرال أسد لتجنب مذابح جديدة في لبنان، حيث يقصف الشيعة الخاضعون لسورية قصفًا همجيًّا على مخيمات اللاجئين. وأعلن ميخائيل غورباتشوف، الأمين العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، أعلن بعبارات جافة عن عدم الرضا. وبعد شهرين من ذلك قام وزير خارجيته إدوارد شيفرنادزه، بالشيء نفسه مع نظيره السوري فاروق الشرع. خلال هذا الوقت، حدثت اتصالات فعلًا بين السوريين والفلسطينيين في ليما سول، في قبرص، لكنها لم تثمر شيئًا.

مع ذلك، إذا كان السوفيات لم يتوصلوا إلى إقناع حلفائهم السوريين بالمصالحة مع منظمة التحرير الفلسطينية، فهم ليسوا على خلاف معهم على الخطوط الكبرى لاتفاق السلام. فمنذ موافقة حافظ الأسد في بداية السبعينيات على القرار 242، كلا البلدين يدافعان عن المبدأ «الأساسي»، «بعدم القبول بالعدوان وباحتلال أراضي الغير بالقوة». بما أن هذا المبدأ لا يحترم، فلن يكون هناك سلام. وكذلك، فإن البيانات المشتركة معظمها تشير إلى أن الأزمة لا يمكن تسويتها عبر «الاتفاقات الجزئية والمنفصلة». ورفضت اتفاقات كامب دايفيد ونتائجها بالكامل. في كل ما

[6] محادثة للمؤلف مع أحد المشاركين.

يتبقى، إذا تعلق الأمر بلبنان، أو بالمواجهة الإيرانية-العراقية، أو بالوحدة العربية، أو بالإرهاب، تحتفظ دمشق عمليًا باستقلاليتها، لتتصرف كما يحلو لها.

إذا كان ثمة صداقة بين البلدين، اختفت اليوم هذه المشاعر. لقد استقبل حافظ الأسد بذعر الشفافية والبيريسترويكا، مفهومين كانا دومًا نقيضين لمفهومه عن السلطة، فهو يحذر التغيرات السياسية المفاجئة وغياب الاستقرار الذي يتمخض عنها، كما يحذر الطاعون. حافظ الأسد لا يبدي أي اهتمام بالنسبة لأية تجربة ديمقراطية حقيقية، وحكم بطريقة سلبية جدًا على التطور الذي حصل في الاتحاد السوفياتي في السنوات الأخيرة الذي لن يحمل سوى الأوهام للعالم العربي استنادًا إليه. بالنسبة للرئيس السوري، الاتحاد السوفياتي في عهد غورباتشوف، لم يعد بعيدًا من أن يصبح دمية في يد أميركا. فالفوضى التي تخيم على عدد كبير من جمهوريات الاتحاد تمنعه على كل حال من أن يزعم بلعب دور أساسي في الشرق الأوسط وفي الخليج العربي. لتلك الأسباب عمل الأسد، الرجل الواقعي، ولكن أيضًا القائد غير المغرور، على التقارب مع الولايات المتحدة، واستعاد علاقات عادية مع مصر التي لم يتوقف إعلامه عن مهاجمتها منذ سنوات بأقذع التعابير.

علاقات عاطفية

إذا كانت العلاقات السوفياتية-السورية تفتقر إلى الحرارة، حيث كانت ولوقت طويل تعبيرًا عن نظامين لا يعملان إلا من خلال علاقات القوة، فالعلاقات السورية الأميركية هي أكثر عاطفية. هاجر عشرات الآلاف من السوريين إلى الولايات المتحدة منذ مطلع القرن (العشرين)، وتسارعت على الأرجح الحركة منذ نهاية الخمسينيات: أطباء باحثون وتجار وجدوا في العالم الجديد فضاء من الحرية وشروط عمل لا تتوفر في سورية، غالبًا ما تمثل أميركا حلمًا ونموذجًا للأطفال المتميزين في هذا الشعب العريق.

على العكس، طريقة الحياة الأميركية تتضح بقوة في الحياة اليومية السورية؛ فالطائرات الأميركية، وليست السوفياتية، هي التي تتزود بها بصورة أساسية شركة طيران الخطوط السورية[7]. سلاسل الفنادق الأميركية الكبرى، مثل الشيراتون، تطل على شوارع دمشق أو غيرها، كما إن الأفلام الأميركية ليست أقل حضورًا، ولكن من دون أن تحتكر شاشات التلفزيون. شريحة واسعة من السوريين تشرب الكوكا كولا، وتدخن (المارلبورو)، حيث تفضله على التبغ المحلي، وإذا كان لديها الإمكانات فهي تحب، كأشقائها في الجزيرة العربية، قيادة السيارات الأميركية الضخمة. على الرغم من ذلك، يوجد سوء تفاهم كبير بين البلدين، نوع من الحب الفاشل، حيث تقع مسؤولية ذلك على السياسة الأميركية المؤيدة لإسرائيل من دون شروط، بقدر ما تقع أيضًا، على طريقة الحكم للنظام السوري الحالي. يعبر الأسد في خطاباته، على الأقل في تلك الخطابات التي ألقاها منذ 1977 عندما استبعدت بلده من التسوية في الشرق الأوسط، يعبر على طريقته وبحدة عن هذا الشرخ:

«الولايات المتحدة هي العدو القاتل لشعبنا، وللأمة العربية ولوحدتها (....) هدف الإمبريالية الأميركية هو تأبيد الاحتلال الإسرائيلي لكي تمكن إسرائيل من أن تبقى إحدى قواعدها لتهديد المنطقة والقضاء على كل حركة للتقدم (....) ما نأخذه بشكل أساسي عليها أن دور الولايات المتحدة لا يتوافق مع مسؤولياتها الخاصة في الشرق الأوسط ولا مع مصالحها وأقل أيضًا مع مبادئ العدل التي قاتل من أجلها الشعب الأميركي»[8].

في كل واحد من خطاباته الرئاسية، يصبح «التحالف الإمبريالي-الصهيوني» لازمة: «نحن نقول لها (للولايات المتحدة) ما يهددنا هو تحيزكم الكامل ودعمكم اللا محدود، في المال وفي السلاح والدعم السياسي لإسرائيل. (....) الولايات المتحدة منحازة بشكل كامل لإسرائيل، مما يفقدها قابلية أن تلعب دورًا بناءً في أزمة الشرق الأوسط»[9].

---

[7] باستثناء ثلاث طائرات توبوليف التي تناولناها سابقًا.

[8] Hafez al Assad, op. cit., p.243 et sqq

[9] Ibidem.

بالنسبة لحافظ الأسد، الحل بسيط: «الولايات المتحدة، كونها قوة عظمى، يجب أن تكون محايدة تمامًا نحو مشكلات المنطقة». «ما نريده أيضًا، يضيف الأسد، أن يكون اليهود الأميركيون أميركيين فقط، كما المسيحيين والمسلمين الأميركيين. في هذه الحالة فقط، تتمكن الولايات المتحدة من رؤية الأشياء بشكل موضوعي والعمل من أجل سلام حقيقي»[10].

كشف الأسد بمناسبة أداء القسم في 20 آذار 1984 أمام مجلس الوزراء؛ أنه تلقى «رسالة تهديد» من الرئيس رونالد ريغان. في هذه الرسالة، يحدد أن الرئيس الأميركي كتب أن «سورية ترهب لبنان وأن الولايات المتحدة ستضرب، بما في ذلك المناطق السورية، كل من يهدد الشرعية في لبنان». أرسلت هذه الرسالة بعد أيام من تدمير مركز قيادة القوات الأميركية في بيروت الغربية، في 23 تشرين الأول 1983، رسالة ريغان أثارت سخرية الأسد الذي قال: «نحن غير قلقين عندما تقولون لنا إنكم ستضربون مناطقنا، لأنه لدينا الوسائل للرد وبدورنا سنضربكم في الجو وفي البحر وعلى الأرض» ثم يلخص بقوله إن: «الغلطة الخطيرة للولايات المتحدة هي أنها جاءت حاملة سياسة إسرائيلية، وليس سياستها الخاصة كقوة كبرى مسؤولة ولديها مصالح خاصة. نحن نريد علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة الأميركية، بما يعني أن تأخذ في الحسبان آمال وتطلعات شعبنا»[11].

الخطابات -في الأحوال جميعها- ليس لها صلة كبيرة بالواقع، ويمكن القول إن عنف الخطاب ليس له من هدف إلا خداع الرأي العام، وإعطائه دفعة جديدة، لأنه لم يعد يفهم تكرار تغيير الاتجاهات بسرعة. الحقيقة لا أحد يعيرها اهتمامًا يذكر – لا يوجد سوى خطاب مهيمن يذعن للولايات المتحدة– لا الأميركيين الذين يعرفون أن الجوهري يحدث في مكان آخر، ولا أقل من ذلك أيضًا، الشعب السوري المتعب من هذه الحذلقة. تتخلص سياسة الأسد في عدم وضع جميع بيضه في سلة واحدة. عرف دومًا كيف يحافظ على التواصل مع واشنطن حتى في اللحظات الأشد توترًا. يوجد بالتأكيد تمثيل دبلوماسي سوري في واشنطن، ويمكن إجراء

---

[10] Ibidem.

[11] Ibidem

التواصل السوري -الأميركي في أرض محايدة، ويوجد أيضا التيار القريب من الولايات المتحدة وعلى رأسه أحد المقربين من الأسد؛ رئيس هيئة الأركان حكمت الشهابي. الذي سبق أن أرسله الأسد إلى الولايات المتحدة، في أثناء شتاء 74/1973، في أوج المفاوضات المتعلقة بفصل القوات. هذا الحلبي المسلم السني، الذي أنهى اثنان من أطفاله على الأقل دراستهما في تكساس في دالاس، الشهابي بلا شك، من بين القادة السوريين جميعهم، هو الأقرب إلى الإدارة الأميركية. هذا الرجل المتحفظ ليس لديه طموحات سياسية -وحقيقة كونه غير علوي، فمن الصعب أن يمتلك ميليشيا أو حرسًا مهما كان- وهو يصغي جيدًا لرئيسه، فبفضل جهوده مع بعض الآخرين انتهى الأمر بالأميركيين دومًا بالقناعة أن سورية بالتأكيد غير قابلة للاحتواء.

يجب القول إنه خلال مرحلتي رئاسة رونالد ريغان، كانت السياسة الأميركية نحو دمشق -فيما لو كان لها هناك حقًا سياسة- كانت على درجة من عدم التماسك، لدرجة يصعب تصديقها. الخطوط الكبرى لوسائل الإعلام الأساسية تتضمن تقسيم الوجود بين الطاعون الشيوعي وما تبقى، أسهم كثيرًا في تصوير سورية كصنيعة لموسكو. ويعد الاتفاق الإسرائيلي-اللبناني في 17 أيار 1983 مثالًا واضحًا على هذا الإدراك السيئ للولايات المتحدة لحقيقة الشرق الأوسط، وهو مذل بالنسبة للسوريين الذين لم يتم التشاور معهم، ومربك بالنسبة للبنانيين، هذا «كامب دايفيد مصغر» يحمل في ثناياه احتمالات الانفجار كلها في المستقبل. حول هذه النقطة تحديدًا، لا يمكننا إلا أن نوافق حافظ الأسد حول «الخضوع الأميركي» إلى الأوامر الإسرائيلية. عندما تم إلغاء الاتفاق من قبل لبنان في بداية 1984، كان احتجاج الأميركيين مائعًا وفاترًا، صيغة مثل غيرها للاعتراف بسذاجتهم السياسية.

لقد جنوا ثمارًا مريرة لسوء تقديريهم للنتائج -270 بحارًا قتلوا وانسحاب مخجل من بيروت- ظهرت الولايات المتحدة عاجزة تمامًا عن المبادرة، مكتفية بالتأكيد الدوري دعمها غير المحدود لإسرائيل. ويجب انتظار قضية الهنداوي لكي تقرر استدعاء سفيرها من دمشق في خريف 1986، لكن في الربيع التالي، أظهرت سورية استعدادات جيدة نحو الإرهاب، خصوصًا أن قضية الهنداوي اتضح أن فيها من

المراوغة والتضـــليل أكثر بكثير مما كان يظن[12]. وأعلنت واشـــنطن، غداة تحرير الصـحفي شـارل غلاس، نيتها إعادة سـفيرها. لم يعد هذا سـياسـة بل إبحارًا بقدر ما تسمح به الرؤية، أي قصر نظر وارتجال.

خلافات عميقة

يقســم حكم حافظ الأســد في الواقع، من حيث علاقاته مع الولايات المتحدة، إلى ثلاث مراحل:

أولًا- مرحلة تمتد من عام 1970 إلى 1978، في لحظة توقيع اتفاقات كامب دايفيد، مرحلة في أثنائها تكتشـــف الإدارة الأميركية أن ســـورية يحكمها منذ الآن رجل دولة ينوي أن يلعب دورًا مؤثرًا في مجريات الأحداث في الشرق الأوسط.

ثانيًا- من عام 1978 إلى 1988، حتى مغادرة رونالد ريغان، اســتبعدت ســورية لسببين؛ لأنها رفضت كامب دايفيد من جهة، وهي، من جهة أخرى، مصنفة مثلها مثل منظمة التحرير الفلسطينية، تابعًا للتحاد السوفياتي.

ثالثًا- منذ عام 1988، يبدو أن واشـنطن عادت إلى مشـاعر أفضـل نحو سـورية، أولًا لأن جورج بوش وجيمس بيكر أدركا حدود كامب دافيد، واكتشفا أن السيدين أسـد وعرفات ليسـا دمى تحرك خيوطها في موسـكو. ثانيًا، لأن سـورية، ولأسـباب تمت الإ شارة إليها سابقًا، بذلت جهدًا بعد ضعف الاتحاد السوفياتي على الصعيد الدولي. في هذا السياق، لم تفعل أزمة الخليج في عام 1990 سوى تسريع التقارب الذي بدأ بين دمشـق وواشـنطن منذ 1987، في لحظة دخول القوات السـورية من جديد إلى بيروت.

يجب كذلك الاعتراف أنه باسـتثناء سـنتين كان خلالهما ألكسـندر هيغ وزيرًا للخارجية (1982/1981) الذي ارتبط بمقولات صـديقه آرييل شـارون، لم تعارض

(12) Patrick Seale, op. cit, pp. 475-482.

الولايات المتحدة حقًا الدور السوري في لبنان. فقد أعطته الضوء الأخضر عام 1976 للدخول إلى لبنان وتحييد رغبة إسرائيل في التدخل. ودعمت باستمرار أفكار التوازن الطائفي في مؤسسات الدولة، ودانت تحركات الجنرال عون، ووصفت اتفاق الطائف في تشرين الأول 1989 «بالإيجابي».

لم يبق سوى ملفين اثنين؛ ملف السلام في الشرق الأوسط والملف المتعلق بالإرهاب، يستمران في خلق التباعد بين البلدين. في الوقت الذي تطلب فيه دمشق مثل موسكو منذ سنوات انعقاد مؤتمر دولي للسلام تشارك فيه الأطراف المعنية جميعها، وتحاول الولايات المتحدة جاهدة من دون جدوى تشجيع الحوار بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ولكنها تصطدم دومًا بتعنت الدولة اليهودية التي لا تريد الحديث عن ممثلين فلسطينيين مقربين من منظمة التحرير الفلسطينية. وكذلك ما يزال الأميركيون يعارضون إقامة دولة فلسطينية، ولا يرون سوى استقلال ذاتي فلسطيني موسع.

إن الطريق المسدود أمام عملية السلام لا يؤلم سوى الرئيس السوري، وبحدود ضيقة، فهو الذي ينظر بعين من الرضا الميكيافيللي، إذ إن التنازلات التي قدمها عدوه القديم عرفات لأميركا لم تفضِ إلى شيء. مثله مثل غالبية الزعماء العرب، وإذا صدقنا الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، فليس لدى الأسد أي رغبة برؤية إقامة دولة فلسطينية مستقلة حقًا. الأفضل له -بلا شك- نوع من «سوريا الكبرى» مع إقليم فلسطيني يمكنه السيطرة عليه. في الحالات جميعها، المشكلة ليست مطروحة حاليًا، فإذا لزم الأمر سيكون ثمة وقت دائمًا لصناعة قائد يذعن لسورية في الدولة الفلسطينية المستقبلية. لكن المعضلة الأساسية التي تعد تسويتها الأكثر صعوبة هي بلا شك الإرهاب.

عند زيارته دمشق في منتصف أيلول 1990، وزير الخارجية جيمس بيكر، جاء يعبر عن إرادة واشنطن بالتعاون مع دمشق لمواجهة العراق في الخليج، أعلن إلى الصحافة أن مسألة الإرهاب تمت مناقشتها «بعمق» مع الرئيس الأسد. «الولايات المتحدة، لا يمكنها إقامة روابط حقيقية إلا مع البلدان التي تشاركها القيم نفسها». سيكون السيد بيكر مستعدًا لسحب اسم سورية من القائمة الأميركية للبلدان

الداعمة للإرهاب شـــرط أن تطرد دمشـــق من أراضـــيها أحمد جبريل قائد الجبهة الشـــعبية–القيادة العامة المتهمة من قبل الولايات المتحدة بتدبير تفجير فوق لوكربي في الإيكوس، الرحلة رقم 103 للطيران الأميركي (بان أميريكان)، حيث لاقى 280 شخصًا حتفهم.

بتأكيدها بأنه ليس لديها «أي أدلة» على علاقة جبريل بهذه القضـــية، رفض السوريون طلب جيمس بيكر. حقيقة وضعت سورية في هذه القضية المروعة، خارج دائرة الاتهام من قبل أجهزة الاستخبارات الغربية والإسرائيلية التي تعتقد أن جبريل تم توجيهه من قبل إيران، إذ أرادت الانتقام لتدمير طائرة الجامبو التابعة لشـــركة الطيران الإيرانية «إيران إير» بصـــاروخ أميركي. مع ذلك، فالاعتقاد بأن جبريل يمكنه الفعل من دون علم الســـلطات الســـورية أشـــبه ما يكون بمزحة. فإذا كان الأمر كذلك، سـيتعرض جبريل للطرد من سـورية على الفور، فنظام الأسـد لا يقبل أبدًا أن يوضـع أمام الأمر الواقع. وعلى الرغم من أنها مارســـت الإرهاب بأشـــكاله كلها على نطاق واسـع، فإن سـورية في عام 1988 لديها الحق في أن تغضـب بسـبب الشـكوك التي تلقي بثقلها عليها. خلال وقت طويل اعتبرت راعية التفجيرات التي حدثت في باريس عام 1986، لكنه تم تبييض صـــحيفتها عند القيام بتحقيق مكثف أظهر أن إيران كانت السيد الوحيد لهذا العمل. والشيء نفسه بالنسبة لمسألة الهنداوي، في نيســان 1986 حيث ظهر بوضــوح فبركة هذه القضــية حيث تمكن الإســرائيليون، اسـتنادًا إلى باتريك سـيل، بمهارة شـيطانية من التلاعب ببعض العملاء السـوريين. يذكر باتريك سـيل أن والد الهنداوي كان يعمل طباخًا في السـفارة الأردنية في لندن حتى تم اكتشاف عمله لصالح الموساد[13].

كيفما كان تطور الأوضـاع في الشـرق الأوسـط، لا توجد كثير من الفرص لكي يتمكن النظام السـوري من إقامة علاقات ودية مع أميركا. مهما كان الجهل وانعدام الرؤية للطبقة السـياسـية الأميركية –واعترافات السـيناتور الجمهوري روبرت دول في

[13] Ibidem.

ربيع 1990 قالها بإسهاب[14] – تجاه مشكلة الشرق الأوسط، الديمقراطية الأميركية ليس لديها أي شيء مشترك مع النظام القائم في سورية. إضافة إلى ذلك ليس من قبيل الصدفة أن المديح الأكثر مغازلة الذي تلقاه حافظ الأسد من الولايات المتحدة جاء من هنري كيسينجر وريتشارد نيكسون، أبطال أشكال الواقعية كلها فيما وراء الأطلسي خلال ثلاثين سنة الأخيرة. لم يبق، على الأقل أمام الاختفاء التدريجي للاتحاد السوفياتي، لسورية التي لا يمكنها بعد اليوم، بمثل ما فعلت في وقت طويل، الاستمرار في اللعب على تناقضات القوتين العظميين. فهي تخاطر أيضًا، إذا كانت العملية الديمقراطية ستستمر في الإمبراطورية السوفياتية، لم يبق أمام سورية سوى أن تكون ملزمة بتقديم كشف حساب للبلدين اللذين أعلنا في مناسبات عدة رغبتهما في التسوية المشتركة لعدد من مشكلات المنطقة. وتشكل القضية الفلسطينية ولبنان جزءًا من هذه المشكلات.

يبدو أن الأسد قدر المخاطر المحدقة بنظامه. وتخلى، على غير العادة، عن اللغة الخشبية العزيزة على قلبه، مؤكدًا حديثًا على التلفزيون: «كل منا يجب أن يدرك ماذا سيحصل لنا. من المؤسف أن نرى تحالف القوى الكبرى يتزامن مع ضعف الأمة العربية، التي توجد على حافة الانهيار وهي لا تدرك المخاطر، القريبة والبعيدة، التي تنتظرها»[15].

---

[14] في 9 نيسان عام 1990، بعد موافقة الكونغرس الأمريكي علي قرار يؤكد بأن القدس هي العاصمة الموحدة لإسرائيل، اعترف روبرت دول بأنه وزملاءه ليس لديهم عناصر كافية لتكوين وجهة نظر ملائمة حول الموضوع، فالسفر إلى المنطقة مكنه من توضيح الرؤية.

[15] خطبة عبر التلفاز في 6 آذار 1990

من الجنرال ديغول إلى فرانسوا ميتيران

عندما سئل حافظ الأسد، في 27 تشرين الثاني 1970 من قبل التلفزيون الفرنسي –أي بعد أحد عشر يومًا من سيطرته على السلطة– عن مشاعره عندما علم بموت الجنرال ديغول، أجاب: «فقد العرب أحد أكبر أصدقائهم. كثيرون عملوا كل ما كان باستطاعتهم لمنع تطور علاقات الصداقة بين الشعبين الفرنسي والسوري. يمثل الجنرال ديغول في الواقع صوت الحرية في العالم الغربي»[16].

الانقلابي، الذي لم يصبح رئيسًا بعد، استعاد في هذه الفرصة الصوت المشحون بانفعال جده الذي طلب نجدة فرنسا ليون بلوم. لأنه إذا كان الغربي الوحيد الذي يكن له حافظ الأسد الإعجاب، فهو بالتأكيد الجنرال ديغول، رجل تصفية الاستعمار الفرنسي، مَن دان إسرائيل لمبادرتها في الحرب عام 1967، وهو الذي أعلن في 29 كانون الأول عام 1968 حظر الأسلحة الفرنسية عن الدولة العبرية بعد قيام كوماندوس من جيشها بتدمير نصف طائرات الأسطول الجوي المدني اللبناني. مع اختفاء تلك الشخصية، العلاقات الفرنسية-السورية لا يمكنها إلا أن تسير ببطء.

لم يكن الأمر كذلك حقًا مع جورج بومبيدو ووزيره للعلاقات الخارجية ميشيل جوبير الذي عرف الاقتراب من قلوب العرب أيضًا[17]. ومن الممكن أن الأمر استمر كذلك مع فاليري جيسكار ديستان، حيث لم يتم دومًا فهم مبادراته فهمًا جيدًا في الشرق الأوسط من قبل دمشق. تجدر الإشارة أيضًا إلى أن الرئيس الفرنسي كان رئيس الدولة الغربي الوحيد الذي استقبل نظيره السوري في زيارة رسمية.

اختلفت الأمور في الواقع مع فرانسوا ميتيران، فهو يدعم علنًا كامب دايفيد، وكان يظهر تعاطفه مع إسرائيل دائمًا، لم يعط ميتيران الانطباع بأنه يحس نبض العالم العربي، باستثناء واحد هو مصر -الموقعة على كامب دايفيد– حيث أمضى

---

[16] مقابلة مع التلفزيون الفرنسي في 1970/11/28.

[17] «هل محاولة وضع الأقدام في بلدك تشكل بالضرورة عدوانا؟»، هذا ما قاله ميشيل جوبير في توضيحه بداية حرب تشرين 1973.

هناك في مرات عدة أعياد نهاية السنة[18]. ومما يزيد في خطر الاختلاف في نظر الحكام السوريين، أن رئيس الدولة الفرنسي، تحت ضغط من وزيره للشؤون الخارجية كلود شيصون، مرهف الحساسية نحو القضية الفلسطينية، أرسل في مناسبتين السفن الفرنسية لضمان مغادرة فدائيي ياسر عرفات، في آب 1982 من بيروت ثم في كانون الأول 1983 من طرابلس. وكذلك إرسال الجنود الفرنسيين في 1982 في إطار القوة متعددة الجنسيات لمساعدة الدولة اللبنانية لاستعادة سلطتها، كان لكل ذلك وقع سلبي في دمشق.

بالتأكيد، لا يمكننا، في الوقت نفسه، إدانة طابع الطغيان للنظام السوري ووقاحته ووحشيته نحو اللبنانيين والفلسطينيين، وأن نأخذ، في الوقت نفسه، على الرئيس ميتيران بأنه سبب في تردي العلاقات الفرنسية-السورية. لكن ذلك كله كان أكثر إقناعًا في نظر الشعب السوري –الذي لا يجب الخلط بينه وبين النظام– حتى لو كانت السياسة الفرنسية في بداية الثمانينيات أقل تسامحًا نحو إسرائيل. فإن صمت فرنسا عند ضم الجولان، في 13 كانون الأول 1981، صدم السوريين بعمق، باتجاهاتهم جميعها، وباختلاف مكوناتهم. في الوقت الذي كان ممثل باريس في مجلس الأمن الذي اجتمع حول هذه المسألة، الغائب الوحيد إلى جانب المندوب الأميركي، وجميع الآخرين صوتوا ضد ضم الجولان. شن الإعلام السوري حملة غاضبة، ذهب حتى تأكيد أن فرانسوا ميتيران لم يتغير منذ اليوم الذي أعلن دعمه للجزائر فرنسية. ونشرت «دراسات» و«تحقيقات» مشكوك بأمرها في تلك المرحلة حول جاك أتالي، المقرب جدًا من إسرائيل، مستشار الرئيس الفرنسي. بالنسبة لبعض السوريين، الموقف القاسي الذي اتخذه الأسد نحو فرنسا طوال عامي 1982 و1983 يعود في الأصل لهذا الوضع.

[18] هذا يعني إن رئيس الدولة الفرنسية يشمئز من الحديث عن «الأراضي المحتلة» فهو يفضل القول «الأراضي المتنازع عليها». وبشكل عام، على الرغم من أن ميتران تطور كثيرًا منذ عام 1981، ويتبنى سياسة أكثر توازنًا، لم يعط الانطباع بأنه على ما يرام أمام نظرائه العرب معظمهم.

وبتعبير آخر، تلاشى الإرث الرائع الذي تركه الجنرال ديغول، الذي جعل من كل زائر فرنسي في سورية موضع ترحيب وضيف بامتياز، تلاشى منذ وقت طويل. وتعود المسؤولية في ذلك على الطرفين كليهما. إذا أكدت الوقائع بسرعة صحة وجهة نظر المعترضين على كامب دايفيد –ومن بينهم الأسد-، من المحتمل أن السادات بنية طيبة عقد صفقة مغبونة مع مناحيم بيغن، إذ يكون من السهل التأكد اليوم –في عام 1991- أن اتفاق كامب دايفيد لم يؤد إلى تقدم القضية الفلسطينية، ولو سنتمتر واحد، ومن الواضح أن سورية الجنرال أسد لم تفعل الكثير لتحسين صورتها. فانطلاقًا من أراضيها، تعمل مجموعات إرهابية عدة، خصوصًا مجموعة أبو نضال منذ 1979. اغتيل يوسف مبارك، ناشر فلسطيني في باريس في كانون الثاني 1980. وكذلك فاضل داني، الرقم الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا، تمت تصفيته في تموز 1982 في باريس أيضًا. إذا أضفنا إلى ذلك الاعتداء على مطعم كولدنبرغ، وإرهاب منظمة الأسالا (ASALA)، وكذلك الجماعات المسلحة الثورية اللبنانية (FARL) ضد الدبلوماسيين الأميركيين والإسرائيليين. وفي باريس أيضًا، اغتيل صلاح الدين البيطار في مطلع عام 1980، الشريك المؤسس لحزب البعث. وفي دمشق «الأسد»، سنجد دومًا مجموعات صغيرة أو حركات مرتبطة بشكل ما، بشكل كبير أو صغير، بنظام دمشق. وعلى الرغم من وجود تعتيم إعلامي أو تضخيم لا يغير من الواقع بشيء، فإن دمشق أثبتت دائمًا، تسامحًا مفضوحًا، نحو المجموعات التي لديها الوسائل لضبطها.

إن قضية الرهائن لم تؤد إلا إلى زيادة مشاعر الاحتقان. بالتأكيد، دمشق ليست على علاقة بغالبية عمليات اختطاف الفرنسيين في لبنان لكن سورية لم تعط أبدًا الانطباع بأنها وظفت كل ما يمكنها لتحرير الصحفيين والدبلوماسيين الفرنسيين. ونعلم، على الرغم من ذلك، تدخل حافظ الأسد، وفي مرات عدة لدى الخميني مباشرة لكي يضغط على خاطفي أشخاص كانوا مقربين منه. ونجح في ذلك. والحقيقة أيضًا أن الأمر عندما يتعلق بمواطنين لبنانيين أو سعوديين، فإنه ليس لديهم بمعنى التبادل نفس «القيمة» كالرعايا الغربيين. لكن يرى بعضهم، إذا أخذنا مسلمة أنه بالنسبة إلى النظام السوري، كل خدمة مقدمة يقابلها ثمن يجب دفعه، نحن في

موقع إذن لنتساءل فيما إذا كان يوجد وراء كل ذلك شكل من أشكال الابتزاز الحاذق.

يجب ألا ننسى أيضًا بأنه عندما ترك بضعة آلاف من الباسداران الإيرانيين يدخلون إلى لبنان في بداية الثمانينيات، أدخلت سورية الدود إلى الفاكهة، وبأنه من دون ضوئها الأخضر، ربما كان اختطاف الأجانب أقل انتشارًا.

لبنان سبب الخلاف

على الرغم من ذلك، فإن فرانسوا ميتيران تعلم خلال بضع سنوات كثيرًا. فزيارته إلى دمشق في نهاية عام 1984 أعادت الأشياء إلى حالتها العادية بعد التوتر الشديد في عام 1983. منذ الآن الخلافات بين باريس ودمشق تتركز فقط حول المسألة اللبنانية، وبدرجة أقل حول موضوع الإرهاب، أي ما تختلف عليه دمشق وواشنطن نفسه، ولكن بعمق أكبر حول المسألة الفلسطينية والإرهاب.

منذ نهاية 1986، فعلت فرنسا التي تشعر بالرضا التام عن العقلية التعاونية التي أظهرتها أجهزة استخبارات دمشق بعد الاعتداءات التي ارتكبت في باريس؛ ما في وسعها كله، كي لا يأخذ شركاؤها الأوروبيون سوى عقوبات محدودة ضد سورية، غداة قضية الهنداوي، إلا أن سوء التفاهم، في المقابل، تضاعف حول لبنان. ولكن مرة أخرى أيضًا بدأت، في الوقت وكل شيء تقريبًا يبدو على ما يرام خلال سنتين من «التعايش» (88/86) مع عودة اليسار إلى السلطة في فرنسا، بدأت الأشياء بالتعقد.

منذ أن زعم الجنرال ميشيل عون، في شهر تشرين الأول 1988، خلافة أمين الجميل على رأس المعسكر المسيحي، بدأت المواجهات بطريقة خفية -كثيرًا أو قليلًا- في لبنان، لتصل إلى عنف غير مسبوق بعد ذلك بستة أشهر. «كما يقول جاك بيرك، عدم معرفة الواقع، جعل الجنرال عون ممثلًا يختزل الموارنة جميعهم،

والموارنة يختزلون لبنان كله»[19]. مما دفع بعض السياسيين الفرنسيين، من اليمين أو من الوسط، إلى اتخاذ مواقف سطحية «تافهة جدًا ومتحيزة». وفي سورية، حيث من الصعب أن نفهم كيف يمكن للمعارضة أن تعبر عن نفسها بحرية، فالموقف الفرنسي يعطي الانطباع، بلا أدنى شك، أن الحكومة الفرنسية متواطئة عبر صمتها. مما توجب على فرانسوا ميتيران، لكي تهدأ الأمور، التذكير بصوت عال أن «فرنسا هي صديقة لجميع اللبنانيين».

عندما سؤل في تلك المرحلة من قبل صحيفة اللوموند، نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام عبر مع ذلك بدقة متناهية عن رأي بلاده فيما يتعلق بفرنسا وبلبنان يقول: «لا أعتقد أن فرنسا لديها مسؤوليات خاصة في لبنان. لا توجد أسباب، ولا عوامل من أجل ذلك. العلاقات الفرنسية واللبنانية لا تختلف إطلاقًا عن علاقات لبنان مع أي بلد آخر»[20]. وجهة النظر هذه هي من الحالات القليلة التي لا تقيم وزنًا للتاريخ المضطرب للعلاقات الفرنسية-اللبنانية، ولا للمسؤولية التي لا يمكن لفرنسا تجاهلها، وهي التي صنعت لبنان ليتمحور «حول القطاع التقليدي للموارنة»[21]. يترجم ذلك الحساسية العميقة للقادة السوريين عندما يقترب بلد ثالث اقترابًا مفرطًا للاهتمام «بمنطقة نفوذهم». ومن غير المفيد التذكير بأن عملاء الأسد، لم يتوقفوا عن التحرش في لبنان، بكل أولئك الذين يظهرون اهتمامًا خاصًا وميلًا نحو العراق أو إيران أو إسرائيل أو فرنسا. مئات اللبنانيين ماتوا بسبب جريمة الرأي، ودفع السفير لويس دولامار هو أيضًا حياته في عام 1981.

كان بالضبط لنفس السبب أن عبد الحليم خدام نفسه، بعد ثمانية عشر شهرًا، في 30 أيلول 1990 يلتزم بلعب دور المراقب الدقيق للحياة السياسية الفرنسية، يعتقد في القاهرة وأمام الصحافة أن «مخطط ميتيران» –مخطط تسوية أزمة الخليج المقدم في 24 أيلول أمام مجلس الأمن من قبل رئيس الدولة الفرنسي– «يبتعد قليلًا عن قرارات مجلس الأمن.» في الواقع، ما يزعج السيد خدام، هو هذا المرور السريع

---

[19] جاك بيرك، في «رأي حر» نشر في صحيفة الليبيراسيون في 1990/10/22.

[20] مقابلة مع صحيفة اللوموند في 1989/4/28.

[21] جاك بيرك، في «رأي حر»، المقال نفسه.

الذي يقترح فيه السيد ميتيران إضافة إلى انسحاب العراق من الكويت، يتطلع المجتمع الدولي بعد ذلك إلى البحث في «حل كل مشكلات الشرق الأوسط»، بقول آخر: بحث المسألة اللبنانية وإذن الوجود السوري في لبنان. وبعد ذلك بأيام يزداد سوء التفاهم أكثر عندما منحت باريس الجنرال عون اللجوء السياسي.

في الواقع لا يوجد هنا ما يبعث على القلق العميق. فإذا نظرنا إلى العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين، ندرك أن النتائج إيجابية جدًا حيث أنه في عام 1990، وللمرة الأولى منذ وصول حافظ الأسد إلى السلطة، الميزان التجاري يميل قليلًا لمصلحة سورية. لكن بوجه خاص منذ 1987 المبيعات الفرنسية لسورية لم تتوقف عن الارتفاع من مليار فرنك لتصل إلى أكثر من ملياري فرنك في عام 1990. أما بالنسبة للصادرات السورية، تطورت بسرعة تطورًا إيجابيًا لأنها قفزت من 425 مليون فرنك فرنسي عام 1987 لتصل إلى أكثر من ملياري فرنك عام 1990. في الحقيقة يشكل البترول، المكتشف بالمناسبة في غالبيته من قبل الشركات الفرنسية في منطقة دير الزور، 91 في المئة من المشتريات الفرنسية. في حين تشكل فرنسا أول مصدر أوروبي لسورية، تبيعها خاصة القمح والطحين (40 في المئة) وكذلك المعدات الصناعية.

استثمرت فرنسا أيضًا ما يقارب 200 مليون فرنك في مركز ثقافي رائع يجب أن يوجه آلاف الشباب السوريين نحو نشاطات متنوعة: تعليم الفرنسية، قاعة سينما، مكتبة حديثة جدًا، إلخ. إضافة إلى ذلك، هناك خمسة آلاف طالب سوري يتابعون دراستهم في فرنسا، خاصة في الطب، وفي مؤسسات تكنولوجية مختلفة.

يجب الإشارة أخيرًا إلى «ازدهار» الوجود الفرنسي في دمشق، المؤسسة الفرنسية للدراسات العربية التي مر عبرها أجيال من المتخصصين في العالم العربي. ميشيل سورا، اختفى بطريقة مأساوية في لبنان بعد اختطافه مع جان بول كوفمان، الذي كان أحد نزلائها في بداية السبعينيات. فبفضل هذه المؤسسة وبما يتجاوز تقلبات الحياة السياسية، نشأ عدد كبير من الصداقات الدائمة التي تشكل أيضًا ضمانات للمستقبل.

النظام السوري أو على الأقل أحد أبرز ممثليه، رفعت الأسد، كان أقل سعادة في فرنسا حيث ‘ن الراديو الحر الذي أنشأه في كانون الأول 1986، «راديو العالم الثالث، صوت العرب من باريس»، لم يكن من بين المنتخبين السعداء الذي تضمنهم المجلس الوطني الأعلى للإعلام في تموز 1987. هذا الراديو، الذي يبدو أن لديه وسائل ضخمة، تشرف علية إحدى بنات رفعت، ويكتفي هذا الأخير اليوم بصحيفة يومية «الشام»، حيث يكون ابنه الأكبر دريد مستشارًا سياسيًا لها، وأعداد الطبعات، وكذلك عدد القراء لهذه الصحيفة غير معروف.

إذا كانت فرنسا التي عرفت أحيانًا كيف تقول لا للقادة السوريين، ما زال لديها رصيد من التعاطف لدى بعض الطبقات من الشعب السوري التي تأمل بصمت، ومن دون أن تصدق كثيرًا ذلك، رؤية إطاحة الديكتاتور رئيسهم-الجنرال، في المقابل ليس لديها ما أفادت منه من الهالة والمشاعر الإيجابية التي أحاطت بموت الجنرال ديغول.

فرنسا قوة متوسطة، تزعج السلطات البعثية عندما تزعم إظهار بعض الوجود في لبنان. لكن السلطة تعرف أيضًا أن فرنسا، بسبب تقاليدها ومعرفتها الجيدة نسبيًا بالشرق الأوسط، يمكنها أحيانًا الدفاع عن القضية السورية، مثلًا أمام شركائها في المجموعة الأوروبية. في 22 تشرين الأول 1990، لم تحرك باريس، على الرغم من ذلك، ساكنًا لصالح دمشق في حين إن الاثني عشر يقررون رفع العقوبات عن الصين وعن إيران. عارضت بريطانيا العظمى في الواقع ذلك دومًا بسبب قضية الهنداوي، ورولاند ديما، بمنتهى السعادة من هذه المعارضة التي جاءت في وقت مناسب[22]، ويكتفي باعلانه الجريء: «فرنسا ليست في وضع يمكنها من مواجهة المشاعر البريطانية»، هكذا تسير العلاقات الفرنسية-السورية وهناك احتمال ضئيل لتتغير طبيعة هذه العلاقات طالما استمر وجود الفريقين كليهما على رأس السلطة في قيادة البلدين.

[22] منح اللجوء السياسي للجنرال عون أثار التوتر بين دمشق وباريس.

سابعًا: النظام السوري، ومنظمة التحرير الفلسطينية، و«الكيان الصهيوني»

عندما تكون الضربات كلها مشروعة

الإسرائيليون والفلسطينيون والسوريون، يجدون أنفسهم معًا منذ عام 1948 في الكارثة غالبًا. ومن بين الشعوب الثلاثة، لم يكن لدى الفلسطينيين دولة بعد، كانوا بلا منازع الأكثر معاناة من الهيمنة أو من الخوف ومن الاثنين الآخرين. مطرود من أرض مولده، ولاجئ بعد آلاف المحطات في لبنان، تستمر مطاردته فيه من قبل الطائرات أو المدفعية العائدة لأولئك الذين استوطنوا على أرضه. وعندما تغيب القوة الإسرائيلية لسبب أو لآخر، يكون ذلك لإفساح المجال للجيش السوري؛ بيروت آب 1982، طرابلس كانون الأول 1983، هما وجهان لعملة واحدة. أبدى الفلسطينيون مقاومة بطولية من دون أمل، مقابل جيشين عدوين نظريًا، لكنهما سعيدين جدًا بتبادل الأدوار في محاولة إنهاء هذا الشعب المشاغب.

من بين العرب جميعهم، من الممكن استثناء السوريين أنفسهم، أولئك الذين هم الأكثر كرهًا لنظام دمشق ورئيسه بلا أدنى شك هم الفلسطينيون. مهندس فلسطيني يعمل في شركة فرنسية، لا يذهب إليها من أربعة طرق بل يقولها مباشرة: «يوجد (بول بوت) لدى الأسد، المدينة بالنسبة إليه مصدر الشر. ولديه باستمرار حاجة للانتقام من أهل المدن، لكن لديه أيضًا عيدي أمين في جانب مهم، إعطاء درس من أجل لا شيء، حتى لا نحتاج إعطاء درس من أجل شيء ما. النظام السوري، مثل شقيقه العدو العراقي، أبدع الردع، والعنف الوقائي. الحياد عند البعثيين السوريين والعراقيين غير مقبول. في حين إن الأنظمة العسكرية التقليدية لا

تهاجم سوى المعارضة، يريد البعثيون من الجميع تقديم فروض الولاء، إذ يجب باستمرار إثبات التبعية والإخلاص»[1].

هذا الحكم أعلاه –الذي أطلقه الفلسطيني- ولو بدا لبعضهم مبالغاً فيه، إلا أنه يترجم جيدًا اشمئزاز شعب نحو رئيس دولة عربية أذله، إضافة إلى دفعه للمعاناة والآلام. حتى الملك حسين لم يثر أبدًا مثل هذا النفور، حيث البدو على الرغم من تميزهم بالقسوة في مدة «أيلول الأسود» المأسوية في عمان خريف 1970، إلا أن الملك الهاشمي لم يعلن أبدًا عزمه على تصفية المؤسسات التمثيلية للشعب الفلسطيني، وعلى رأسها منظمة التحرير الفلسطينية. في الواقع، إذا كان من شيء لا يمكن أن نأخذه على الرئيس السوري بالنسبة للفلسطينيين هو افتقاده لمتابعة الأفكار التي آمن بها.

كامينسكي وكرك ذكرا بحق أنه بعد حرب حزيران 1967، يعارض حافظ الأسد الذي كان حينئذ وزيرًا للدفاع، منذ ذلك الوقت صلاح جديد وأصدقاءه، في حين إن أنصار جديد/أتاسي «استمروا بعد حرب 1967 بالنظر إلى المعركة ضد إسرائيل كحرب تحرير، يجب قيادتها بصورة أساسية من قبل الفلسطينيين بمشاركة سورية، يرى الأسد أن الحرب ضد إسرائيل هي عبارة عن حملة عسكرية تقليدية، تبدأ في اتفاق الدول العربية جميعها على التوحد في هذه المواجهة، من دون النظر إلى السياسة الداخلية لأنظمتهم»[2]. وستكون بالتحديد المواجهة مع إسرائيل والعلاقات السورية مع المنظمات الفلسطينية التي ستشكل الحجج التي أخذ بها الأسد لإسقاط جديد.

لا يمكن أن يكون الأمر أكثر وضوحًا من ذلك، فأي منظمة فلسطينية بنظر الأسد لا يمكن أن تكون إلا خاضعة لسورية. نتذكر رغبته في إقناع هنري كيسينجر بعد حرب أكتوبر 1973 أن الصاعقة التي يقودها فلسطيني عضو في حزب البعث وهو زهير محسن، هي أكثر أهمية و«أفضل تسليحًا» من فتح. العراق – لنذكر

---

[1] محادثة مع المؤلف.

[2] Kaminsky C. et Kruk S., La Syrie politique et strategies de 1966 a nos jours, Paris, PUF, 1987. P. 48

بالمناسبة هذا التشابه الإضافي بين النظامين- تصرف العراق بالطريقة نفسها مع جبهة التحرير العربية. أخيرًا، استفاد البلدان كلاهما، بالتزامن أو بالتناوب، من «خدمات» أبو نضال وهو منشق آخر عن فتح، لتصفية المقربين من عرفات أو لتدبير أعمال إرهابية هنا أو هناك، أو على الأقل قام النظامان وقتًا طويل بفعل ذلك.

يراكم الفلسطينيون في الواقع كثيرًا من التناقضات المتلاحقة بين بلدان عربية عدة. كيف يمكن الخروج من هذه الأوضاع؟ بالنسبة لعرفات الإجابة بسيطة: «قوة فتح تكمن في رفضها أن تصنف في اليمين أو في اليسار، في الشرق أو في الغرب، ومن رفضها أن توضع تحت جناح هذه الحكومة العربية أو تلك. يوجد حاليًا ستة معسكرات عربية أي منها نختار؟»[3] هذا الرأي لا يتفق مع الجنرال مصطفى طلاس الوزير السوري للدفاع ورفيق الدرب القديم للرئيس الأسد. طلاس يرى أن المشكلة الأولى بالنسبة للمقاومة الفلسطينية هي وحدتها، منذ 1971 يتجه لتشكيل لجنة تتضمن ممثلين لبلدان عربية عدة بهدف أن «يتولى تمامًا» توحيد المقاتلين، مع احتمال «التصفية الجسدية» للفدائيين، الذين قد يرفضون هذا المخطط[4] إذا لم يتمكن الفلسطينيون من الوصول إلى حل التناقض الأساسي الذي يجعلهم في مواجهة مع البلدان العربية التي تحاول تحقيق السلام على حسابهم -أو لأن مفهومهم للتسوية لا يتطابق مع أشقائهم- حافظ الأسد لم تكن لديه أبدًا مثل هذه الحالة.

وجد الأسد في انفجار الحرب الأهلية اللبنانية، فرصة فريدة لتجريب تقنياته السلطوية: كيف تفرق؟ كيف يمكن خلق بنية خاضعة؟ وخاصة كيف يمكن إدارة اختبارات القوة خارج الأرض السورية؟ لم تتمكن منظمة الصاعقة من القيام بالدور المرسوم لها كما يجب، أفاد الأسد، حيث القدرة على إدارة الوقت من ميزاته الرئيسية، من الضربة الإسرائيلية في عام 1982 بالدخول في المعمعة اللبنانية-الفلسطينية ليحاول توجيه الطعنة القاضية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي كانون الأول 1983، بعد أن طرد عرفات ورجاله من طرابلس، اعتقد الأسد أنه وصل إلى

---

(3) Baron Xavier, Les Palestiniens, un people, Paris, Sycomore, 2e edition, 1984, p. 220.

(4) Ibidem, p. 224.

أهدافه: لم يبق في مخيمات اللاجئين وفي شمال لبنان وفي سهل البقاع سوى بضع مئات من الفلسطينيين من الخاضعين له، لكن اعتبارًا من عام 1985 وخصوصًا في عام 1986، نجح أنصار عرفات، من طرقات يجب أن يكشفها التاريخ[5] في يوم ما، في الوصول إلى المخيمات في بيروت وفي جنوب لبنان. الأسد امتلكه الغضب لأن اليمين المسيحي أسهم أسهامًا كبيرًا في عودة الفدائيين عبر ميناء جونيه. بعد دفع حركة أمل الشيعية الخاضعة لسورية للسيطرة على المخيمات في بيروت، تحت حجة الفوضى السائدة أرسل الأسد جنوده إلى العاصمة اللبنانية في شباط 1987. فهمت منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف) مباشرة المناورة، ودانت بشدة عودة الجيش السوري.

في 29 آب 1987، أمام عدم الاكتراث شبه التام للرأي العام الغربي الفرح بخروج الصحفي الأميركي شارل غلاس من زنزانته، قامت م.ت.ف بتوجيه نداء للأسرة الدولية لكي تتوقف «المعاناة الشديدة» للمدنيين الفلسطينيين المحاصرين من قبل «القوات المعادية». لم تظهر كلمة سورية في النداء، لكن الإشارة واضحة للناس جميعهم. قبل ذلك بأسابيع أكد أبو جهاد القائد المساعد للقوات الفلسطينية، أن العلاقات السورية-الفلسطينية لم تشهد «أي تقدم»، وأنها في «نقطة ميتة». التحق في المدة نفسها تقريبًا خالد الفاهوم، الرئيس السابق للمجلس الوطني الفلسطيني، ضعيف الشخصية وقليل الشجاعة؛ بالأسد، وأعلن شروط المصالحة السورية-الفلسطينية:

- قطع العلاقات الفلسطينية–المصرية

- إلغاء اتفاق حسين/عرفات في شباط 1985 (الذي يتضمن بوجه خاص إقامة فيدرالية أردنية–فلسطينية)

- رفض القرارات 242 و338 لمجلس الأمن.

---

[5] عندما نتأمل كيف كان حجم الكراهية للفلسطينيين من قبل المليشيات المسيحية اللبنانية، لا يمكننا إلا أن نتأمل مشهد الفدائيين العائدين إلى قواعدهم عبر ميناء جونيه المسيحي.

في الواقع، أعاد الأسد علاقاته الدبلوماسية مع مصر، واعترف منذ زمن بعيد بالقرارين 242 و338، لا يمكنه أن يتحمل فكرة رؤية الملك حسين وعدوه القديم عرفات يذهبان وحدهما. يعتمد الأسد في معارضته لعرفات على جبهة الوفاق الوطني الفلسطيني التي لا تمثل حتى 1 في المئة من الفلسطينيين، لم يفهم أبدًا أن الوحدة الفلسطينية حقيقة تتمحور حول شخصية عرفات الذي حصل على 80 في المئة من الأصوات تقريبًا في الأراضي المحتلة. عرفات متبوع من بعيد من قبل حبش –الذي كان نصيبه 6 في المئة- في حين إن الرئيس السوري حصل على أقل من 1 في المئة من الأصوات[6].

في تموز 1988، بعد بضعة أيام من دفن «أبو جهاد» في دمشق حيث سمح لعرفات بالمشاركة، أصدر الأسد أوامره للقضاء على آخر المخلصين للفلسطيني رقم واحد في مخيمات بيروت وضواحيها. منذ الآن، أنصار عرفات جميعهم في صيدا، عالقين بين الجيش السوري في الشمال، والجيش الإسرائيلي في الجنوب والميليشيا المرتبطة بسورية تحيط بالمدينة. لكن الأسد ليس على عجلة من أمره، فالانتفاضة، التي بدأت في كانون الأول 1987، لها شعبية واسعة في العالم العربي الذي بدوره يدعم م.ت.ف وسياستها في الانفتاح على الغرب. إضافة إلى ذلك، يخشى الأسد أن تتحالف منظمة عرفات «فتح» مع حزب الله ضد أمل. فسمح إذن لنبيه بري، زعيم هذه الحركة الشيعية، بتوقيع اتفاق في الأيام الأولى من عام 1989 مع م.ت.ف تتمكن المنظمة الفلسطينية بموجبه من العمل بحرية تامة مع الاعتراف بسلطة أمل على المنطقة كلها.

[6] استطلاع نفذته محطة تلفزيونية أسترالية ABC، المجلة الأمريكية نيوزداي، وصحيفة الفجر التي تصدر في القدس.

عرفات اختار بغداد

إن اجتياح الكويت من قبل العراق جاء ليؤدي من جديد إلى اختلال التوازن الدقيق وسريع العطب. عرفات كان مجبرًا اختيار معسكر بغداد من بين «المعسكرات الستة» التي أشار إليها. حقًا إن شعبه بالكامل محبط من مفاوضات السلام التي تعمل دومًا على الانتظار. شعر باليأس من التعنت التام للقادة الإسرائيليين الذين صموا آذانهم عن صراخ اليأس الذي مثلته الانتفاضة، ما دفعه في هذا الاتجاه ليس حبًا بصدام حسين، ولكن لأن الفلسطينيين تعلموا منذ وقت طويل عدم صنع الأوهام حول الأشقاء العرب، ولأن الديكتاتور العراقي قام بضربة عنيفة لهذه الأوضاع الشائكة، وأن ما سينتج عنها لا يمكن أن يكون أسوأ من الأوضاع التي يعيشونها.

في تحليل قصير النظر، سارع الإسرائيليون والأعداء الحقيقيون لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى التأكيد بأن القيادة الفلسطينية فقدت كل مصداقية بدعمها للطاغية العراقي. في الحقيقة أعطى عرفات -بهذا الفعل- انطباعًا مؤسفًا بالدفاع -علمًا بأنه لم يفعل ذلك أبدًا- عند احتلال الكويت من قبل العراق. وهو بالإضافة إلى ذلك من غير المنطقي بالنسبة لفلسطيني يزعم أن إسرائيل جعلته يعاني المصير نفسه، ولكن مع وجود 500 ألف فلسطيني في الكويت وفي العراق هل يمكن لعرفات أن يتصرف بطريقة أخرى؟ في الحالات جميعها، اعتقد رئيس م.ت. ف أن الكويت، عندما يستعيد سيادته، يمكنه بصعوبة الاستغناء عن الجالية الفلسطينية التي لها الفضل، إلى حد كبير، في ازدهاره[7].

يلتزم حافظ الأسد الصمت. كل ما فعله هو تشديد المراقبة على مخيم اليرموك الفلسطيني في أطراف دمشق، الذي لم يخف أبدًا معارضته للديكتاتور السوري.

ويمكن أن يكون منتظرًا، تنديد سورية باجتياح الكويت من قبل العراق، وإرسال قوات سورية إلى العربية السعودية، استقبل بامتعاض من قبل الفلسطينيين. وكذلك في البلاغ رقم 62 الذي أعلنته، في 1 تشرين الأول 1990، القيادة الموحدة للانتفاضة الفلسطينية، بعد انتقاده الضمني لبغداد أكد البيان على أن «الشعوب

[7] المجازر التي تعرض لها الفلسطينيون في الكويت في آذار عام 1991، لا تبشر بالخير فيما يتعلق بمستقبلهم في الإمارة.

جميعها لها الحق في الاستقلال وفي تقرير المصير»، ورفض «كل أشكال الاحتلال مهما كانت الدوافع»، وهاجم البيان بعنف دمشق والقاهرة: «في لحظة دخول الانتفاضة شهرها الخامس والثلاثين، تتآمر القوى الاستعمارية من جديد لاحتواء النهوض العربي من أجل إنهائه بمساعدة الأنظمة الفاسدة القائمة في دمشق والقاهرة». ودانت القيادة الموحدة أيضًا كل أولئك الذين دعموا «القرارات غير العادلة ضد العراق، ورفضوا الربط بين أزمة الخليج والقضية الفلسطينية»[8].

بعد بضعة أيام، في 6 تشرين الثاني، أجاب فاروق الشرع وزير الخارجية السوري، بشكل غير مباشر على فلسطينيي الأرض المحتلة، بوصف مقترحات صدام حسين «بالمسألة الخطرة» في «الربط بين أشكال الاحتلال جميعها» في الشرق الأوسط. «بمطالبته بمكتسبات مهمة من الكويت، بحسب ما يقول، يعطي العراق إسرائيل حجة لتفعل نفس الشيء على حساب الشعب الفلسطيني». ويرفض الوزير من بين ما يرفض، طلب بغداد بوضع الأزمة اللبنانية على جدول لأعمال مؤتمر دولي. «هذه الأزمة يجب تسويتها في إطار اتفاق الطائف الذي يعد منذ الآن شبيهًا بالدستور اللبناني».

تأثرت العلاقات السورية–الفلسطينية وتطورت على وقع أحداث المنطقة، وطالما على الأقل م.ت.ف والنظام السوري يوجهان بالفريق الموجود نفسه حاليًا، ليس لهذه العلاقات أي حظ في التحسن. الخلافات كبيرة جدًا في الواقع، ليس فقط بسبب عدم وجود تفاهم بين عرفات والأسد –لا أحد يتجاهل ذلك– ولكن ببساطة لأن الرئيس السوري لديه رؤيا تتعلق بمستقبل فلسطين ليست أبدًا تلك التي لدى الغالبية الساحقة من الشعب الفلسطيني.

«ليست فلسطين، كما يظن حافظ الأسد، جزءًا من الوطن العربي فقط، فهي جزء أساسي من جنوب سورية. نحن نرى كذلك بأنه من حقنا ومن واجبنا –ولا يمكننا التنازل لا عن حقوقنا ولا عن واجباتنا– في العمل لكي تبقى فلسطين المحررة في إطار الوطن العربي والجمهورية العربية السورية»[9].

---

[8] إعلان وصل إلى مكتب AFP في نيقوسيا.

[9] Hafez al Assad op. cit., pp. 57 et sqq.

«القضية الفلسطينية، كما يقول أيضًا الأسد، كانت دومًا قضية الشعب السوري برمته، قبل أن تكون قضية بعض المنظمات الفلسطينية، وقبل ظهور منظمات الثورة الفلسطينية. استنادًا إلى هذه القاعدة، نعتقد، منذ إطلاق أول رصاصة من قبل الثورة الفلسطينية، يوجد رابط استراتيجي بين سورية وبين هذه الثورة»[10].

بالتأكيد، يتحدث حافظ الأسد أيضًا عن حقوق الشعب الفلسطيني «بإقامة دولته المستقلة على أرضه الوطنية». ولكن في ذهن الأسد، يتعلق الأمر بالأرض العربية نفسها وبأرض عربية واحدة؛ أن الشعبين كليهما يطمحان بالطبع إلى الوحدة، يمكننا أن نتخيل جيدًا أي نوع من الدولة الفلسطينية يطمح إليه الرئيس السوري. إذا كان بإمكان جيمي كارتر القول في يوم ما أن غالبية الدول العربية لا تريد دولة فلسطينية مستقلة، فيما بعد، تم تأكيد وجهة نظر كارتر من قبل أبو إياد، الرقم الثاني في فتح وأحد الرجال الأكثر تأثيرًا في م. ت. ف إذ يقول، القليل من الدول العربية تأمل في إقامة دولة فلسطينية خصوصًا سورية، لأنها تخشى نتائج ظهور دولة عربية ديمقراطية حقيقية في المنطقة. أبو إياد لديه الحق على الأرجح لكن حافظ الأسد، حيث الطموح في أن يصبح على رأس قوة إقليمية، يجب أن يخاف خصوصًا من أن دولة فلسطينية ذات سيادة وديمقراطية ستبدد أحلامه في العظمة.

أسد وإسرائيل: حساسية عميقة

كان هنري كيسينجر أول من ذكر التشابه في سلوك المفاوضين الإسرائيليين والسوريين عند قيامه بجولاته المكوكية المرهقة بين القدس ودمشق خلال الأشهر التي عقبت حرب أكتوبر 1973. التصلب والتجهم لهؤلاء بخلاف المرونة والعقل المنفتح للمصريين من وجهة نظره. وفيما يتعلق بالفلسطينيين، كما رأينا، فإن إسرائيل وسورية أظهرتا باستمرار التصميم نفسه لإجهاض أي إرادة فلسطينية في الاستقلال. منذ بداية السبعينيات، لم يتوقف الواحد كما الآخر عن اللقاء من أجل «تحطيم الفلسطيني». في سورية وفي إسرائيل نفسها أو في الأراضي التي تسيطر

[10] Ibidem.

عليها، لبنان، الضفة الغربية وقطاع غزة. من هنا جاءت مقولة «سورية وإسرائيل المعركة نفسها»، يوجد هنا اختصار، لم يتردد بعضهم في استخدامه لأنه جذاب كما يبدو، لكنه ليس مطابقًا للواقع.

الأسد، كما كثير من مواطنيه –يبقى لديهم على الأقل هذا الشيء المشترك– أثبتوا اضطرابًا غريزيًا نحو كل ما يتعلق بإسرائيل دائمًا. ففي بداية 1974، عندما قامت مجموعة من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بعملية أدت إلى قتل عشرين طفلًا إسرائيليًا في معالوت، كتب كيسينجر أن هذه المرحلة الكارثية تركت أثرًا لا يذكر عند الرئيس السوري الذي رأى بأنه كان «على إسرائيل قبول طلبات الارهابيين»[11]. لكن الأسد ليس رجلًا ناعمًا، وليس من المؤكد أن مذبحة حماة أو الدامور –حيث كانت قواته مسؤولة مباشرة– أثرت كثيرًا في مشاعره.

مثله مثل كثير من العرب أبناء جيله، أسد كان عمره 17 عامًا عند قيام الدولة اليهودية، تأثر تأثرًا عميقًا بهذا الظلم المرتكب بالنسبة إليه ليس فقط بحق الشعب الفلسطيني، لكن بحق كل الأمة العربية كلها. من وجهة النظر هذه، الرئيس السوري بقي دائمًا مخلصًا لأفكاره كشاب بعثي. في كل مرة يتم التعرض «للكيان الصهيوني» في خطاباته يتحدث تقريبًا في إطار تاريخي «على عكس ما يدّعيه زعماء الصهيونية، هذه الأخيرة ليست تيارًا تاريخيًا، بل هي ظاهرة لا ترتبط بالمنطق التاريخي. ولا هي -كما يسعد بعض المفكرين برؤيتهم-تيار تقدمي، بل هي حركة رجعية حتى النخاع مرتبطة بقيم متخلفة، قيم تناضل ضدها الإنسانية. (....) الصهيونية قائمة على فكرة العرق المتفوق، حيث تصورها لعالم يتقاسمه شعوب، قوية وشعوب أكثر ضعفًا دائمًا، بين أسياد وعبيد. لا نفهم شيئًا عن الصهيونية إذا تخيلنا بأنه يمكن هزيمتها بشيء آخر غير القوة. (....) الصهيونية حركة استعمارية وعنصرية، تشبه دعوات العنصرية كلها، لكن تملك فائضًا من امتيازات السلطة، وتسيطر على مراكز أساسية في أنظمة إمبريالية. لا يوجد بلد في العالم ينظر إلى خارج حدوده بقدر ما تنظر إسرائيل، وتفرض إرادتها على دول الجوار بقدر ما تفعل

(11) Kissinger (Henry), op.,cit., 921.

إســـرائيل»[12] 12. «لقد أثبتت التجربة أنه من غير الممكن وضـــع حد لتطلعات إســرائيل التوســعية طالما تســتمر في الاعتقاد بأنها قوة عظمى في المنطقة»، هذا ما يؤكده الأســد أيضًــا في تلك المقابلة التي أجراها مع تلفزيون أميركي. والخلاصــة مهما قلنا، إذا بقي الحال على هذا المنوال، فالسلام السوري–الإسرائيلي لن يتحقق في الغد القريب.

لكن إذا كان للقلب أسبابه، العقل لا يعرف ذلك، فالواقعية عند الرئيس السوري قادته خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة إلى أن يأخذ في الحسبان الواقع الإسرائيلي. فإذا كان مقتنعًا كغيره من الكثير من العرب أن «الكيان الصهيوني» سينتهي يومًا إلى منســـيات التاريخ، لكن ليس لديه أوهام حول الوقت الذي ســـيتطلبه ذلك. كان حلفاؤه السوفيات من بين أولى الدول التي اعترفت بخلق إسرائيل، ولم يشككوا أبدًا بهذا الاعتراف.

بعد أن تراجع عن الالتزام بالأطروحة الأكثر تشـــددًا –تلك التي تذهب حتى النهاية- فلم يكن بالإمكان ســوى شــطب إســرائيل من الخارطة، في المقابل، تشبث الأســد بعناد تام بالشــكل، «فالتبادل» مع الدولة اليهودية أو «الحوار» حدث دومًا بواسطة بلد ثالث –الولايات المتحدة بصورة أساسية- أو المنظمات الإنسانية مثل الصــليب الأحمر، خصــوصًــا من أجل تبادل الأسـرى. على خلاف الملك حسـين ملك الأردن، حافظ الأســد لم يلتق أبدًا في زاوية ما في الجولان الســيدة غولدا مائير أو السيد شيمون بيريز، وكان لممثليه في المقابل، على الأرجح اتصالات مباشرة مع «العدو الصـــهيوني». أكدت وســـائل إعلام عدة، من بينها المجلة المصـــرية «المصور»، التي يرأسها مكرم محمد، أن رفعت الأسد، الأخ الأصغر للأسد، التقى آرييل شارون سابقًا، خاصة في جنيف. إذ يتعلق الأمر بوضع مخطط لطريقة تصفية منظمة التحرير الفلســطينية في لبنان. لكن هذا النوع من الأخبار يجب أخذه بحذر، فالإعلام المصري في تلك المرحلة لديه على ما يبدو مصلحة في تشويه صورة القادة السوريين.

[12] مقابلة مع محطة تلفزيونية أمريكية ذكرت في «هكذا قال الأسد»، ص 121.

ولكن الأكثر دهشة مع ذلك، هذه الشهادة لمسؤول فلسطيني رفيع للمؤلف كاتب هذه السطور. هذا المسؤول المقرب من ياسر عرفات يؤكد علمه بدقائق محضر اجتماع (المحادثة الشفوية) في لقاء في إفران في المغرب بين الملك الحسن الثاني وشيمون بيريز، في 22 و23 تموز 1986.

بيريز: صاحب الجلالة، أشكركم على استقبالكم وأهنئكم على شجاعتكم. لكن ألا تخشون من ردود فعل سلبية جدًا للبلدان العربية؟

الملك: لا، لا أعتقد ذلك، باستثناء سورية ربما. بيريز: أوه. إذا لم تكن المشكلة سوى سورية فقط، لا تهتموا، لدينا الوسائل لإسكاتهم.

الملك: آه. كيف سيكون ذلك؟

بيريز: لقد عقدنا اتفاقًا مع السوريين على أعلى المستويات

الملك: هل بإمكانكم أن تقولوا لي مع من؟

بيريز: لا لا يمكن أن أكشف لكم ذلك لكن بإمكانكم الثقة بي

الملك: اتفاقات مكتوبة أو شفهية؟

بيريز (مبتسمًا)، أجاب: الاثنين.

هذه اللعبة السورية المزدوجة، من الممكن أن يؤكدها مؤرخو المستقبل، تفسر لنا بلا شك، التكتم الشديد للنظام السوري عندما علم أن حلفاءه الإيرانيين لديهم اتصالات سرية لا مع الولايات المتحدة فقط، ولكن أيضًا مع إسرائيل. بالنسبة للأسد، عندما تمر اللحظات الأولى بعد الذهول -إذا كان ثمة ذهول- وجود هذا الدليل يثبت مرة جديدة أيضًا أن السياسة والأخلاق لا يسيران جنبًا إلى جنب.

فيما يتعلق بإسرائيل، أثبت الرئيس السوري دومًا قدرًا كبيرًا من الحذر. منذ 1967، إذا استثنينا بالطبع حرب 1973، كانت الحوادث في الجولان، هنا حيث

يتواجه البلدان، تعد على أصابع اليد الواحدة[13]. في لبنان، المواجهات كانت أكثر عددًا لكن، بصورة عامة، لم يتجاوز الجيش السوري حتى 1982 وبعد شباط 1987 أبدًا الحدود التي وضعتها إسرائيل، على بعد بضعة كيلومترات جنوب صيدا.

كل ذلك يتأتى في الواقع من حس سليم بسيط. في العديد من المعارك الجوية التي حصلت فوق الأراضي اللبنانية بين الطيران السوري والطيران الإسرائيلي، المعركة انتهت دومًا لمصلحة تل أبيب. وفي أثناء الصيف في 1982، على الرغم من مقاومة عنيدة أحيانًا، توجب على المدرعات السورية التراجع أمام تقدم دبابات آرييل شارون. في الحقيقة أن الأسد كان حذرًا في إرسال التعزيزات وأن قواته في لبنان ليست مهمتها محاربة إسرائيل لكن حفظ النظام في بلاد الأرز.

في الواقع، منذ 1973، فقدت سورية تمامًا المبادرة العسكرية في مواجهة إسرائيل. «لن نترك لأي كان اختيار زمان المعركة ومكانها»، كما يحب القادة السوريون أن يكرروا ذلك. وحقيقة أن الدولة تخصص مبالغ ضخمة للتسلح. في 1986، أنفقت دمشق 13.6 مليار ليرة سورية للتسلح (3.5 مليار دولار) ما يعادل 31 في المئة من مجموع نفقات الدولة. 400 ألف رجل هم باستمرار تحت العلم مقابل أقل من 100 ألف في إسرائيل. من أين تأتي إذن المقولة، الإجماع في الرأي، -وبالتأكيد رأي رئيسها نفسه- أن سورية ليست دومًا في وضع يمكنها من مواجهة في سلاح مماثل لسلاح العدو؟ الأسباب كثيرة، وتعود أولًا إلى نوعية السلاح التي تبقى أدنى مما لدى الإسرائيليين الذين لديهم في المجالات جميعها أفضل ما هو موجود، والأكثر دقة وتعقيدًا وتفوقًا. هذا صحيح خصوصًا في مجال الطيران.

يعود أيضًا إلى دافع العسكريين، فالجيش السوري في غالبيته يمثل المجتمع السوري، وليس لديه رغبة حقيقية في القتال من أجل نظام لا يؤمن بصدقيته. وهو إضافة إلى ذلك، في بنيته موجه للقمع الداخلي، أكثر مما هو موجه للحرب التقليدية -الأسلحة الحديثة والأكثر تطورًا توجد في أيدي الوحدات العلوية أو المرؤوسة من

---

[13] السوريون المعنيون بمثل هذه الحوادث النادرة يتم توقيفهم ولا أمل بالإفراج عنهم. وتلاحظ المعارضة السورية بهذا الخصوص أن الاتفاق الوحيد الذي التزم به الأسد بدقة هو اتفاق فصل القوات مع إسرائيل في عام 1974. لم تخف إسرائيل أبدًا خشيتها من تغيير الأسد بأحد المتشددين أو المغامرين.

قبل المقربين من الرئيس- وغالبًا ما تخيم أجواء من الشـــكوك التي يعنى بها ويثيرها وجود الموجهين السياسيين في المستويات جميعها. كما إن الجيش السوري أصبح أيضًا جيش موظفين حيث يجدون الفرصة للعيش بظروف أقل سوءًا مما هو الأمر في الحياة المدنية.

إضافة إلى ذلك كله، تجب الإشارة منذ بضع سنوات، إلى الأزمة الاقتصادية والمالية التي لا توفر العسكريين. مثال من بين الكثير، ومن مصدر موثوق: توجب على المستشفيات العسكرية تزويد المستشفيات المدنية في 1987 بكميات من الأدوية لأن هذه الأخيرة لم تكن في وضع يمكنها من الحصول عليها، تم الاتصال بالألمان الشـرقيين لتغطية هذا النقص الخطير، لكنهم طلبوا أن يدفع لهم بالعملات الأجنبية، وأحد هؤلاء المبعوثين من برلين الشرقية أطلق كلمته القاسية أمام محادثيه السوريين: «بعض ضباطكم الكبار يجدون جيدًا العملات الأجنبية لشراء الماركات الضـرورية من السـيارات الضـخمة من ألمانيا الغربية، لماذا يتوجب علينا نحن أن نظهر تعاطفنا وتفهمنا؟».

خلاصة القول، نتصور أن حافظ الأسد يحضر لمغامرة عسكرية عالية المخاطر – هذا التصور وهو قليل الاحتمال- لا يوجد أي سبب للاعتقاد في المدى المتوسط أن تأخذ دمشق المبادرة للمواجهة مع الدولة العبرية. في الواقع، كما أعلن جيمي كارتر في 19 مارس 1990، الذي أكد بأنه يتحدث بموافقة الرئيس الأسـد: تدعم سـورية إقامة مؤتمر دولي حيث تنتظر أن تفاوض مباشـرة مع إسـرائيل المشـكلات المعلقة، خصـوصًـا الأراضـي السـورية في الجولان المحتل منذ حرب 1967، الذي ضـمته الدولة اليهودية في عام 1981. في تفسير شخصي، لمهندس اتفاقات كامب دايفيد المنفصـلة -ويالتناقض- تجاهل سـورية، يرجح أن اتفاقًا شـاملًا للسـلام في الشـرق الأوسط يجب أن يتضمن منطقة منزوعة السلاح بعمق 5 كيلومتر من جهتي الحدود الدولية الإسرائيلية-السورية كلتيهما. على الرغم من أن الإعلام السوري التزم الصمت فيما يتعلق بهذه التصريحات، يمكننا بعقلانية التفكير أن السوري رقم واحد لم يكن -في العمق- ليعترض على ذلك.

خلال وقت طويل، رئيس الدولة السوري لامس حلم تحقيق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل. لكن منذ أن قام السفير السوفياتي في سورية، مهما قيل بهذا الشأن، بتبديد الأوهام كلها حول هذا الموضوع لدى حافظ الأسد، يظهر أن سورية تأخذ بطموحات أخرى. في 6 حزيران 1990، رئيس الوزراء محمود الزعبي يحدد كذلك أن بلاده مصممة على تحقيق التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني «هذا التوازن لا يتوقف أبدًا على الجانب العسكري، لكنه يتضمن الجوانب السياسية والاقتصادية والعلمية». «هذه المواجهة، أضاف السيد الزعبي، هي مسألة وجود ولتكسبها سورية تحتاج إلى الأسلحة الممكنة جميعها، خصوصًا مجتمع منظم سياسيًا، ومتطور عسكريًا» في العمق، بالنسبة لرئيس الحكومة السورية الذي لا يخالف بالتأكيد فكرة رئيسه الشهيرة «التوازن الاستراتيجي»، لن تصبح حقيقة إلا عندما يصبح مستوى الحياة في البلدين أو على الأقل مستوى النمو متقاربًا، ويمكن مقارنتهما.

في هذا السياق، القلق الإسرائيلي الذي تنقل الصحافة الدولية أصداءه، لا يستند إلى شيء ملموس حقًا، إلا لتذكير المسؤولين السوريين بأنه يتوجب عليهم بالضرورة البقاء في حالة حذر بين حين وآخر. فعلاقة توازن القوى في الشرق الأوسط المعلنة في كل سنة من قبل مركز الدراسات الاستراتيجية في يافا في إسرائيل يظهر بوضوح في آب 1988 بأنه احتمال ضعيف جدًا أن تأخذ دمشق وحدها، على المدى القصير، أخطار الهجوم على الدولة العبرية على الرغم من أنه لا يستبعد تمامًا أن يتحول حادث عرضي مفاجئ إلى مواجهة شاملة[14].

التطورات الحالية على الساحة الدولية، خصوصًا اضمحلال الاتحاد السوفياتي لا يمكن إلا أن يريح القادة الإسرائيليين في هذا الاتجاه. على الرغم من عدم إمكانية قيام حرب، يستمر السوريون والإسرائيليون في الاختبارات عبر اللبنانيين. بالإشارة إلى العودة السورية بقوة في 1987 إلى الساحة اللبنانية، كتب محقًا غسان تويني صاحب جريدة النهار:

---

[14] جاء في اللوموند في 1988/9/5.

«هذه المرة، تتصرف سورية بانتداب مزدوج؛ إقليمي ودولي. هذه المنزلة تمكنها من لعب دور مزدوج: فهي البطل الفاعل الأول وفي الوقت نفسه هي الحكم المطلق. ترسل إسرائيل إشاراتها، ورسائلها السلمية، إلى دمشق وليس إلى بيروت، وتلبس لبوس التحذير ضد الحرب، حرب لا يريدها أحد. لأن إسرائيل في الواقع، يمكنها القيام بحوار استراتيجي مع سورية مع متابعة تصرفها في لبنان. كذلك يمكنها القيام هي أيضًا بفعل في لبنان، مع محاورة إسرائيل، وحده لبنان غير قادر على الحوار، وأقل من ذلك أن يفاوض مع واحدًا دون الآخر»[15].

هذه السطور هي معاصرة وتعكس أكثر من أي وقت مضى، الحال التي آلت إليها الأمور بعد توقيع «معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق» في 22 أيار 1991 بين دمشق وبيروت[16].

[15] Ghassan Tueni, op.,cit., p. 398

[16] تتلقى الحكومة اللبنانية برئاسة عمر كرامي الثلاثاء مساء من يدي ضابط مخابرات سوري؛ جدول الأعمال لمجلس الوزراء الذي سيعقد يوم الأربعاء. وعندما يكون الأمر مهماً يتلقى الرئيس الهراوي استدعاء إلى دمشق. حكومة مافيا، بجزء كبير تثير الامتعاض. عدد كبير من اللبنانيين لا يحتملونها إلا بسبب تعبهم من 16 سنة من الحرب والفوضى.

ثامنًا: خاتمة

من كان يظن أن الذي سماه الطلبة السوريون في السبعينيات «البسطار» –الحذاء عند العسكر- سيبقى دومًا في السلطة في عام 1991 أي بعد عشرين سنة من فرض نفسه على رفاقه في الحزب؟.

بطريقة ما، بعد التقرب من بعض أولئك الذين عرفوه جيدًا، وبعد تحليل آرائه وردود فعله، ومحاولة معرفة محصلة سنوات من نظامه، يبقى الرجل لغزًا. مثله مثل كبار المتآمرين، حافظ الأسد رجل وحيد، لديه ميل عميق للعزلة، والوحدة لا تخيفه، لأن الصورة التي لديه عن نفسه، والفكرة التي يصنعها عن وظيفته عاليتان جدًا. بالنسبة لهذا الطيار القديم، «القيادة تعني الارتفاع» بحسب كلمات برتران دوجوفينيل. «من عل من برجه، يضيف جوفينيل، الرجل المكبر ينظر ما يمكنه أن يصنع (يختلق) مع المجموعات المكتظة التي يسيطر عليها. هل الأهداف التي يقترحها في مصلحة المجتمع؟ من الممكن. هل هي منسجمة مع رغباته؟ غالبًا. هل الممسك بالأمور مقتنع بسهولة بأنه لا يريد سوى خدمة المجموع؟ وينسى أن دافعه الحقيقي هو متعة الفعل».

في لحظة إجراء الحصيلة لعقدين في السلطة، يمكننا بالتأكيد أن نتوقف عند النصوص في قراءة تفسير معرفي لمقابلات الأسد مثلًا، أو «سورية تشرح للعالم»، كما فعل بفضول الجامعي اللبناني جوزيف مايلا[1]. «من بين جميع القادة العرب، الأسد هو بلا شك أفضل من يظهر هذه القدرة في شرح السياسة التي ينتهجها، في إبراز أهمية مساهمته الأساسية في استقرار المنطقة، والإظهار للفاعلين السياسيين، مهما كانوا، الفوائد العظيمة التي ستصيبهم إذا هم شرعوا في حوار مع سورية»، لم يتردد مايلا في كتابة ذلك. وهذا الأخير ألح بأنه لا يمكن فهم شيء من خطاب الأسد «إذا لم نضع في مركزه الاعتقاد الراسخ بالأمة العربية، حقيقتها، وإمكان وحدتها ومصيرها الخاص»[2]. من غير المفيد القول بأن هذا الرأي لا يوافق عليه

---

(1) Voir Cahiers d`Orient no 5

(2) Ibidem.

الجميع. بالنسبة للمعارضة السورية، شعارها يلخص النظام بدقة: «كل لنفسه والعروبة للجميع».

عند الإشارة إلى العلاقات السورية الفلسطينية أو السورية اللبنانية، يجد مايلا إسرافًا في الكتابات التي تبرر كل شيء ونقيضها. هكذا يعلن الرئيس السوري أنه ضد أي تدخل في شؤون القيادة الفلسطينية –مقابلة مع اللوموند، في 2 آب 1984– لكن، في الوقت نفسه، من الطبيعي له أن تدعم سورية «أولئك الذين يتمثلون الكفاح الفلسطيني بالمعنى الذي نعرفه» (المقابلة نفسها). الشيء ذاته بالنسبة للبنان حيث دخل السوريون بناء على طلب «الأخوة اللبنانيين»، لكن يفعلون به ما يشاؤون تلقائيًّا، لأنهم في بلدهم «منذ قرون». يمكننا مضاعفة الأمثلة لهذه البراغماتية المنفلتة، حيث يعتقد كل واحد بإيجاد ما يريد، إذ لا تفيد الأيديولوجيا إلا بإخفاء إرادة البقاء في السلطة مهما حصل.

المشروع السياسي للأسد، رأيناه في لحظة سيطرته على السلطة، غير متماسك على الإطلاق. يعمل الرجل مع بعض الأفكار البسيطة التي يكيفها بحسب الظروف. ويعرف أحيانًا إحاطة نفسه، خصوصًا في السياسة الخارجية، بأناس مميزين. أديب داوودي صحته متردية، ومتقاعد منذ سنوات، هو واحد منهم. «على هدى نصائح الداوودي يتمكن هذا الحمار من السير»، هذا ما قاله في السبعينيات المناهضون الأكثر تصميمًا للنظام. منذ ذلك الحين، ظهر جيل جديد تم تأهيله على الطريقة الغربية، حيث الممثلون الأكثر شهرة من بين مستشاري الرئيس هم المسيحيون الثلاثة: جورج جبور، إلياس جبران، وجبران كورية، ج ج ك كما يقول السوريون.

لكن الأسد يحذر من الشخصيات البارزة، فهو يفضل عليها الشخصيات الباهتة، من مثل إبراهيم فوزي، علوي من إسكندرون ومستشار الشؤون الدستورية. فوزي غير معروف من عامة الناس، ولم يظهر إلا مرة واحدة منذ عام 1970 عندما نشر كتابًا عن الحال المدنية في الجاهلية والاسلام[3]. كما تم تغيير الأشخاص بانتظام في الشؤون العسكرية وتجديدهم، كذلك الأمر في الميدان الاقتصادي أو في إدارة شؤون

[3] الجاهلية أو مرحلة «الجهل» أي المرحلة السابقة للإسلام.

الدولة، لا يأنف الرئيس من أن يحيط نفسه بأشخاص تربطه بهم علاقات قديمة. هذا صحيح فوزير الاقتصاد محمد العمادي، تقني جيد ويعطي الانطباع بأنه شريف، وهذا صحيح أيضًا بالنسبة لرئيس الوزراء عبد الرؤوف الكسم، أستاذ ممتاز في كلية الهندسة في دمشق، قبل أن يصبح رئيسًا للمجلس البلدي لمدينة دمشق، ثم كلف برئاسة الحكومة. خلال بعض المراحل حاول الكسم جاهدًا، كونه (تكنوقراطًا) جيدًا، وضع «الرجل المناسب في المكان المناسب»، لكن إرادته الطيبة ومهاراته الممتازة تحطمتا على جدار الزبائنية والفساد، ورأينا في أي ظروف تم استبعاده عن السلطة في نهاية عام 1987. هذا أكثر صحة أيضًا، بالنسبة لوزير الدفاع مصطفى طلاس ونائب الرئيس عبد الحليم خدام؛ مسلمان سنيان هما على الأرجح أقدم رفاق دربه لكن ليست لديهما أي قاعدة شعبية أو عسكرية، ولا يشكلان أي تهديد لسلطته.

عند تلخيص الوحشية الاستثنائية المروعة للنظام، ومستوى الفساد الذي تجاوز أحيانًا حدود الفهم، لم ترَ وسائل الإعلام الغربية، حيث شجعها موقف القادة الأميركيين أو الأوروبيين، -إلا في حالات نادرة جدًا- في الجنرال أسد إلا ما يناسبها: فهو يمثل الاستقرار في منطقة تغلي غالبًا، حيث كان شريكًا مقبولًا لأميركا القوية منذ عام 1970 –قبل قرارات مجلس الأمن 242 و 338- (وهذا لا يقبل بسهولة في سورية)، ثم وقّع اتفاق فصل القوات في عام 1974 مع إسرائيل برعاية كيسينجر، ودخل إلى لبنان عام 1976 بضوء أخضر من واشنطن، وعاد إلى بيروت عام 1987 ثم أزاح الجنرال ميشيل عون بمباركة أميركية دائمًا.

وبانضمامه إلى التحالف ضد العراق -بدءًا من آب 1990- يستحق حافظ الأسد الكثير من الغرب. ومن الصحيح أيضًا أنه في ثلاث نقاط على الأقل يبدو أن الأحداث أعطته الحق: موافقته في آب 1990 إرضاء الطلبات العراقية كلها، والعودة إلى اتفاق الجزائر في عام 1975 الذي انتهكه صدام حسين، هذه الموافقة مكّنت الأسد، بقليل من التكاليف، أن يحقق نجاحًا سياسيًا. لماذا يتمّ إشعال حرب طاحنة لثمانية أعوام والعودة إلى نقطة البداية؟ ثم، فيما يتعلق بلبنان، بعد كثير من الكوارث وكثير من الضحايا الأبرياء أيضًا، انتهى به الأمر إلى تركيع اللبنانيين جميعهم، وفرض

https://facebook.com/groups/abuab/

«السلم السوري». أخيرًا، باختياره، منذ بداية اجتياح الكويت، اتخاذ موقف ضد السياسة الانتحارية لصدام حسين بدعمه للغربيين، دعمًا خفيًا لكنه فعال. في الواقع، فهم الأسد على الفور بأنه إذا لم ينضم إلى التحالف، سيفقد إلى الأبد ثقة الولايات المتحدة والأوروبيين. وهو يعلم جيدًا بأنه لو بقي محايدًا، فالسوريون لن يصفقوا له كذلك، لذا حسم خياراته على وجه السرعة.

على الرغم من ذلك، في الحالات الثلاث، يمكن أن يتعلق الأمر بانتصارات خلبية. تحالفه مع طهران يبقى ضد الطبيعة حيث أظهرت افتتاحية «طهران تايمز» يومية تصدر باللغة الإنكليزية وهي مقربة من الحكومة الإيرانية، أظهرت في 7 مارس 1991 محدودية محور طهران–دمشق. «كيف لسورية التي لم تكن قادرة على استعادة هضبة الجولان من ثلاثة ملايين من المحتلين الإسرائيليين، يمكنها أن تفكر بضمان الأمن لجميع بلدان منطقة الخليج الفارسي؟» كتبت الصحيفة غداة اجتماع دمشق لوزراء الخارجية السوري والمصري ومجلس التعاون الخليجي المخصص للأمن في هذه المنطقة. بعد أن أكدت أنه لا سورية ولا مصر تمكنتا من لعب دور حقيقي «لإرغام العراق على الخروج من الكويت»، وخلصت الصحيفة كذلك: «هذه القمة في دمشق تذكر باجتماعات عربية كثيرة بقيت بلا غد».

في لبنان، ارتفعت الكراهية التي يكنها الشعب للأسد، بعد إزاحة ميشيل عون الذي يتمتع بشعبية عارمة، ويمكن للأسد أن يكوّن الانطباع بأنه وصل إلى القضاء على آخر مقاومة. لكن الرئيس السوري رجل شديد الحذر واليقظة حتى لا يعرف بأنه في مثل تلك الأوضاع لا شيء يمكن كسبه. من الممكن استثناء بعض الموارنة في شمال لبنان، وبعض الشيعة المقربين من رئيس حركة أمل؛ بمثل نبيه بري الذي لا يكن له اللبنانيون أي مودة وكثيرون يكرهونه ويمقتونه بكل بساطة. لا يوجد سيناريو يمكن تخيله لسوء الحظ في لبنان، ويمكننا أن نتساءل حول ماذا سيحدث فيما لو قام واحد أو آخر من الأعداء الكثيرين للنظام السوري مثلًا بقتل الرئيس الحالي إلياس الهراوي أو الشروع بحملة من الإرهاب الأعمى.

بالتأكيد ليس من قبيل الصدفة «تحطيم» ميشيل عون في وقت تتركز أنظار العالم نحو بغداد والكويت. السلام المسلح الذي التزم به غالبية اللبنانيين، ليس عن قناعة، بل نتيجة الإعياء والضجر، فالهدوء الذي يخيم في لبنان منذ انفجار أزمة الخليج هو هدوء ثمين، لكن سيكون مفاجئًا أن تتمكن البلاد من الانطلاق استنادًا إلى قواعد صحية بما أنه لا يوجد حل شامل لأزمة الشرق الأوسط، لا يتضمن فقط المسألة الفلسطينية فحسب، لكن تلك الخاصة بالعلاقات السورية اللبنانية أيضًا. الرئيس السوري، بالطبع، لن يعطي الأوامر إلى قواته بالانسحاب من لبنان طالما تحتل إسرائيل قطاعًا حدوديًا جنوب البلاد.

أخيرًا، لا يأخذ الخيار الذي فعله الأسد بالانضمام للتحالف الغربي في حرب الخليج معناه الحقيقي إلا إذا كانت ثمة تسوية شاملة تلوح في الأفق. فإذا بقيت الولايات المتحدة الأميركية في الأشهر القادمة أو في السنوات القادمة غير قادرة على إحراز تقدم في عملية السلام، وزحزحة حلفائها الإسرائيليين، سيترتب على ذلك تقدم المتشددين أو اليائسين في العالم العربي لتصدر الموقف. حتى لو أن حافظ الأسد الذي أظهر في مناسبات عدة قدرته على تغيير الاتجاه والتعايش مع الأوضاع المتناقضة، سيواجه صعوبات كبيرة لتبرير ثقته التي وضعها في واشنطن.

إذا نظرنا عن كثب بعد أكثر من عشرين سنة من وصوله إلى السلطة، إلى التغيرات التي حصلت، سنجدها تغيرات مهمة جدًا. فمهما كانت قدراته، تمكن أحيانًا من أن يكون العبقري في إدارة الوقت أو الأوضاع المعقدة، وهو رجل في عمر الستينيات في عام 1991 لم يبق لديه كثير من الضابط البعثي قبل 30 سنة. في هذه المرحلة، وفي السنوات الأولى من رئاسته، لدى الرجل طموحات إقليمية، لكن منذ وقت طويل، لا يزعم أنه يلعب دورًا في المستوى الأيديولوجي. علمًا بأن الخطاب تطور بطريقة جوهرية: سورية لم تعد «قلب العروبة النابض» وفي كلماته الحديثة، يتجه الأسد إلى مواطنيه قائلًا «أيها السوريون» وليس «أيها الشعب العربي». في الخطاب في 8 آذار 1991، بمناسبة العيد 28 للانقلاب الذي قاد البعث إلى السلطة، تحدث عبد الحليم خدام باسم الرئيس، فلم يستخدم ولو مرة واحدة كلمة «إمبريالية».

في الواقع، القطيعة حدثت عام 1976 بعد دخول القوات السورية إلى لبنان. لم يفهم السوريون –الكلمة ضعيفة– أن جيشهم يمكنه الذهاب لإنقاذ اليمين المسيحي ومقاتلة المقاومة الفلسطينية. القمع ضد الإخوان المسلمين ومذبحة حماة في 1982 انتهت إلى نزع ما لديه من شعبية، حتى لا نقول شرعية لنظام الأسد. حتى هذه المرحلة، كان يمكن التصفيق له من دون أن تكون الأكف بالضرورة منظمة من قبل أجهزة الاستخبارات. سابقًا بعد سيطرته على السلطة، لم يعرف استثمار حال التسامح التي أفاد منها، بعدم استجابته لما يريده الشعب. حذره المرضي الذي تعزز من خلال ملاحظة عدد من الانقلابات دفعه منذ مدة طويلة إلى تبني المثل العربي القائل «يجب كسر البيض قبل خروج الصغير»، لأننا لا نعرف أبدا كيف سيكون. وكذلك، حال الطوارئ كانت قائمة عندما أخذ السلطة، وما زالت معمولًا بها في عام 1991 على الرغم من أنه في كل سنة يطلب منه عدد من الشخصيات رفعها.

لكن الأسد أيضًا فهم أنه كان قد وصل إلى السلطة وبقي فيها دائمًا، ولم يكن ذلك بسبب شعبيته ولكن بفضل الجيش. هذا الأخير كان باستمرار مدللًا من النظام الذي لا يمكنه أن يسمح لنفسه بحمل مشروع مدني، لأنه يخشى أن يفقد الامتيازات العسكرية. وهذا أيضًا أحد أسباب عند الأسد لتثبيت نوع من الاقتصاد المشترك على حساب القطاع الخاص. على الرغم من أن السوريين كانوا تقليديًا تجارًا ممتازين وأن البلاد بلا أدنى شك أفادت من مهاراتهم، رفض الأسد دائمًا أنه يتوجب الأخذ بالحسبان السماح بتأسيس قدرات اقتصادية مستقلة وقوية. رجال الأعمال الذين نجحوا في سورية عملوا تقريبًا منذ عشرين سنة مع شريك عسكري، ورأينا النتائج في مستوى الفساد.

وهكذا إذن، في حين إنه قبل عام 1970 كانت توجد قيادة سياسية جماعية، اشتراكية الدولة، وأن حزب البعث له دور الطليعة، مع وصول الأسد، أصبح النظام رئاسيًا (دكتاتورية رجل حلت محل دكتاتورية الحزب)، الاقتصاد المشترك يحل محل الاشتراكية الجماعية والجيش يلعب دورًا طاغيًا، وتحديدًا عسكر الحزب. أما المدنيون فقد استبعدوا نهائيًا. على الرغم من أنه بالنسبة لسابقيه ينقسم العالم العربي إلى «تقدميين» وإلى «رجعيين»، اختار الأسد «التضامن» كلمة مريحة لا تزعج

أحدًا ويمكن تكييفها في الحالات جميعها. يجب على الرغم من ذلك، الموافقة على أن الأسد بإطاحته بصلاح جديد، فتح -في الوقت نفسه- مرحلة من الاستقرار الكامل في بلاده، وبعض النوافذ على العالم الخارجي. انتهت العزلة الطويلة وأقل مبادرات الرئيس الجديد هي الانضمام إلى اتحاد الجمهوريات العربية الذي يشمل مصر والسودان وليبيا.

الكثير من المحللين الغربيين يستمرون في التأثر والانبهار بشخصية الرئيس، لأنهم لم يعيشوا من الداخل القسوة التي لا تطاق للنظام السوري. ينسون مرة جديدة أيضًا، بقصد أم لا، أنّ الحكم يكون أكثر سهولة، عندما يسمح الحاكم لنفسه بإغراق أي طيف للمعارضة بالدم، أو القيام بتفجيرات أو باغتيالات أو بعمليات إرهابية كبرى، ضد خصومه الغربيين أو غيرهم. لكن مع امتلاكه وسائل الردع الممكنة جميعها، حاول الأسد محاولات عدة لتخفيف حدة الفساد المعمم لتهدئة الشعب السوري الذي بدأ الحراك. هذه «النوايا الحسنة» اصطدمت دومًا بشراسة نظام الفساد وعناده، نظام تأسس بمهارة وتجذر من قبل المحيطين به من دون أن يجد ما يقول. بالنسبة لعشرات الأشخاص الذين يمسكون جزءًا من السلطة، وضعهم في حال من التنافس بحيث يتمكنون من تحييد بعضهم بعضًا، الواحد تلو الآخر، مما يمكن رئيسهم من متابعة طريقه بأمان نسبي.

يبين الحوار التالي -الحقيقي- بصورة جيدة حدود مكافحة الفساد التي بدأتها السلطات. بعد بضع سنوات من السجن لأسباب سياسية تم تحريره، فهو محام يحكي محادثة سوريالية جرت مع أحد رفاقه داخل الزنزانة الموقوف بسبب تهريب العملات:

- لماذا أنت هنا؟
- سياسة. وأنت؟
- دولار. مسكين أنت. خلال 6 أشهر سأكون في الخارج. لست مثلك.

بعد أسابيع تم تحرير المهرب والمضارب المالي.

غالبًا ما يتمكن أقطاب النظام من الإفلات من العقاب والمساءلة. مما سبق، يمكن أن نستخلص النتائج أن مراكز السلطة أصبحت متعددة منذ سنوات في سورية، كما لو كان داخل الدولة البوليسية نمت وتطورت أعداد لا نهاية لها من الدول البوليسية الصغيرة حيث يتمتع المسؤولون باستقلالية كبيرة. هذه الحال يمكن بالتأكيد التسامح معها بما أن السلطة العليا لرئيس الدولة ليست موضع شك. لكن اليقظة التامة لهذا الأخير تمارس حقًا وبوجه خاص على العسكريين، القادرين وحدهم أن يشكلوا خطرًا على الرئيس. لكن يجب التخفيف من دقة هذا التقدير في ضوء أن الأسد، كما سبق ورأينا، لم تعد لديه القدرة على إعادة النظر بالامتيازات الصارخة لكبار الضباط والمسؤولين من النخبة السورية الحاكمة.

من البعث، لم يبق لدى النظام سوى الاسم. منذ زمن طويل لا يدخل أحد إلى الحزب عن قناعة بل لأن ورقة عضو الحزب تفتح أمامه الأبواب جميعها. بعد أن قسم الفلاحين والعمال إلى شرائح منتظمة ومعبّأة جيدًا، منذ عام 1978 بدأ النظام بالهجوم على المثقفين والجامعيين والمهن الحرة. في شباط 1978 تم تأسيس الحرس الجامعي بصورة رسمية، حيث الهدف المعلن هو ضبط الأمن داخل الجامعات. للمرة الأولى في تاريخ البلاد، انتهكت حرمة الجامعات حيث يوجد الجيش رسميًّا في كل مكان في داخل الجامعات. كما تقوم إدارة التدريب الجامعي بالعمليات تحت سلطة رئيس الجامعة ومسؤوليته. في الواقع، لم تجد السلطة أفضل من إدخال عملائها بلباس خاص –لكن يوجد أيضًا عملاء بلباس مدني عادي- لكي يتم عزل الطلبة وترهيبهم. يبدو أن هذا المنهج نجح، حيث إن الكليات منذ ذلك الوقت بقيت هادئة.

في بداية الثمانينيات، حُلّت نقابات الأطباء والمحامين والمهندسين واستبدلت بنقابات خاضعة خضوعًا تامًا للنظام وبعد تنفيذها لإضراب. وبذلك يكون تأطير المجتمع السوري قد وصل إلى نهايته، لأنه في الوقت نفسه، تم إخضاع المساجد، آخر فضاء للحرية، بعد تسمية الشيوخ المخلصين للنظام. في هذا الوقت عشرات الآلاف من الأشخاص قتلوا في حلب، وفي حماة وفي تدمر أو في أمكنة أخرى. وصل عدد المعتقلين السياسيين إلى الآلاف. «في منطقتي الأصلية، في حوران، لا

توجد قرية، مسلمة أو مسيحية، إلا لديها واحد أو اثنان أو خمسة أو عشرة معتقلين سياسيين»، يؤكد أستاذ مسيحي في جامعة دمشق الذي يدين البناء الحديث لسجن كبير جدًا على مخرج دمشق على طريق حلب. ما هو صحيح في حوران هو صحيح أيضًا في جبل الدروز، وفي جبال العلويين وفي الغاب ومنطقة الفرات وبكل تأكيد في المدن الكبيرة جميعها.

على النقيض، الحرية الوحيدة التي بقيت للفرد هي أن يسرق هذه الدولة الفاسدة، ليشكل ثروة شخصية. يذكر مع ذلك أنه في حزيران 1991، بلغت خشية النظام وفقده الثقة مبلغًا صار فيه وجود الفاكس أو آلات تصوير الأوراق نادر جدًا[4] في سورية. قام ممثلون عن البورجوازية التجارية بالشكوى في ربيع 1991 للرئيس، قائلين له إنه لم يعد بإمكانهم منافسة اللبنانيين أو الأردنيين بسبب عدم توفر خدمة الفاكس. في الواقع، يبدو أنه لا يوجد سوى النخبة السورية الحاكمة التي استفادت حقًا من المليارات التي قدمت لسورية بعد أزمة الخليج. لكن هؤلاء الطفيليين يدمرون الدولة، وهذه الأخيرة، إذا أرادت تجنب الانهيار الشامل، يجب أن تخضع لتحرير الاقتصاد.

مقابل قدرة الآلة العسكرية ووسائلها القمعية الهائلة، الحديث عن إنجازات النظام لا معنى له. أي مصداقية لنظام لا يتحمل أي اعتراض أو انتقاد ويضع في زنازينه، كما ذكر تقرير لمنظمة العفو الدولية (أمنستي)[5]، «آلاف المعتقلين السياسيين مسجونين دون محاكمة ودون أن توجه ضدهم أي اتهامات».

لأنه مهما كان التقدم الذي تحقق في مستوى البنية التحتية -الطرق والكهرباء- أو في التعليم أو بكل بساطة في مستوى الحياة. هذه المكتسبات التي لا يمكن التشكيك بها كلها هي في نهاية المطاف عادية جدًا تمحى أمام الحال المرعبة لحقوق الإنسان. «الحكومة لها ذراع طويلة وأخرى قصيرة؛ الطويلة تقوم بالأخذ والوصول إلى كل مكان، الذراع القصيرة تقوم بالعطاء لكنها تصل فقط إلى الذين

---

[4] أذكر في تلك المدة عندما أردت تصوير ورقة بحث علمي يتعلق بسلوك الطفل، في المكتبة لاحظ صاحب آلة التصوير وجود بضع صفحات بلغة أجنبية (مراجع البحث) فشعر بالخوف الشديد والرعب ورفض التصوير قائلًا: الله يسترك لا تخرب بيتي (المترجم).

[5] التقارير السنوية لمنظمة العفو الدولية منذ خمس عشرة سنة. خصوصًا تقرير عام 1986، ص 356

يكونون هنا مقربين جدًا»، هكذا كتب إغناسيو سيلون[6]. يمكن بصعوبة تقديم تلخيص أفضل لإدارة حافظ الأسد منذ خمس عشرة سنة؛ فريق محدود نسبيًا من الأصحاب والمدللين يمارس ديكتاتورية حقيقية على البلاد ويستفيد فوائد عظيمة. في زمن البقر السمين، يستفيد الشعب من فتات الحلويات، لكن عندما تستفحل الأزمة وتنقص المواد الأساسية، ليس أمامه سوى أن يصمت تحت تهديد مواجهة آلة القمع[7].

إذا كان من سر عند حافظ الأسد، يكمن حقًا هنا: كيف هذا الرجل الذكي، المهتم حتى الحد الأقصى بصورته، وليس لديه أي خصائص اضطراب الشخصية أو العقلية (السيكوبات) التي يمكن مصادفتها لدى الكثير من الطغاة أو الديكتاتوريين، كيف وصل إلى التوافق مع هذه الأوضاع؟ بالتأكيد الحرب مسألة جدية لدرجة يستحيل جعلها من شأن العسكر وحدهم وانتصار الجيش على الحزب الذي كان الحدث المؤثر في وصول حافظ الأسد إلى السلطة يترك المجال للتنبؤ بمستقبل سيء. بالتأكيد تأهيله كضابط وأصوله –الريفية الأقلية– لا تهيئه أبدًا ليُنظِّم من حوله إجماعًا وطنيًّا في بلد كل فرد فيها كان يحذر من الدولة المركزية.

لكن هذه العوامل كلها غير كافية وحدها لتفسير انحراف الدولة البعثية. في بلاد مثل سورية حيث مفهومات المال العام أو خدمات الدولة كانت تقريبًا غير معروفة منذ أربعين سنة، رجال السلطة، أكثر من أي مكان آخر، يجب أن تقودهم عقيدة راسخة وإلا سيفقدون بسرعة ثقة شعوبهم. في البلدان الغربية يمكنهم السماح بوصول قائد سياسي متوسط أو أقل من عادي، فهي ليس لديها أقل من جيش من الموظفين الكبار والصغار الذين يضمنون استمرار الدولة والخدمة العامة.

يبدو أن هذا البعد أفلت من يد حافظ الأسد الذي أسهم هنا في التردي الكبير للأوضاع. في الوقت الذي كان كل فعل سابقيه، خاصة من البعثيين، على الرغم من معتقداتهم، ومن قسوتهم ومن تخبطهم؛ تركز فعلهم للحد من نظام القبيلة

---

(6) Ignazio Silone, Pain et vin, Calmann-Levy, 1937.

(7) في مطلع التسعينيات، عندما سمح باستخدام الفاكس في المكاتب السياحية كان يجب على المكتب أن يحتفظ بصورة عن الفاكسات الصادرة والواردة لحساب أجهزة المخابرات جميعها (المترجم).

والتبعية، لكي يتحول كل فرد إلى مواطن حديث، لم يجد الأسد، لكي يثبت سلطته جيدًا، وليس خضوعًا لطائفته الأصلية، لم يجد أفضل من أن يُحيي ماضيًا غالبية السوريين لا تريده، لأنهم عانوه أشد المعاناة. منذ ثلاثين سنة كانت الغالبية العظمى من السوريين تطالب باعتزاز بعروبتها؛ اليوم، كل واحد يتمترس خلف طائفته الأصلية ولا يتحدث الناس سوى عن المسيحيين والدروز والشيعة والسنة والعلويين واليهود. إسرائيل، التي لها بكل وضوح مصلحة برؤية انبثاق دويلات طائفية في المنطقة، هي بالتأكيد تصب الزيت على النار، لكن مصادرة الدولة السورية لمصلحة الطائفة العلوية الأقلية وإضعاف الدولة اللبنانية وإذلالها أوصل النظام السوري إلى النتيجة المحزنة نفسها.

ما يبعث على القلق وهو الأكثر سوءًا؛ أن الجنرال أسد غير مدرك لهذه الحال الكارثية التي تحيط اليوم بالمجتمع المدني السوري. يكفي التذكير بعصبيته وحدّته عندما برر بأسباب الدولة مجازر آلاف الأشخاص في حماة في 1982. عندما تعرضت سلطته للتهديد، كل شيء مسموح. على الرغم من ذلك، ليس لدى الرجل نزوع نحو العنف المجاني. على العكس، هذا المدير الناجح للوقت، كل شيء يوزن بدقة، يوازن ويحسب ولا يترك إلا مكانًا محدودًا للمصادفة أو لما هو غير متوقع.

ما بعد الأسد

لكن إذا فكر حافظ الأسد بكل شيء، وما زال يفكر، فإنه يبدو على الرغم من ذلك، أنه لم يحل المشكلة الأكثر حساسية، أي تلك المتعلقة بخلفه. بالتأكيد، كما يذكر ليس من دون مزاح ألاسدير دريسدال، «إذا كان لا يوجد شخص لديه القدرة على تهديده، يكون من المنطقي أنه لا يوجد شخص لديه القدرة لكي يخلفه»[8]. علمًا بأنه طرح عليه السؤال بعد أشهر من مرضه. لا يجيب الأسد بشكل مباشر على الصحفي الذي سأله فيما إذا كان معنيًا بذلك الذي سيخلفه: «لا لم أشعر أبدًا بأني معني لسبب بسيط لأن الدستور السوري يجيب على هذا السؤال. الأعضاء الواحد والعشرون من قادة الحزب الذين انتخبوا من قبل جميع أعضاء الحزب ومجلس الشعب الذي لديه السلطة العليا الشرعية في البلاد إذ إن الأعضاء منتخبون بشكل مباشر سيرشحون الشخص الذي يختارونه وسيتبع ذلك استفتاء. إذا حصل مرشحهم على الأغلبية سيكسب الجولة، وإذا لم ينجح سيتجهون نحو شخص آخر»[9].

لكن الأسد، الذي لا يرى ثانية واحدة أنه يمكنه ترك مكانه لشخص آخر وهو على قيد الحياة، يحتمل أنه يسخر من الطريقة التي سيتم انتخاب سلفه من خلالها. لن يبقى بالتأكيد غير مكترث لمعرفة من هو هذا المنتخب السعيد. كأي رجل دولة، سيأمل بأن إنجازه -إذا وجد إنجاز- يستوجب المتابعة وهو مقتنع بأن أحد المقربين أو المخلصين سيتمكن من القيام بهذه المهمة بشكل مناسب.

خلال وقت طويل، كان أخوه رفعت وليًا للعهد، لكن سلوكه في أثناء مرض الرئيس، ربما أفقده إلى الأبد أي أمل بخلافة أخيه الأكبر، لأن المؤسسة العسكرية كانت معارضة تمامًا لذلك. أبعد عن الشأن العام منذ 1984، يستعمل رفعت كمطرقة لحافظ، حيث الشخص (حافظ) في الحالات جميعها مقبول بشكل أقل سوءًا من ذاك الذي كان بلا شك البطل لأنواع الابتزاز كلها في سورية. على الرغم من أن الرئيس، كما هي عادته، لم يكن ليترك إلى عالم الأسرار المصير الذي

---

[8] Alasdair Drysdale, The Assad regime and its troubles, MERIP report, nov. /dec. 1982.

[9] Foreing Broadcast Middle East and Africa, BBC, mars 1984.

سيحدده لأخيه، الذي يوزع أمامه بين جنيف وماربيلا، يمكن أن نذكر أنه في أثناء المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث، في كانون الثاني 1985، ثلاثة من أنصار رفعت، أحمد دياب، وناصر الناصر، وإلياس اللاطي لم تتم إعادة انتخابهم في القيادة القطرية التي تشارك في تحديد المرشح لرئاسة الدولة من الناحية الدستورية. في نهاية صيف 1987، عرض رفعت الكئيب في منفاه الذهبي في أوروبا الغربية على علي حيدر رئيس «القوات الخاصة» وأحد الرجال الأكثر قوة في سورية، مبلغ مليارى فرنك ليعمل على تسهيل عودته إلى سورية. رفض حيدر بأسلوب جاف، وأفضى إلى أحد أصدقائه اللبنانيين الذي دهش بأنه «بعد كثير من الصفقات الصغيرة، يرفض حيدر الآن أروع صفقة في حياته»، أجاب حيدر: «بعد عودته (رفعت) على الفور، سيسرق مني كامل المبلغ ويلقي القبض على أتباعي كلهم». هذه القصة سواء كانت صحيحة أم لا، ليست أقل إفصاحًا عن الفكرة التي لدى الأوساط المطلعة على طبيعة الطبقة الحاكمة في سورية.

أخ آخر لحافظ، وهو جميل، يذكر أحيانًا بين الطامحين إلى العرش. لكن العارفين جيدًا بالنظام يستبعدون تمامًا هذه الفرضية بسب عدم توفر الخصائص الشخصية المناسبة. وفي السنوات الأخيرة، تركزت نشاطاته الأساسية على مراقبة الترانزيت في ميناء اللاذقية، وأخذ الأتاوات (الكومسيون)، لدرجة أن كثيرًا من أصحاب المهنة لم يعد أمامهم سوى تركها. جميل يبدو أن عينيه أكبر من بطنه، وربما استوحى من سلوك أخيه الأكبر، إسماعيل، المعروف باسم أبو توفيق من دون أن يكون الفلاح المتواضع الذي اختار الطريق الذي «يشعر أنه الأكثر جاذبية: وهو الأرض» الذي أعجب بوصفه لوسيان بيترلان[10] ، أبو توفيق لم ينغمس في وقاحة أخوته الشبان. اكتفى بقبض ثمرة متواضعة لتدخلاته غير المحدودة مع الإدارة السورية: الذي لا يريد الالتحاق بالخدمة العسكرية، الذي يريد الدخول إلى الجامعة، الذي يريد منحة دراسية إلخ.

في الواقع، الحال الأكثر أهمية في كل هذه العائلة حيث يقل الحديث عنه هو باسل، ولد في عام 1962 وهو الأكبر من خمسة أطفال للرئيس. إضافة إلى ميداليته

---

(10) Lucien Bitterlin, op.cit., p. 16.

الذهبية في الفروسية في ألعاب المتوسط في اللاذقية في أيلول 1987، باسل مهندس مدني، ونقيب في الجيش. يبدو أن والده أراد تربيته بطريقة مماثلة لتلك التربية التي يتلقاها أطفال الأسر الملكية: مستوى دراسي جيد، يجيد لغات أجنبية، وهو رياضي ممتاز، باسل مهيأ تمامًا لمواجهة الحياة. منذ 1985 يرى أكثر فأكثر في القصر الجمهوري حيث يحاط بالمستشارين المدنيين والعسكريين: أعضاء في البعث أو متخصصين في الأسلحة الثلاثة.

في عروض عسكرية عدة، صدم شهود كثيرون لرؤية المكان الذي يحتله النقيب باسل الذي يشبه بقوة مكان ولي العهد. على الرغم من أن عدنان مخلوف، قريب زوجة الرئيس، هو نظريًا رئيس الحرس الجمهوري، إلا أن رئيسه الحقيقي هو باسل الذي تربطه روابط وثيقة بغالبية ضباط الحرس. هذا الحرس الذي يشمل آلاف الرجال، حيث جاء كثيرون من سرايا الدفاع القديمة لرفعت، ازداد عدده أيضًا في أيلول 1990. باسل ينوب عن والده في مجالات عدة خاصة كل ما يتصل بالإدارة المحلية. يحول له والده البريد وهو منذ الآن الذي يجيب عليه، وهكذا أوجد شبكة من الأنصار في أنحاء البلاد جميعها. يمثل باسل كثيرًا من الميزات. أولًا لم يدخل إلى الحياة السياسية بمعنى المواجهة، إذن ليس لديه أعداء حقيقيون. ثانيًا، لم يشارك في عملية ابتزاز ولم يتلوث بعد في واحدة أو أكثر من القصص المالية التي شوهت إلى الأبد صورة جزء كبير من عائلة الأسد. من بين كل أفراد «العائلة»، بالمعنى القبلي للكلمة، يكون هو إذًا، مع إخوته الثلاثة الأصغر، من بعيد الأكثر ملاءمة، ويمكنه أن يكون الحل البديل.

إلا أن هذا النوع من السيناريو سيضحك كثيرًا من مناهضي النظام. بالنسبة إليهم، بلا أدنى شك، أن «المؤسسة» أي الأربعين عسكري من الرتب العليا يقودهم بعض الكبار خصوصًا عصابة «العليات»[11]، ليس لديها النية أن ترى «نظامًا ملكيًا» ينمو تحت بصرها، وستمحو خلال بضع ساعات هذا الطيش لتضع مكان حافظ الأسد رجلًا مضمونًا لا يضع موضع الشك مكتسبات المؤسسة.

---

[11] دوبا (علي)، أصلان (علي)، حيدر (علي) وهم بالترتيب رئيس الأمن العسكري، معاون رئيس الأركان، قائد الفرقة المدرعة الثالثة.

في الواقع، كل ذلك يتوقف على توازنات القوى التي سيعرف باسل إقامتها بمساعدة والده منذ الآن وحتى ذلك الوقت. إذا كان لديه الذكاء التكتيكي كوالده، ومهاراته، إذا كان لديه من بين ما لديه الشجاعة لأخذ المخاطر في مواجهة حلفاء والده القدامى، كل الآمال مسموح بها له.

مع ذلك، لا باسل الأسد ولا الرجال الأقوياء في النظام الحالي يمكن أن يمثلوا حلًا مرضيًا بالنسبة للشعب السوري الذي يتذكر باهتمام هذه الحكاية القديمة: منذ وقت طويل كان هناك ملك، إنه طاغية حقًا، عمل على أن يخيم الرعب على أراضيه. كان يقطع رؤوس أتباعه لأتفه الأخطاء. استقبل موته، كما نتخيل، بفرح عميق. جاء ابنه الذي وجد أن والده أظهر كثيرًا من الضعف في أثناء حكمه. لم يضاعف فقط عمليات القتل، لكنه أراد أن يعطي كل واحد من بينها خصائص نموذجية. لذا كان يأمر بعد قطع الرؤوس أن تزرع على خازوق وتعرض في مراكز المدن. الناس المرعوبون يتوسلون القوي العزيز قائلين: «رحم الله والده».

لا أحد يمكنه القول اليوم ماذا سيحل بالنظام السوري إذا توجب اختفاء الرئيس. أعيد انتخابه في 1985 لسبع سنوات، المسألة ليست ملحة الآن. لكن يجب التأكيد أن رئيس الدولة السوري سحق كل شكل لإمكان المعارضة لدى الناس من أقرانه أو أكبر سنًا منه. هؤلاء الباقون يشكلون أحد أجمل المستنقعات في الشرق الأوسط حيث مع ذلك التنافس بلا رحمة. إذا تمكن واحد منهم أو حتى ابنه ابن المدرسة القاسية من فرض نفسه، حينئذ، من الممكن أن يندم السوريون على حافظ الأسد حقًا.

ملحق

اللجنة العسكرية

لعبت اللجنة العسكرية دورًا أساسيًا في الحياة السياسية السورية المعاصرة. تمت دراسة أصولها، وخاصة دورها الجوهري في الستينيات من القرن الماضي، من قبل الباحث الاسرائيلي إيتامار روبينوفيتش الذي عمل على نصوص لحزب البعث، خصوصًا، على نصوص لعدد من البعثيين السوريين أو الأردنيين مثل منيف الرزاز.

على الرغم من عدم توفر معلومات دقيقة وموثقة حول أصول المجموعة وأهدافها الأصلية، إلا أنه من المعروف بأنها تشكلت في مصر عام 1960 بشكل سري. تكونت من ثلاثة عشر ضابطًا سوريًا، نصفهم من العلويين، غير راضين عما آلت إليه الوحدة بين مصر وسورية، ولم يستفيقوا بعد من صدمة حل الحزب لنفسه إبان الوحدة. يعد تشكيل هذه اللجنة محاولة لإعادة بناء «التنظيم العسكري» لحزب البعث الذي وجد في الخمسينيات. هؤلاء المؤسسون لا يخفون معارضتهم للقادة السابقين للحزب وللضباط المقربين منهم. الرجال الثلاثة الذين لعبوا دورًا بارزًا في تأسيس اللجنة العسكرية هم صلاح جديد ومحمد عمران وحافظ الأسد البالغ من العمر وقتها 30 سنة. طوال الوحدة مع مصر كان دور اللجنة العسكرية غير موجود، لا أحد كان باستطاعته الاعتقاد أنها ستلعب دورًا أساسيًا بعد الانفصال. منذ الانفصال، وبطريقة سرية، لعب أعضاء اللجنة العسكرية ورقة معاداة الناصرية بهدف العودة إلى الجيش بعد فصل معظمهم. ففي 13 آذار عام 1963، عند انتخاب القيادة القطرية، تم الاعتراف باللجنة العسكرية، وأعطيت هذه اللجنة سلطة السيطرة المطلقة والمستقلة على القطاع العسكري للحزب، وكان لها تمثيل قوي في القيادة القطرية.

استنادًا إلى وثيقة داخلية لتلك المرحلة، كلفت اللجنة العسكرية بمهمة «إقامة تنظيم سري للعسكريين المؤمنين بمبادئ الحزب».

في الواقع، في هذه المرحلة يتحدد قدر سورية التي وقعت تدريجيًا تحت ضربات العسكر. بعد ذلك، سيطر العسكريون على أجهزة الدولة، على الرغم من أن صلاح جديد خلع الملابس العسكرية في عام 1966، بعد الانقلاب. وكل ما سيتبع هو سلسلة تصفية حسابات بين مراكز القوى العسكرية المتنافسة، سواء داخل الجيش أو في قيادات الحزب. في هذه اللعبة، برز حافظ الأسد بسرعة وفي خلال أربع سنوات فرض نفسه على الجيش وعلى البلاد.

التعذيب في سورية

في وقتنا الحاضر أصبح الاعتداء على حقوق الإنسان مسألة شائعة ويومية. ومن أجل مكافحة التعسف والتجاوزات من قبل كثير من الدول، تخوض منظمة العفو الدولية معركة مستمرة للدفاع عن حقوق الإنسان. وتنشر كل سنة تقريرًا يكون ثمرة بحث معمق ومعلومات دقيقة موثقة. وتندر البلدان التي لا يتناولها النقد. إلا أنه عندما تكون أوضاع «سجناء الرأي» غير مقبولة، وتأخذ بعدًا لا يطاق ولا يمكن التسامح معه، تقوم المنظمة بنشر ملفات خاصة. من هذه الملفات: الاتحاد السوفياتي، رومانيا، كمبوديا، إيران حتى الولايات المتحدة «إذ تشكل عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة الأميركية مسألة مروعة» كان لها نصيب من هذه الملفات. في شهر تشرين الأول 1987 نشرت منظمة العفو الدولية تقريرًا مؤلفًا من 55 صفحة عن «سورية وتناول طرائق التعذيب الذي تمارسه الأجهزة الأمنية» وهو في قمة الرعب، حيث التحق النظام السوري بمركز مميز في بطولة التعذيب.

بين النصوص الرسمية والواقع المحزن، سنرى في الصفحات الآتية إلى أي مدى يكون الطلاق عميقًا والمسافة شاسعة.

النصوص

«عدم إخضاع أي شخص للتعذيب الجسدي أو النفسي أو إلى معاملة مهينة. فالتشريع يحدد عقوبات تطبق في مثل تلك الحالات». (المادة 28 من القانون السوري لعام 1973).

«أي شخص، لكي يحصل على اعترافات أو على معلومات متعلقة بجريمة، يخضع شخصًا آخر إلى أي شكل من أشكال العنف التي يمنعها القانون، يعاقب بالسجن من 6 أشهر إلى 3 سنوات. وإذا أدى الفعل المرتبط بالعنف إلى جرح أو إلى مرض يعاقب بالسجن سنة على الأقل» (المادة 391 من قانون العقوبات المحددة بالمرسوم 148 الصادر في 22 حزيران لعام 1949).

في 21 نيسان 1969 انضمت سورية الى المعاهدة الدولية المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية.

الوقائع

قامت منظمة العفو الدولية برسم خارطة لأساليب التعذيب وإساءة المعاملة المطبقة في سورية. بلغ عددها 38 طريقة من طرق التعذيب.

هذه الطرق الـ 38 التي ضمتها اللائحة والمطبقة في التعذيب وفي إساءة المعاملة أمكن تحديدها من خلال شهادات معتقلين سابقين وصلت إلى منظمة العفو الدولية منذ بضع سنوات، ليست هذه الطرق في التعذيب منتشرة كلها انتشارًا واسعًا في سورية. بعض منها غير مطبق إلا في بعض السجون أو في مراكز الاعتقال أو التحقيق.

1. الضرب واللكمات بواسطة اليد أو الرجل على أنحاء الجسم كلها، يتعرض المعتقلون للصفع، أو الضرب بحزام جلدي أو بعصا أو سوط أو مطرقة أو بكبل معدني مزود بنهايات مدببة.
2. الدولاب: يوضع الضحية بدولاب معلق بوضع يشبه الشنق ثم يضرب بالعصي أو الهراوة وبالسوط أو بالكبل.

3. الفلقة: ضربات قوية موجهة إلى أسفل القدمين.

4. بساط الريح: تعلق الضحية بقطعة خشبية لها شكل الجسم البشري، ثم تجلد أو تصعق بالشحنات الكهربائية في أنحاء مختلفة من الجسم.

5. الشبح: تكبل يدا المعتقل خلف ظهره، ويعلق من ذراعيه أو من قدميه، ويحصل أيضًا الضرب والصعق الكهربائي.

6. العبد الأسود: يربط المعتقل بوضع يتم إدخال شواية معدنية ساخنة في شرجه.

7. الكرسي الألماني: يربط المعتقل من رجليه ومن يديه إلى كرسي معدني يتضمن أجزاء متحركة، يتحرك مسندها نحو الخلف، مما يثير تمددًا واسعًا للعمود الفقري ويضغط بقوة على الرقبة. مما يؤدي إلى صعوبة في التنفس، والوصول إلى الاختناق التام، وفقدان الوعي، وفي بعض الأحيان يمكن أن تتحطم الفقرات. تطورت هذه الطريقة بإبداع «الكرسي السوري»، هذا الكرسي مزود بشفرات معدنية مثبتة عليها بمكان تثبيت رجلي الضحية نفسه، مما يؤدي إلى إدماء قوي لكعوب الرجلين عندما تضغط الكرسي. هاتان الطريقتان يمكن أن تصاحبهما ضربات يدوية وجلد بالسياط.

8. الغسالة: توضع يدا المعتقل في حوض يشبه حوض الغسالة المقعر؛ بحيث تتعرض ذراعاه وأصابعه للسحق.

9. استخدام أدوات منزلية لحرق بعض أجزاء الجسم كالصدر والظهر والأعضاء التناسلية والفخذين والقدمين. الآلات المستخدمة هي سخان كهربائي (بالون من الماء الحار) يتم ضغط جسم المعتقل على هذا السخان؛ وهناك سخان على الكاز مغطى بصفيح معدني يجبر المعتقل على الجلوس عليه، وتستخدم أحيانًا مكواة الملابس أو آلة تلحيم كهربائية.

10. وضع قطعة من القطن المبللة بالبنزين على أجزاء مختلفة من جسم المعتقل وإشعالها؛ وضع البنزين على قدمي المعتقل وإشعاله.

11. ثقب ظهر أو جذع المعتقل بسنارة معدنية حامية.

12. إطفاء السجائر على مناطق حساسة من الجسم؛ استخدام ولاعة السجائر لحرق اللحية أو الشاربين أو شعر جسم المعتقل.

13. الصعق الكهربائي للمناطق الحساسة من الجسم، خصوصًا الأذنين، والأنف، واللسان، والرقبة، والأيدي، والأعضاء التناسلية، والشرج والقدمين.

14. وضع الملح أو مواد ضارة (محلول حمضي قلوي) على الجروح أو على الحروق التي أصابت المعتقل.

15. تشطيب وجه المعتقل –الشفاه والأذنين والأنف- بشفرات الحلاقة.

16. إجبار المعتقل على الوقوف، ووجهه نحو جدار، عاري القدمين، واليدين مربوطتين أعلى الرأس، ويتم سحق مشط القدم وأصابعه بحذاء (بسطار) يتحرك دائريًا.

17. الضرب لمدة طويلة على الجزء نفسه من الجسم (خاصة الرأس) بواسطة عصا طويلة مزودة بكرة معدنية.

18. تعليق المعتقل لمدة طويلة بربط يديه وقدميه إلى سلم وجلده.

19. الفروج: ربط المعتقل إلى عامود خشبي يدور يشبه الشواية ثم ضربه بالعصي.

20. ربط المعتقل من رقبته وتعليقه بطريقة تتجنب إحداث كسور.

21. تعليق المعتقل بمروحة مثبتة في السقف وضربه عندما تبدأ المروحة بالدوران.

22. إرغام المعتقل على التمدد بملابسه في حوض من الماء لمدة قد تطول (أحيانًا طيلة ليلة كاملة). وفي بعض الحالات يتم تبليله بالماء.

23. صب الماء على المعتقل بالتناوب: الماء البارد جدًا والماء الحار جدًا.

24. اقتلاع شعر الجسم أو الجلد بواسطة «بينسة» أو كماشة.

25. اقتلاع أظافر اليدين أو القدمين.

26. تعرض المعتقل للاعتداءات الجنسية.

27. إرغام المعتقل على الجلوس على رقبة زجاجة أو إدخال قنينة أو عصا في شرجه.

28. إرغام المعتقل على الوقوف على رجل واحدة لوقت طويل أو إرغامه على الركض وهو يحمل حملًا ثقيلًا.

29. وضع المعتقل في عزلة تامة في زنزانة صغيرة مظلمة من دون أي تواصل بشري لأيام.

30. تشغيل الإضاءة القوية عندما يكون المعتقل نائمًا، وتعريضه للإضاءة الشديدة في مدد مختلفة قصيرة أحيانًا وممتدة أحيانًا، في النهار كما في الليل، في بعض الحالات لأيام.

31. إخضاع المعتقل لموسيقى صاخبة بواسطة مكبر للصوت ولصرخات أشخاص يخضعون للتعذيب.

32. إخضاع المعتقل لإعدام وهمي، وذلك بوضع رأسه في الماء حتى يقترب من الاختناق.

33. المقصلة: إرغام المعتقل على التمدد على ظهره تعلوه مقصلة مزودة بنظام يسمح بتوقيف المقصلة قبل وصولها رقبة المعتقل بقليل.

34. تهديد المعتقل بالقول إن أقرباءه أو أصدقاءه يتعرضون، مثلًا، للتعذيب أو إلى الاعتداء الجنسي أو إلى العدوان وإلى تقطيع أطرافهم أو إعدامهم.

35. تعذيب معتقلين آخرين أمام المعتقل.

36. تعذيب أقرباء المعتقل بحضوره أو تعريضهم لاعتداء جنسي.

37. إذلال المعتقل باستخدام لغة سوقية وشتائم أو إرغامه على التعري بحضور الحراس وأشخاص من الجنس الآخر.

38. حرمان المعتقل من النوم ومن الغذاء ومن الماء ومن الهواء الطلق ومنعه من الذهاب إلى الحمام استحابة لحاجاته البيولوجية، ومنعه كذلك من الغسيل والاستحمام، ورفض زيارات الأقرباء وغيرهم ورفض المعالجة الطبية.

حزب البعث

يحتل حزب البعث منزلة أساسية في هذا الكتاب. يختلط وجوده واستمراره بوجود حافظ الأسد واستمراره، وكان طفلًا عندما عمل المؤسسون على تشكيل الحزب. انتسب رئيس الدولة المقبل في عمر 15 سنة إلى هذا الحزب، حيث تزامن ذلك مع مؤتمره الأول. وعايش فيما بعد تطوراته وأزماته كلها قبل أن يصبح من الفاعلين الأساسيين ثم المسؤول الأساسي في هذا الحزب. منذ 1971 هو الأمين العام. لكي نوضح هنا الخصائص الأساسية لهذا الحزب –الأصل، التاريخ، الأيديولوجيا، التنظيم وغيرها- اعتمدنا بشكل أساسي على كتابات فيليب روندو، وبوجه خاص على بحوث إليزابيت بيكار التي تعد في فرنسا أفضل من درس وظيفة الحزب. المقاطع الآتية مأخوذة من كتاب فيليب روندو، سورية «ماذا أعرف عنها؟»:

La Syrie, « Que sais je ?» PUF, 1978.

قام ميشيل عفلق ببلورة نظرية البعث وهي تحمل تأثيرات زكي الأرسوزي، وصلاح البيطار وأكرم الحوراني وتتلخص بشعار: «وحدة- حرية- اشتراكية»، والعقيدة «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، والمبادئ تم تحديدها في الدستور تعد نقطة الارتكاز.

فكرتان جوهريتان تسيطران على هذه المبادئ: يشكل العرب أمة واحدة، فالوطن العربي يشكل وحدة سياسية واقتصادية لا تتجزأ؛ والوطن العربي يشكل وحدة ثقافية، وأخيرًا الوطن العربي هو لأصحابه العرب.

وتتناول الفكرة الجوهرية الثانية شخصية الأمة العربية التي تتميز بفضائلها النابعة من تجددها؛ فالبعث يرى أن الاستعمار وكل ما يرتبط به يشكل مشروعًا إجراميًا.

وتشكل الإنسانية مجموعة متعاضدة حيث تجمعها القيم الحضارية المشتركة، فالعرب يغتنون بالحضارة الإنسانية ويسهمون بدورهم بإغنائها. بعد ذلك، تأتي المبادئ العامة التي يمكن تلخيصها في بعض النصوص الآتية:

«حزب البعث العربي هو حزب عربي شامل. له فروع في كل البلدان العربية. لا يتناول السياسة القطرية إلا من زاوية المصلحة العربية العليا».

«حزب البعث العربي الاشتراكي هو حزب قومي. فالقومية هي واقع حي أبدي. الفكرة القومية من وجهة نظر الحزب هي إرادة الشعب العربي في التحرر وفي الوحدة»

«إن حزب البعث العربي هو حزب اشتراكي، يعتقد أن الاشتراكية هي ضرورة حتمية في صلب القومية العربية».

«حزب البعث العربي هو حزب جماهيري، يعتقد أن السيادة هي ملك الشعب فهو وحده مصدر جميع السلطات. ويعتقد أن قيمة الدولة تكون محصلة لإرادة الشعب».

«حزب البعث العربي هو حزب ثوري لهذا فهو قرر النضال من أجل توحيد جميع العرب في دولة واحدة مستقلة».

«الوطن العربي هو هذا الجزء حيث تعيش الأمة العربية، الواقع بين جبال طوروس وخليج البصرة إلى بحر العرب وجبال أثيوبيا والصحراء وصولًا إلى المحيط الأطلنطي فالبحر المتوسط»

وأخيرًا تم رسم التوجهات في مختلف مناحي الحياة في البلاد:

- السياسة الداخلية: «نظام الدولة العربية هو نظام برلماني، دستوري. الرابطة القومية هي وحدها القائمة. النظام الإداري هو نظام لا مركزي. والسلطة القضائية مستقلة وحقوق المواطنة مضمونة بأكملها».

- السياسة الخارجية: «تتحدد السياسة الخارجية استنادًا إلى المصلحة القومية العربية. يناضل العرب بكل قواهم لإنهاء كل تأثير سياسي واقتصادي أجنبي في بلادهم.».

- السياسة الاقتصادية: «تكون الثروة الاقتصادية ملكًا للأمة. يمنع استغلال جهود الآخر. ملكية الأرض الزراعية محددة بمراقبة الدولة بما ينسجم مع خطتها الاقتصادية الشاملة. يشارك العمال في إدارة معاملهم. يتقاضون إضافة إلى أجورهم نسبة من الأرباح. الملكية والإرث هي من الحقوق الطبيعية. يجب وضع خطط عامة وشاملة».

- السياسة الاجتماعية: «تشكل الأسرة الخلية الأساسية. العمل الزامي. تأسيس نقابات حرة للعمال وللحرفيين مؤلفة من مجالس إدارة. ثقافة قومية عامة، عربية، تحررية، تقدمية، إنسانية يجب تدعيمها. تتحمل الدولة مسؤولية حماية حرية التعبير. العمل الفكري هو من الأعمال الرفيعة في إطار فكرة القومية العربية. مع فسح المجال لتأسيس الجمعيات والأحزاب. إلغاء الانفصال والتمييز بين الطبقات. البداوة حالة اجتماعية بدائية».

- التربية والتعليم: «فكرة القومية العربية يجب أن تؤثر في جميع جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية والفنية وهندسة العمارة. التعليم من وظائف الدولة دون غيرها وهو مجاني».

-

المصادر والمراجع

مراجع عامة

استند المؤلف على متابعة خطابات الرئيس الأسد وتصريحاته ومقابلاته الصادرة سنويًّا عن دار البعث لمتابعة تطور أفكار الرجل الذي يحكم سوريا منذ عام 1970.

- Bron. Xavier, Les Palestiniens, un peuple, Sycomore, (Paris, 2éme édition, 1984).
- BOURGI. Albert et WEISS Pierre, Les Complots libanais, Berger-Levrault, (Paris, 1978).
- CARRE. Olivier et MICHAUD Gérard, Les Frères musulmans, Collection Archives, Gallimard, Paris, 1983.
- BITTERLIN Lucien, Hafez al Assad, le parcours d'un combattant, Edition du Jaguar, (Paris, 1986).
- CORM. Georges, Le Proche-Orient éclaté, de Suez à l'invasion du Liban, La (Découverte/Maspero, Paris, 1983).
- FRIEDMAN. Thomas, From Beirut to Jerusalem, (Fontana-Collins, Douglas (U.K.), 1990).
- GEMAYEL. Amine, L'Offense et le Pardon, (Gallimard, Paris, 1988).

- KAMINSKY C. et KRUK S., La Syrie: politique et stratégie, (Presses universitaires de France, Paris, 1987).
- KISSINER. Henry, Les Années orageuses, (Fayard, Paris, 1983).
- NIXON. Richard, Mémoires, (Stanké, Paris, 1978).
- PAKRADOUNI. Karim, La Paix manquée, Fiches du monde arabe (FMA), (Beyrouth, 1983).
- PAKARDOUNI. Karim, Le Piège, Grasset-FMA, (Paris 1991).
- PAREJA. F.M., Islamologie, (Imprimerie catholique de Beyrouth, 1963).
- PALAZZOLI. Claude, La Syrie : le rêve et la rupture, (Sycomore, Paris, 1977).
- PETRAN. Tabitha, Syria, nation of the world, (Bon, London, 1972).
- RABINOVICH. Itamar, Syria under the Ba'ath¬-1963/1966, (Israel Universities Press, 1972).
- The War for Lebanon (1970/1983), (Cornell University Press, New York, 1984).
- RAUFER. Xavier, La Nébuleuse : le terrorisme du Moyen-Orient, (Fayard, Paris, 1987).

- RANDAL. Jonathan, Going all the way, (The Viking Press, New York, 1983).
- RONDOT. Philippe, La Syrie, Que Sais-Je, (PUF, Paris, 1978).
- PICARD. Elizabeth, Liban: état de discorde, des fondations aux guerres fratricides, (Flammarion, Paris, 1988).
- TIBAWI. A.L, A modern history of Syria, (Mac Millan, London, 1969).
- SAMARBAKHSH A., Socialisme en Irak et Syrie, (Editions Anthropos, Paris, 1980).
- TUENI. Ghassan, Une guerre pour les autres, (J.-C. Lattès, Paris, 1985).
- VAN DAM. Nikolaus, The struggle for power in Syria, (CroomHolm, London, 1979).
- WEULERSSE. Jaques, Le Pays des Alaouites, (Institut français de Damas, 1940).
- La Syrie d'aujourd'hui, ouvrage collectif publié en 1980 par le CNRS avec des articles notamment de Michel Chatelus, Jean Hannoyer, Michel Seurat.

مقالات ودراسات ووثائق

Maghreb/Machreq, Les cahiers de l`Orient, Sou`al, An Nahar arab report and memo, Rapports Amnesty International, The Middle East Watch (Jams Paul) de l`association des droits de l`homme et des libertés démocratiques dans le monde arabe (l`Harmattan), Middle Eastern Studies, revue d`études palestiniennes, The Middle East Journal. Merip reports, Nidal al Chaab, Les publications de CERMOC (Centre d`Etudes et de Recherche pour le Moyen Orient Contemporain), Le Monde diplomatique, Les Accords de Camp David (Sycomore).

صحف يومية عني بها المؤلف بانتظام

Le Monde, International Herald Tribune, The Guardian, The Independent. The Financial Times, Al Ba`ath, Tichrine.

لا بد لي من أن أتوجه بالشكر إلى الباحثين إليزابيت بيكار، جان هانوير، هيثم مناع، رشيد الهيجار، برهان غليون لمساعدتهم القيمة التي قدموها لي، وكذلك أشكر كثيرًا من الأصدقاء السوريين والعرب لمساعدتي في فهم أفضل للأوضاع في سورية.

هذا الكتاب

يأخذ هذا الكتاب أهمية خاصة في هذه المرحلة السوداء من تاريخ سورية التي تشهد تدميرًا ممنهجًا من قبل آل الأسد؛ إذ يلقي الضوء على عقدين من حكم الأسد الأب، أي مرحلة التأسيس، ومرحلة مصادرة الدولة السورية، والاستحواذ على المجتمع السوري، وبناء الآلة القمعية لإخضاع المجتمع مرة واحدة إلى «الأبد».

أسهمت هذه الدراسة -ربما- في فهم آلية عمل النظام وأساليبه، للإمساك بمفاصل الحياة جميعها، والتلاعب بها، وتسخيرها لخدمة حفنة من النخب الحاكمة التي باعت ضميرها وأخلاقها، وبرعت بالكذب والفساد والتملق والمدح والتمجيد وخلق آلهة ممسوخة تعبدها، وتفرض على الشعب السوري أن يعبدها أيضًا.

فايز القنطار

إجازة في الآداب، دبلوم التأهيل التربوي، دبلوم الدراسات العليا، جامعة دمشق 1975.
دكتوراه الدولة، جامعة فرانش كومتيه، فرنسا 1987.
عضو هيئة تدريس (1984-2013) في جامعة فرانش كومتيه (فرنسا)
وجامعة دمشق (كلية التربية) والجامعة العربية المفتوحة، الكويت.
عضو مجلس عمادة البرامج الأكاديمية في التربية منذ 2008/11/24 .
له عدّة مؤلفات، إضافةً إلى العديد من البحوث الأكاديمية، المنشورة
في دوريات متخصصة باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية .

أبو عبدو البغل

https://facebook.com/groups/abuab/

السعر: 20 دولارًا

ISBN 978-605-67950-8-4

9 786056 795084

ميسلون
للطباعة والنشر والتوزيع
Maysaloon for printing, publishing and distribution